المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



مجلة العلوم العربية

مجلة علمية فصلية محكمة

العدد الرابع والعشرون
رجب ١٤٣٣هـ
يونيو ٢٠١٢م

- **تصريف المعاني في القرآن الكريم**
  د. عبدالعزيز بن صالح العمّار

- **البلاغة النبوية في ضوء تعدد الروايات الحديثية (دراسة منهجية)**
  د. يوسف بن عبدالله العليوي

- **(حب الكتاب) في الشعر العربي إلى نهاية القرن السابع: دراسة موضوعاتية**
  د. إبراهيم بن محمد أبانمي

- **الناقة والصحراء في شعر الأعشى الكبير (ميمون بن قيس)**
  د. عمر عيد السليمان المومني

عمادة البحث العلمي
Deanship of Academic Research

www.imamu.edu.sa
e-mail: journal@imamu.edu.sa

مجلة العلوم العربية

مجلة علمية فصلية محكمة

العدد الرابع والعشرون

رجب ١٤٣٣هـ

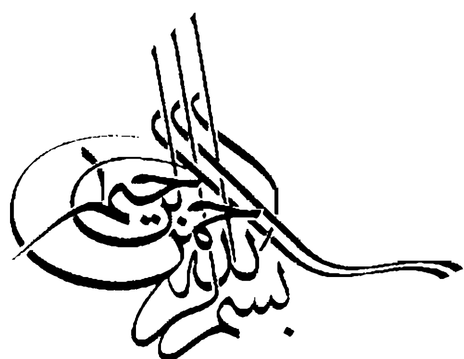
www.imamu.edu.sa

e-mail: journal@imamu.edu.sa

عمادة البحث العلمي

Deanship of Academic Research

رقم الإيداع: ٣٥٦٢ / ١٤٢٩ بتاريخ ١٩ / ٠٦ / ١٤٢٩هـ
الرقم الدولي المعياري (ردمد) ٤١٩٨ ـ ١٦٥٨



أعضاء هيئة التحرير

قواعد النشر

مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (العلوم العربية) دورية علمية محكمة، تصدر عن عمادة البحث العلمي بالجامعة. وتعنى بنشر البحوث العلمية وفق الضوابط الآتية :

أولاً : يشترط في البحث ليقبل للنشر في المجلة :

١- أن يتسم بالأصالة والابتكار، والجدة العلمية والمنهجية، وسلامة الاتجاه .

٢- أن يلتزم بالمناهج والأدوات والوسائل العلمية المعتبرة في مجاله .

٣- أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج .

٤- أن يتسم بالسلامة اللغوية .

٥- ألا يكون قد سبق نشره .

٦- ألا يكون مستلاً من بحث أو رسالة أو كتاب، سواء أكان ذلك للباحث نفسه، أم لغيره .

ثانياً : يشترط عند تقديم البحث :

١- أن يقدم الباحث طلباً بنشره، مشفوعاً بسيرته الذاتية (مختصرة) وإقراراً يتضمن امتلاك الباحث لحقوق الملكية الفكرية للبحث كاملاً، والتزاماً بعدم نشر البحث إلا بعد موافقة خطية من هيئة التحرير .

٢- أن يكون البحث في حدود (٥٠) صفحة مقاس (A ٤) .

٣- أن يكون حجم المتن (١٧) Traditional Arabic، والهوامش حجم (١٤) وأن يكون تباعد المسافات بين الأسطر (مفرد) .

٤- يقدم الباحث نسخة مطبوعة من البحث، ونسخة حاسوبية مع ملخص باللغتين العربية والإنجليزية، لا تزيد كلماته عن مائتي كلمة أو صفحة واحدة .

ثالثاً: التوثيق :

١- توضع هوامش كل صفحة أسفلها على حدة .

٢- تثبت المصادر والمراجع في فهرس يلحق بآخر البحث .

٣ - توضع نماذج من صور الكتاب المخطوط المحقق في مكانها المناسب .

٤ - ترفق جميع الصور والرسومات المتعلقة بالبحث، على أن تكون واضحة جلية .

رابعاً : عند ورود أسماء الأعلام في متن البحث أو الدراسة تذكر سنة الوفاة بالتاريخ الهجري إذا كان العَلَم متوفى .

خامساً : عند ورود الأعلام الأجنبية في متن البحث أو الدراسة فإنها تكتب بحروف عربية وتوضع بين قوسين بحروف لاتينية، مع الاكتفاء بذكر الاسم كاملاً عند وروده لأول مرة .

سادساً : تُحكَّم البحوث المقدمة للنشر في المجلة من قبل اثنين من المحكمين على الأقل.

سابعاً : تُعاد البحوث معدلة، على أسطوانة مدمجة CD أو ترسل على البريد الإلكتروني للمجلة .

ثامناً : لا تعاد البحوث إلى أصحابها، عند عدم قبولها للنشر .

تاسعاً : يُعطى الباحث عشر نسخ من المجلة، وثلاثين مستلة من بحثه .

عنوان المجلة :

جميع المراسلات باسم رئيس تحرير مجلة العلوم العربية

الرياض ١١٤٣٢- ص ب ٥٧٠١

هاتف : ٢٥٨٢٠٥١ - ناسوخ (فاكس) ٢٥٩٠٢٦١

www. imamu.edu.sa

E.mail: journal@imamu.edu.sa

المحتويات

تصريف المعاني في القرآن الكريم

د. عبدالعزيز بن صالح العمّار
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي ـ كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تصريف المعاني في القرآن الكريم

د. عبدالعزيز بن صالح العمّار
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي ـ كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

يتحدث البحث عن تصريف المعاني في القرآن الكريم، وله اهميته في الدراسات البلاغية التطبيقية في القرآن الكريم؛ فهو وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم الذي تعذر على البشر الإتيان بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. فضلا على كون التصريف لفظة قرآنية، وردت في مواضع متعددة من القرآن الكريم. كما أنه منهج قراني اتخذه القرآن في التعبير عن أداء معانيه، وإظهار موضوعاته. وقد تمت الإشارة – في هذا البحث – إلى أن هذا الموضوع لم ينل حظه، ولم يأخذ حقه من الاهتمام والتعريف في الدراسات البلاغية على مستوى التنظير والتطبيق، مع وجود بعض الإشارات والمقولات المتناثرة هنا وهناك في الدرس البلاغي قديماً وحديثاً. قام البحث على الآيات القرآنية التي ذُكر فيها هذا المصطلح، وهي عشر آيات، وقد تم ذكرها خلال هذا البحث، وقد تم تقسيم البحث إلى سبعة مباحث انطلاقاً من هذه الآيات. وهذه المباحث هي:

المبحث الأول: تعريف التصريف لغة واصطلاحاً. المبحث الثاني: حِكَم تصريف المعاني في القرآن الكريم .المبحث الثالث: موقف المشركين من تصريف آيات القرآن الكريم . المبحث الرابع: موقف المؤمنين من تصريف آيات القرآن الكريم. المبحث الخامس: علاقة تصريف الآيات بإعجاز القرآن الكريم.

المبحث السادس: تصريف آيات القرآن الكريم في كتب البلاغيين. المبحث السابع: وقفة مع تصريف المعلي في آيات التصريف في القرآن الكريم. وقد تناولتْ هذا المصطلح بتوسع تنظيراً وتطبيقاً. تنظيراً ببيان المراد به، وجهود العلماء فيه، وإشارات المفسرين إلين، وكلام البلاغين فيه، كما تناولته تطبيقاًمن خلال ايات التصريف نفسها، للنظر في آسرارها البلاغية، ونكتها البيانية، وبيان كيف تم تصريف المعاني في هذه الآيات. ثم خاتمة البحث وفهرس المصادر والمراجع.

الحمد لله حمداً يليق بجلاله وكماله، حمداً له وشكرا بأن أنعم علينا بالإيمان والقرآن، والصلاة والسلام على من بعثه ربه رحمة للعالمين محمد بن عبدالله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الكرام، ومن اهتدى بهديه، واقتفى أثره إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد جاء اختياري لموضوع "تصريف المعاني في القرآن الكريم" ؛لأهميته في الدراسات البلاغية التطبيقية في القرآن الكريم؛ فهو وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم الذي تعذر على البشر الإتيان بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، فضلا على كون التصريف لفظة قرآنية، وردت في مواضع متعددة من القرآن الكريم، كما أنه منهج قرآني اتخذه القرآن في التعبير عن أداء معانيه، وإظهار موضوعاته، وسيقدم هذا البحث بياناً للمراد من التصريف، والآيات التي ذُكِر فيها هذا المصطلح، وغاياته، وبيان موقف الناس جميعاً منه المؤمنين والكافرين، وبيان علاقته بإعجاز القرآن الكريم.

بالإضافة إلى أني سأدرس هذا المصطلح بتوسع تنظيراً وتطبيقاً، تنظيراً ببيان المراد به، وجهود العلماء فيه، وإشارات البلاغيين إليه، كما سأتناوله تطبيقاً من خلال آيات التصريف نفسها؛ للنظر في أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية، وبيان كيف تم تصريف المعاني في هذه الآيات.

ومن أهمية هذا الموضوع وبواعث دراسته: أن موضوع التصريف، وأقصد به تصريف معاني آيات القرآن الكريم لم ينل حظه، ولم يأخذ حقه من الاهتمام والتعريف في الدراسات البلاغية على مستوى التنظير والتطبيق، مع وجود بعض الإشارات والمقولات المتناثرة هنا وهناك في الدرس البلاغي قديماً وحديثاً، وأريد من هذه الدراسة أن أجمع هذه الأقوال في مؤلَّف واحد، وأن أنظمها في عقد فريد يظهر حسنه في هذا البحث إن شاء الله.

وقد جاء هذا البحث – بناء على طبيعته – في مقدمة، وسبعة مباحث، وهذه المباحث هي:

المبحث الأول: تعريف التصريف لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني: حِكَم تصريف المعاني في القرآن الكريم .

المبحث الثالث: موقف المشركين من تصريف آيات القرآن الكريم.

المبحث الرابع: موقف المؤمنين من تصريف آيات القرآن الكريم.

المبحث الخامس: علاقة تصريف الآيات بإعجاز القرآن الكريم.

المبحث السادس: تصريف آيات القرآن الكريم في كتب البلاغيين.

المبحث السابع: وقفة مع تصريف المعاني في آيات التصريف في القرآن الكريم .

ثم خاتمة البحث وفهارسه.

وبعد: فهذا ما سعيتُ إلى تحقيقه، والوصول إليه، فإن تمَّ ذلك على الوجه الذي أرجوه فقد حققتُ مرادي، وأصبتُ مبتغاي، وذلك تفضل منه – سبحانه – وتكرم، وإن كانت الأخرى فحسبي أني بذلتُ وحاولتُ، وإن لم أبلغ الكمال فحسبي – أيضاً – أني سعيتُ له واجتهدتُ، والله وحده هو الذي يتولى أمرنا، ويوفقنا إلى السداد والصواب، والحمد لله رب العالمين.

* * *

المبحث الأول: تعريف التصريف لغة واصطلاحاً:

يدل معظم أصل مادة التصريف "ص، ر، ف" – كما يذكر ابن فارس – على رجع الشيء. ومن ذلك قولهم: صرفت القوم فانصرفوا، إذا أرجعتهم فرجعوا[1]. وقد أشار إلى هذا المعنى، وأضاف إليه الأصفهاني يقول: "الصرف: رد الشيء من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيره"[2]. ويؤكد هذا المعنى – كذلك – ابن منظور حين بيّن أن "الصرف هو ردّ الشيء عن وجهه. يقال: صرفه يصرفه صرفا فانصرف. وبه نزل القرآن في قوله ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ﴾[3] أي رجعوا عن المكان الذي استمعوا فيه"[4].

ومن معانيه: صرف الدراهم، وفيه إشارة إلى أن "الدينار صُرف إلى الدراهم، أي رُجع إليها، إذا أخذت بدله"[5]. ومنه – كذلك –: صروف الدهر، وذلك لأنه يتصرف بالناس، ويقلبهم ويردهم من حال إلى حال[6]. ولهذا يقال: "حفظك الله من صرف الزمان وصروفه وتصاريفه"[7]. ومن هذا المعنى – كذلك –: تصريف الرياح، وهو صرفها من جهة إلى أخرى وتبديلها من حال إلى حال[8]، وتغييرها من وجه إلى وجه آخر.[9]

ومن المعاني – كذلك –: صرف الكلام، وهو الذي يعنينا هنا في هذا البحث، وله علاقة وثيقة بموضوع تصريف المعاني في القرآن الكريم. فمن تصريف الكلام: تزيينه والزيادة فيه، وإنما سُمي بذلك؛ لأنه إذا زُين صرف الأسماع إلى استماعه.[10]

---

(1) معجم مقاييس اللغة: مادة: صرف.

(2) مفردات ألفاظ القرآن: صرف

(3) التوبة: ١٢٧.

(4) لسان العرب: مادة: صرف.

(5) معجم مقاييس اللغة: مادة: صرف.

(6) معجم مقاييس اللغة: مادة: صرف.

(7) أساس البلاغة: مادة صرف .

(8) ينظر: لسان العرب: مادة: صرف. و: مفردات ألفاظ القرآن: مادة: صرف .

(9) ينظر: القاموس المحيط: مادة: صرف .

(10) معجم مقاييس اللغة: مادة: صرف.

ويؤكد هذا المعنى – أيضاً –: قول الفيروزآبادي صرف الحديث: أن يُزاد فيه، ويُحسن من الصرف في الدراهم، وهو فضل بعضه عن بعض في القيمة، وكذلك صرف الكلام[1]. كما أن في معنى التصريف إشارة إلى اشتقاق بعضه من بعض[2]. وفيها معنى البيان والإيضاح، وذلك أن تصريف الآيات هو إيضاحها وبيانها[3]. ولذا فهي من البلاغة والاقتدار على الكلام. ولذا فمن المعيب قولهم: " فلان لا يحسن صرف الكلام، أي فضل بعضه عن بعض ".[4]

ومن هذه المعاني اللغوية للفظة " صَرفَ " جاء المعنى الاصطلاحي للفظة التصريف في القرآن الكريم. فقد تضمنت الإشارة إليه، والدلالة عليه. ففي المعاني السابقة الإشارة إلى رد الكلام بعضه على بعض، واشتقاقه منه، والإشارة – كذلك – إلى تزين الكلام وتحسينه، والزيادة فيه من خلال هذا التصريف. والإشارة – كذلك – إلى معنى الإيضاح والبيان. كما أنه مَساق مَساق المدح، وأن من لا يحسنه مذكور في سياق القدح والذم.

إذن فهذه هي المعاني اللغوية للفظة التصريف. كما أنها لفظة قرآنية وردت بهذا المعنى في عدة مواضع من القرآن الكريم، وفي سياقات متعددة. كما ورد هذا المصطلح في كتب بعض العلماء المتقدمين في الحديث عن بلاغة القرآن وإعجازه. كما سيأتي بيان ذلك في ثنايا هذا البحث.

ولكن الغريب في هذا الأمر أن هذا المصطلح لم ينل حظه وحقه بالاهتمام والتعريف في الدراسات البلاغية على مستوى التنظير والتطبيق، وعلى النقيض من ذلك المفسرون، فإن لهم جهوداً بارزة في بيان معنى التصريف، وذكر غاياته وحِكَمه من خلال تفسيرهم للآيات التي ذُكر فيها التصريف، ولذا سأذكر المعنى الاصطلاحي للتصريف من خلال كلام المفسرين، وبيانهم لمعنى التصريف، المراد منه.

---

(١) القاموس المحيط: مادة: صرف.

(٢) ينظر: القاموس المحيط: مادة: صرف .

(٣) ينظر: لسان العرب: مادة: صرف، و: القاموس المحيط: مادة: صرف.

(٤) أساس البلاغة: مادة: صرف .

ولذا فمن المناسب هنا ذكر الآيات التي ورد فيها التصريف؛ ليتم الربط بينها وبين معنى التصريف الذي يذكره المفسرون، وهذه الآيات هي:

الآية الأولى: قول الله – تعالى –: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٦]

الآية الثانية: قول الله – تعالى –: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٥]

الآية الثالثة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥]

الآية الرابعة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٨]

الآية الخامسة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤١]

الآية السادسة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩]

الآية السابعة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤]

الآية الثامنة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣]

الآية التاسعة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٠]

الآية العاشرة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٧]

وبعد النظر في كلام المفسرين لهذه الآيات وتأمله، وإمعان النظر فيه، تبين لي عدة معانٍ للتصريف، وفيما يأتي ذكر لهذه المعاني، وبيان المراد بها، وبيان للمفسرين الذين ذكروا هذه الأقوال، فمن معاني تصريف الآيات ما يأتي:

أولاً: البيان والتوضيح:

يدل على هذا المعنى قول ابن كثير في بيان معنى قوله – تعالى – ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦] يقول: "أي نبينها ونوضحها ونفسرها دالة على أنه لا إله إلا الله، وأن ما يعبدون من دونه الباطل"[١]، وقد ذكر هذا المعنى في موضع آخر، فبين أن المراد بتصريف الآيات أي توضيحها وبيانها[٢]. ويذكر في موضع آخر أن معنى قوله – تعالى –: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف: ٥٤] أن المعنى: أي بينا لهم الحجج، والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرعناه وبسطناه[٣]. ويكرر هذا المعنى في موضع آخر من مواضع آيات التصريف فيذكر أن معنى قوله ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] أي "بينا للناس في هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور، وفصلناها؛ كيلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى"[٤].

وممن أشار إلى هذا المعنى – كذلك –: ابن عطية الأندلسي فذكر أن معنى قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦] "أي هكذا نبين الأمور"[٥]. وقد أشار الزجاج إلى هذا المعنى، فذكر أن معنى صرفنا: بينا[٦]. وممن ذكر هذا المعنى، وأشار إليه الطاهر ابن عاشور، يقول: "وأصل معنى التصريف: التغيير والتبديل؛ لأنه مشتق

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ١٥٠/٢.

(٢) ينظر: المصدر السابق: ١٦٠/٢.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٧٠/٣.

(٤) المصدر السابق: ١٠١/٣.

(٥) المحرر الوجيز: ٤١٤/٢.

(٦) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٢٤١/٣.

من الصرف، وهو الإبعاد، وكُني به هنا عن التبيين والتوضيح، لآن تعدد أنواع الدلالة يزيد المقصود وضوحاً ". [1]

ثانيا: الترديد والتكرار:

وقد ورد هذا المعنى عند كثير من المفسرين عند تفسيرهم لآيات التصريف في القرآن، في معرض بيان المراد بها، وقد ذكر هذا المعنى الطبري، عند تفسيره لقوله – تعالى – ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥] "يقول – تعالى ذكره – لنبيه محمد ﷺ: انظر يا محمد بعين قلبك إلى ترديدنا حججنا على هؤلاء الكافرين بربهم الجاحدين نعمه، وتصريفنا فيهم" [2]، وممن ذكر هذا المعنى – كذلك – أبو السعود، فذكر أن معنى قوله ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي "انظر كيف نكررها ونقررها مصروفة من أسلوب إلى أسلوب، تارة بترتيب المقدمات العقلية، وتارة بطريق الترغيب والترهيب، وتارة بالتنبيه والتذكير" [3]، كما ذكر هذا المعنى في موضع آخر، فبين أن معنى "صرفنا"، أي "كررنا ورددنا على أنماط مختلفة، توجب زيادة وتقرير وبيان ووكادة ورسوخ واطمئنان" [4].

وممن ذكر هذا المعنى وأشار إليه البقاعي، فذكر أن معنى قوله ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي "نكررها موجهة وفي جميع الوجوه البديعة النافعة البليغة" [5]، وممن أشار إلى معنى الترديد في بيان معنى التصريف أبو حيان الأندلسي، فبين أن المراد بقوله – تعالى – ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ "أي مثل هذا التصريف والترديد نرددها، وهي الحجج الدالة على الوحدانية، والقدرة الباهرة التامة" [6]، وذكر ابن عطية الأندلسي أن المراد بتصريف

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٥٤ .

(٢) جامع البيان عن تأويل اي القرآن: ٩/ ٣١٠ .

(٣) إرشاد العقل السليم: ٢/ ١٣٤.

(٤) المصدر السابق: ٥/ ١٩٤.

(٥) نظم الدرر: ٧/ ١٤٤.

(٦) البحر المحيط: ٤/ ٢٢٣.

القول "هو: ترديد البيان عن المعنى"[1]. وممن أشار إلى هذا المعنى – كذلك – محيي الدين زادة. فذكر أن الله كرر في القرآن الكريم "تقرير جميع ما يحتاج إليه الإنسان في كل واحدة من النشأتين بوجوه مختلفة، وأساليب عجيبة، يتحير الناظر فيها بالتأمل والاستبصار"[2]. وممن ذكر هذا المعنى – كذلك – الشوكاني فبين أن معنى قوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي "رددنا القول فيه بكل مثل، يوجب الاعتبار من الآيات والعبر، والترغيب والترهيب، والأوامر والنواهي، وأقاصيص الأولين والجنة والنار والقيامة"[3]. وممن ذكر هذا المعنى – أخيراً – الألوسي، يقول في معنى قوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ أي "كررنا ورددنا على أساليب مختلفة توجب زيادة تقرير ورسوخ للناس من أهل مكة وغيرهم"[4]. ويقول في موضع آخر – في بيان قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ – أي "كررنا وأوردنا على وجوه كثيرة من النظم في هذا القرآن الجليل الشأن "هـ" لمصلحتهم ومنفعتهم"[5].

ثالثا: التفنن والتنوع:

ومن معاني التصريف التي يذكرها المفسرون: التفنن والتنوع في ذكر آيات القرآن، وبيان معانيه، ومن الأقوال الدالة على هذا المعنى: قول أبي حيان فيذكر أن المراد بقوله: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ أي "لم نجعله نوعاً واحداً، بل وعداً ووعيداً، ومحكماً ومتشابها، وأمراً ونهياً، وناسخاً ومنسوخاً، وأخباراً وأمثالاً، مثل تصريف الرياح من صبا ودبور، وجنوب وشمال"[6]. ويؤكد هذا المعنى – كذلك – البقاعي في قوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي: "أنا حولنا الكلام، وطرقناه في كل وجه من وجوه البيان،

---

(1) المحرر الوجيز: ٣/٤٨٤.

(2) حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي: ٣/٢٦٦.

(3) فتح القدير: ٣/٢٥٧. وقد ذكر هذا المعنى في موضع آخر. ينظر: ٤/٨١.

(4) روح المعاني: ٨/١٥٩

(5) المصدر السابق: ٨/١٥٩.

(6) البحر المحيط: ٦/٣٦.

وألبسناه من العبارات الرائعة، والأساليب المتناسقة مما سار بها في غرابته كالمثل، يقبله كل من يسمعه، وتضرب به آباط الإبل في سائر البلاد بين العباد، فتبشر به قلوبهم، وتلهج به ألسنتهم "[1]، وأكد هذا المعنى في موضع آخر. فيذكر أن معنى قوله ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ ﴾ أي " ذكرناه محولاً في أساليب وأفانين متنوعة ومؤتلفة))[2]. وممن أشار إلى هذا المعنى في بيان المراد بالتصريف أبو السعود. فذكر أن معنى قوله – تعالى – ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ أي " ومثل ذلك التصريف البديع نصرف الآيات الدالة على المعاني الرائعة، الكاشفة عن الحقائق الفائقة، لا تصريفاً أدنى منه"[3]. وممن ذكر هذا المعنى السعدي يقول – في بيان معنى قوله ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ – أي " ننوعها ونأتي بها في كل فن، ولتنير الحق، وتستبين السبيل))[4]، وقد أشار إلى هذا المعنى في تفسيره لمعنى قوله ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ ﴾ فذكر أن المعنى: " أي نوعناها أنواعاً كثيرة، تارة بذكر أسمائه الدالة على العدل والانتقام، وتارة بذكر المثلات التي أحلها بالأمم السابقة، وأمر أن تعتبر بها الأمم اللاحقة، وتارة بذكر آثار الذنوب، وما تكسبه من العيوب، وتارة بذكر أهوال القيامة، وما فيها من المزعجات، والمقلقات، وتارة بذكر جهنم، وما فيها من أنواع العقاب، وأصناف العذاب)) .[5]

كما ذكر هذا المعنى الطاهر ابن عاشور – أيضاً – ، يقول: " تصريف الآيات: اختلاف أنواعها، بأن تأتي مرة بحجج مشاهدات في السموات والأرض، وأخرى بحجج من دلائل في نفوس الناس، ومرة بحجج من أحوال الأمم الخالية التي أنشأها الله، فهي متحدة في الغاية، مختلفة في الأساليب، متفاوتة في الاقتراب من تناول الأفهام عامها وخاصها، وهي أيضاً مختلفة في تركيب دلائلها من جهتي المقدمات العقلية، وغيرها من جهة الترغيب

---

(1) نظم الدرر: ١٢/ ٨٨ .

(2) المصدر السابق: ١٢/ ٣٥٠ .

(3) إرشاد العقل السليم: ٣/ ١٧٠.

(4) تيسير الكريم الرحمن:: ٢/ ٣٢ .

(5) المصدر السابق: ٣/ ٣٥٤ .

والترهيب، ومن جهة التنبيه والتذكير، بحيث تستوعب الإحاطة بالإفهام على اختلاف مدارك العقول))[1].

ويؤكد في موضع آخر هذا المعنى، حيث ذكر أن معنى قوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾ أي " تفنن الاستدلال بالدلائل الدالة على عظيم القدرة، المقتضية الواحدانية، فذلك تصريف أي تنوع وتفنن للآيات آي الدلائل))[2]، وممن ذكر هذا المعنى – كذلك – القاسمي، فبين أن معنى قوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ " أي نوعنا في هذا القرآن الجامع للمهمات، وأنواع السعادات لمصلحة الناس))[3]، وممن ذكر هذا المعنى، وأشار إليه – أخيراً – سيد قطب، فأوضح أن المراد بـ" صرفناه" في قوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي " عرضناه عليهم في صور شتى، وأساليب متعددة ولفتات متنوعة، وخاطبنا به مشاعرهم ومداركهم، وأرواحهم وأذهانهم، ودخلنا عليهم به من كل باب من أبواب نفوسهم، وبكل وسيلة تستجيش ضمائرهم))[4]

وبعد: فهذه بعض المعاني المرادة من تصريف الآيات، ذكرتها من خلال أقوال المفسرين للآيات التي ذُكر فيها تصريف آيات القرآن الكريم، وأحب أن أشير في هذه المقام أني تعمدتُ نقل النصوص في بيان المراد من التصريف، لأبين تعريفه والمراد به، ويحسن والحالة هذه نقل كلام المفسر بنصه؛ للوقوف عليه، ولتبيين دلالاته، وقد أدى هذا إلى كثرة النقول وتعددها، من أجل تحقيق هذه الغاية، كما أنه لا تعارض بين هذا المعاني للتصريف، بل يكمل بعضها بعضا، وكل قول من هذه الأقوال يُعد وجها من وجوه هذا التصريف، وهذا البيان، بل لا أدعي أني أحطتُ بتعريفه وبيان المراد به، ولكنها محاولات جادة من خلال الوقوف مع كلام المفسرين، بعد ضم النظير إلى مثله، واستبعاد المكرر، والله ولي التوفيق.

---

(١) التحرير والتنوير: ٧/ ٢٢٥، وذكر هذا المعنى في موضع آخر، يُنظر: ٢٦/ ٥٥ .

(٢) التحرير والتنوير: ٨/ ١٨٦.

(٣) محاسن التأويل: ١١/ ٤٠٧٣ .

(٤) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٥٧٠.

المبحث الثاني: حِكَم تصريف المعاني في القرآن الكريم:

المتأمل في آيات التصريف يجد أن لها حِكماً سعت إلى تحقيقها، وغاية ترنو إلى الوصول إليها، ولأهمية هذه الحكم تم الحديث عنها، وإبانتها، بل النص عليها في هذه الآيات، وفيما يأتي بيان لهذه الحكم:

الحكمة الأولى: رجاء الفقه:

تمت الإشارة إلى هذه الحكمة في قوله ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٥]

وفي هذه الحكمة دلالة واضحة " أن الله – سبحانه وتعالى – إنما أنزل هذا القرآن، وصرف فيه الآيات؛ لكي " يفهموا ويتدبروا عن الله آياته وحججه وبراهينه".[١]

وقد تضمن قوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ بياناً لحكمة تصريف الآيات، وإنها لغاية عظيمة، وحكمة جليلة، والمعنى – كما يذكر الطبري –: أي " ليفقهوا ذلك ويعتبروه، فيذَّكَّروا ويزدجروا عما هم عليه مقيمون مما يسخط الله منهم من عبادة الأوثان والأصنام، والتكذيب بكتاب الله – تعالى – ذكره، ورسوله ﷺ".[٢]

والمتأمل لهذه الآية يجد أن مفعول " يفقهون" جاء محذوفاً، والحذف لحكمة في هذا السياق، فالحذف هنا يفيد العموم، ولو ذكر لانحصرت الحكمة في المذكور، وفي ذلك تقييد لهذا التصريف، والذي يتوافق مع عظمة هذا التصريف ومكانته وحكمه أن يكون مفعول " يفقهون" محذوفاً؛ وذلك لتذهب النفس في تقديره كل مذهب، وتسلك في تحديده كل مسلك، وهذا هو المراد.

كما أن في هذا الحذف حثاً للعقول على التأمل وإمعان النظر، وذلكم هو المطلوب والغاية من نزول القرآن الكريم، ولذا جاءت جملة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ مفصولة عن

---

(١) تفسير القران العظيم: ٢/ ١٦٠.

(٢) جامع البيان عن تأويل أي القران: ٩/ ٣١٠.

الجملة التي قبلها. فبين الجملتين شبه كمال الاتصال. فالجملة الثانية جواب عن سؤال ناشئ من مضمون الجملة التي قبلها، فقد أثار ذكر التصريف، والإشارة إليه ذهن المتلقي إلى الحكمة منه، والغرض الذي سعت له، فجاءت جملة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ جواباً عن ذلك كله، وبياناً له.[1]

ولذا تعددت أقوال المفسرين في تحديد المفعول وبيانه. فمن معاني الفقه: الاعتبار، والادكار، والانزجار[2]. كما أن من معانيه: التدبر، والنظر. يدل على ذلك قول ابن كثير: " أي يفهمون ويتدبرون عن الله آياته، وحججه وبراهينه"[3]. ومن معانيه – أيضاً–: العلم[4]. والمعنى من هذه الحكمة: أن يكون هذا التصريف سبباً في أن يغير حالهم، وأن ينتفعوا به، وأن يكون حالهم "حال من يرجى فهمه وانتفاعه"[5]. وأن يكون ذلك داعياً لهم أن " يقفوا على جلية الأمر فيرجعوا عما هم عليه من المكابرة والعناد".[6]

ولا غرو أن يحقق التصريف هذه الغاية، وتكون له هذه الحكمة؛ وذلك أن " في اختلاف الآيات ما يقتضي الفهم. إن غربت آية لم تغرب الأخرى"[7]، وفي هذا دلالة واضحة وصريحة على أنه – سبحانه – أراد بتصريف الآيات، وتقرير هذه البيانات أن يفهم الناس تلك الدلائل، ويفقهوا تلك البينات، إشارة إلى أنه – سبحانه – " ما صرف هذه الآيات إلا لمن فقه وفهم، فأما من أعرض وتمرد فهو – تعالى – ما صرف هذه الآيات لهم. والله أعلم".[8]

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٨/٢٠٥ .

(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٩/٣١٠ .

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٢/١٦٠ .

(٤) ينظر: البسيط: ٨/٢٠٥

(٥) نظم الدرر: ٧/١٤٤ .

(٦) إرشاد العقل السليم: ٣/١٤٦ .

(٧) البحر المحيط: ٤/١٥٦ .

(٨) مفاتيح الغيب: ١٣/٢٠

وقد أشار سيد قطب إلى هذا المعنى تلميحاً لا تصريحاً حين ختم تفسيره لهذه الآية بقوله " والله نسأل أن يجعلنا ممن يصرف الله لهم الآيات فيفقهون".[1]

الحكمة الثانية: البيان:

تمت الإشارة إلى هذه الحكمة في قوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥]. وفي لام التعليل في قوله "ذ" إشارة واضحة إلى هذه الحكمة، وكشف عنها، ولذا فإن هذه اللام – كما يذكر الزمخشري – حقيقية؛ " وذلك أن الآيات صُرفت للتبيين، ولم تصرف ليقولوا درست))[2]، وقد أكد هذا المعنى أبو السعود في قوله: " واللام على الأصل؛ لأن التبيين غاية التصريف"[3]، وفي تفسير ابن كثير لهذه الآية تأكيد لهذا المعنى، يقول: في معنى قوله ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ " أي لنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه، فلله – تعالى – الحكمة البالغة في إضلال أولئك، وبيان الحق لهؤلاء".[4]

الحكمة الثالثة: إرادة التذكر:

جاءت الإشارة إلى هذه الحكمة في آيتين من آيات التصريف، وفي ذلك إشارة إلى أهميتها، وأنها حكمة بالغة، وغرض رئيس من تصريف آيات القرآن الكريم، وهاتان الآيتان، هما:

الآية الأولى: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤١]

والآية الثانية: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٠]

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/١١٢٦.

(٢) الكشاف: ٢/٤٢.

(٣) إرشاد العقل السليم: ٣/١٧١.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٢/١٨٢.

والغرض من هذا التصريف بيِّن جلي، والحكمة ظاهرة واضحة، والمعنى: أن الله – تعالى – "صرَّف لعباده في هذه القرآن، أي نوّع الأحكام ووضحها، وأكثر من الأدلة والبراهين، ووعظ وذكر، لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلكوه، وما يضرهم فيدعوه".[1]

وإنها لغاية بينة وجليلة، كما أنها سهلة وميسرة، وقد أشار إلى هذا المعنى سيد قطب، يقول في قوله "﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ " فالتوحيد لا يحتاج إلى أكثر من التذكر، والرجوع إلى الفطرة ومنطقها، وإلى الآيات الكونية ودلالتها".[2]

والخطاب في قوله ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ للكفار، علَّ هذا التصريف أن يكون دافعاً لهم للتذكرة، والاتعاظ، والتدبر، وأن يكون سبباً لهم للإقلاع عما هم فيه من الشرك والظلم والعناد.[3]

ولا غرو أن يكون هذا التصريف سبباً للتذكر والاتعاظ وداعياً له ومحققاً؛ وذلك أن الكلام إذا كان "مصرَّفا فيه على أنواع كان أقرب من الذكر، وأبعد عن السآمة"[4]، وقد أوضح هذا المعنى، وزاده بسطة وبياناً محيي الدين زادة، يقول: " ثم إن المقصود من التذكر والاتعاظ أن تطمئن قلوبهم إلى هذا المعنى الذي كُرر تقريره بوجوه مختلفة بقرينة قوله ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ فإن النفور مقابل للطمأنية، كأنه قيل: كررنا القول في هذا المعنى، أو كررنا هذا المعنى في هذا القرآن المنزَّل؛ ليتعظوا، ويطمئنوا إليه، فما يزيدهم إلا نفوراً فيه تعكيس بما ينبغي من حيث أن حق هذا التكرير أن يزيدهم اتعاظاً وطمأنية قلب، ومع هذا فزادهم نفوراً وعناداً".[5]

---

(١) تفسير الكريم الرحمن: ٣/١٠٩.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/٢٢٣٠.

(٣) ينظر: فتح القدير: ٣/٢٢٩.

(٤) البسيط: ١٣/٣٤٢.

(٥) حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي: ٣/٢٢٥.

ولذا فالمتأمل للفظة "لِيَذَّكَّرُوا" – المتضمنة لبيان الحكمة من تصريف آيات القرآن – يجد أن فيها التفاتاً، ومن بلاغة القرآن، ودقائق نظمه أن الالتفات التي تم فيها كان إلى الغيبة. فهو التفات من خطاب المشركين إلى خطاب المؤمنين، وفي هذا إشارة من طرف خفي إلى موقف الكفار من هذا التصريف، وإلى عدم انتفاعهم به، وعدم تحقيقهم لهذه الغاية، فقد أعرضوا عن القرآن، وعن الإقبال عليه، وعن تحقيق غاياته وحِكمه، فأعرض الله عنهم، ولم يقبل عليهم بخطابه؛ جزاء وفاقاً[1]. وقد أشار أبو السعود إلى هذا المعنى يقول: " والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاء الحال أن يعرض عنهم، ويحكي للسامعين هناتهم ".[2]

الحكمة الرابعة: رجاء التقوى، وحدوث الذكر:

وردت الإشارة إلى هذه الحكمة من التصريف في قوله – تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣]

تضمنت هذه الآية حكمتين من حِكم تصريف الآيات، أما الأولى فهي قوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ والآخرى في قوله ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ وثمة ربط بين تصريف الآيات وبين هذه الحكم، فتلك غايتها، وثمرة من ثمارها، وجميل أن يُربط تصريف الآيات ببيان غايته، وإظهار حكمته؛ فذلك سبب للإيمان بالقرآن، والإقبال عليه، وإنها لحكمة جليلة، وثمار يانعة لهذا التصريف، وحسبك بالتقوى حكمة وثمرة وعلة لتصريف الآيات، فحسب هذا التصريف أن يكون سبباً لهم أن يؤمنوا ويتقوا.

جاء مفعول "يَتَّقُونَ" محذوفاً، وفي هذا توافق مع بلاغة هذا التصريف، وعظيم أثره، ونفعه عليهم، ومن هنا تعددت أقوال المفسرين في تقدير هذا المحذوف، ولكن هذه الأقوال على تعددها وتنوعها فإنها كلها محققة لهذه التقوى، وموجبة لها، فلعلهم

---

(١) يَنظر: التحرير والتنوير: ١٥/ ١٠٩.

(٢) إرشاد العقل السليم: ٥/ ١٧٤.

بسبب هذا التصريف يتقون المحارم، ويجتنبون الفواحش[1]، وأن يجتنبوا الشرك، وعبادة الأوثان[2].

كما أن في مجيء لفظة "يَتَّقُونَ" فعلاً مضارعا إشارة إلى تجدد هذه التقوى، وتكرر حدوثها، وتنوع وقوعها.

وأما الحكمة الأخرى التي تضمنتها هذه الآية فهي قوله ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾، والمعنى: " أن يحدث لهم القرآن تذكرة فيعتبرون ويتعظون بفعلنا بالأمم التي كذبت الرسل قبلها، وينزجرون عما هم عليه مقيمون من الكفر بالله".[3]

وقد تضافرت جملة ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ – بما توافر فيها – مع جملة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ في الدلالة على هذا المعنى، وتحقيقه آكد تحقيق وأبلغه، فقد جاءت لفظة "يُحْدِثُ" فعلاً مضارعاً، وفي ذلك إشارة إلى تجدد حدوث هذه التذكرة، وتكرر وقوعها، فهي متجددة متكررة مع تحدد هذا التصريف، وتكرر حدوثه، وفي ذلك تعاقب لهذه التذكرة، ومداومة عليها من قِبلهم.

وفي تقديم الجار والمجرور "لهم" إشارة إلى هذا المعنى، فهم المقصودون من هذا التصريف، وهم المؤمل منهم أن يحققوا هذه الغايات، وأن يتأملوا هذه الحِكم. ففي هذا التقديم إشارة إلى الاهتمام بأمرهم، والعناية بحالهم، فلعلهم بعد هذا أن يهتموا بتصريف الآيات، وأن يقبلوا عليه، وأن يحققوا غاياته.

كما أن تنكير لفظة "ذِكْرًا" دلالة على عِظم هذا الذكر وتنوعه، ولذا فإن معنى "ذِكْرًا" أي يحدث لهم تصريف الآيات اعتباراً واتعاظاً وقيل: شرفاً، وقيل: طاعة وعبادة؛ لأن الذكر يطلق على هذه المعاني كلها.[4]

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/١٨٥.

(٢) ينظر: معالم التنزيل: ٣/٢٣٢.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٦/١٧٨.

(٤) فتح القدير: ٣/٣٨٩.

والمتأمل لحكم التصريف في هذه الآية في قوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ يجد مغايرة في إسناد ترجي التقوى، وفي إسناد حدوث الذكر، فقد أُسند ترجي التقوى إلى المخاطبين في قوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ والعلة في ذلك؛ أن " التقوى عبارة عن انتفاء فعل قبيح وذلك استمرار على العدم الأصلي، فلم يسند للقرآن "[1]، بخلاف حدوث الذكر فقد أسند إلى القرآن، والعلة في ذلك؛ " أنه حَدثَ بعد أن لم يكن، فجازت إضافته إلى القرآن ".[2]

والمتأمل – كذلك – في حكمة تصريف الآيات في هذه الآية في قوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ يجد أن حرف العطف " أو" جاء بين هاتين الحكمتين، ولا منافاة بين التقوى وحدوث الذكر، بل لا يكون أحدهما بدون الآخر، ولا يصح حدوث الاتقاء إلا مع الذكر، فما دلالة هذا الحرف " أو" في هذا المقام؟، وقد أورد هذا التساؤل الإمام فخر الدين الرازي، وأجاب عنه بقوله: " هذا كقولهم جالس الحسن أو ابن سيرين، أي لا تكن خالياً منهما، فكذا ههنا، أو يقال: إنا أنزلنا القرآن؛ ليتقوا، فإن لم يحصل ذلك فلا أقل من أن يحدث لهم ذكراً وشرفاً، وصيتاً حسنا، فعلى هذين التقديرين يكون إنزاله تقوى ".[3]

إذن فهذه هي حكمة تصريف الآيات التي تضمنتها هذه الآية، ولا غرو أن يكون لهذه الآيات وقد نزلت بهذه الطريقة هذا الأثر، وتلك الغاية؛ وذلك أن " كونه مصرّفاً فيه من الوعيد أكبر سبب، وأعظم داعٍ للتقوى، والعمل الصالح، فلو كان غير عربي، أو غير مصرف فيه لم يكن له هذا الأثر)).[4]

الحكمة الخامسة رجاء الرجوع:

وردت الإشارة إلى هذه الحكمة من التصريف في قوله – تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٧]

---

(١) البحر المحيط: ٦ /٢٦١.

(٢) مفاتيح الغيب: ٢٢/١٠٥

(٣) المصدر السابق: ٢٢/١٠٥.

(٤) تيسير الكريم الرحمن: ٣/ ٢٥٤.

نصت الآية على الحكمة من تصريف الآيات في قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. والسؤال يرجعون عن ماذا؟ لم يُذكر في الآية. فقد حُذف مفعول "يَرْجِعُونَ". والغرض من هذا الحذف: الإطلاق، وإرادة العموم، وعدم التقييد بمذكور. فلو ذُكر المفعول لانحصر في المذكور، وفي هذا تقليل لحكم التصريف وغاياته. ولذلك حُذف المفعول لتعدد التقديرات، ولتذهب النفس في تعيينه وتحديده كل مذهب، ولذا تعددت أقوال المفسرين، وتنوعت في تقدير هذا المحذوف. فذكر الطبري أن المعنى ليرجعوا عما كانوا عليه مقيمين من الكفر بالله وآياته. وقد أكد هذا المعنى الرازي، يقول: "لكي يرجعوا عن كفرهم، دل بذلك على أنه – تعالى – أراد رجوعهم، ولم يرد إصرارهم".[1]

ولا يخفى أن في قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ تعريضاً بكفار مكة، بأنهم أهل كفر وتكذيب، وإعراض وعناد، وأنه ما نزل هذا القران،وصرفت آياته إلا لكي يرجعوا إلى ربهم، ويقلعوا عما هم فيه.[2]

ولذا فإن جملة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ مستأنفة لإنشاء الترجي، وموقعها موقع المفعول لأجله. " أي رجاء رجوعهم. والرجوع هنا مجاز عن الإقلاع عما هم فيه من الشرك والعناد، والرجوع من الله يستعمل مجازاً في الطلب، أي توسعة لهم وإمهالاً؛ ليتدبروا ويتعظوا".[3]

إذن فقد أنزل الله القرآن، وصرف في آياته ونوع لهذه الغاية، ولتلك الحكمة التي تم الإبانة عنها بقوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فلعل الكفار – بسبب هذا التصريف – " يرجعون إلى ربهم، ويثوبون، ولكنهم مضوا في ضلالتهم، فأخذهم العذاب الأليم ألواناً وأنواعاً، تتحدث بها الأجيال من بعدهم، ويعرفها الخلف من ورائهم".[4]

---

(١) مفاتيح الغيب: ٢٨/٢٦.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٦/د د .

(٣) المصدر السابق: ٢٦/د د .

(٤) في ظلال القرآن: ٦/٣٢٦٨ .

ومن حكم التصريف – كذلك – ما تضمنه قوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥] فقد تضمن قوله ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ حكمة أخرى من حكم تصريف آيات القرآن. ولكن تم إرجاء الحديث عنها؛ لأنها ستأتي في مباحث قادمة.[١]

وثمة حِكم أخرى للتصريف غير ما ذُكر من خلال هذه الآيات، ومن ذلك قول محيي الدين زادة، فذكر أن المراد بتصريف الآيات: " بيانها وإيرادها على الوجوه المختلفة المتكاثرة ".[٢]. ثم بيَّن الحكمة من ذلك بقوله " بحيث تكون كل واحدة منها يقوي ما قبله من الإيصال إلى المطلوب "[٣]. وذكر القاسمي أن من حكم هذا التصريف: " إقامة الحجة على الناس جميعاً، وعلى الكافرين على وجه الخصوص. فقد عرف التصريف بأنه: " إيراد المعنى الواحد على وجوه كثيرة في سائر المواضع "[٤]. ثم بيَّن الحكمة من هذا التصريف بقوله: لتكمل الحجة على المخالفين المواضع ".[٥]

ومن حكم هذا التصريف وغاياته: طول التأمل، وكثرة التدبر لهذه الآيات التي صُرفت على معانٍ كثيرة، وأحوال متعددة ومتغايرة، وقد أشار إلى هذه الحكمة الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني، يقول: – بعد أن تحدث عن التصريف، وعن هذه الخاصية الأسلوبية التي تميز بها أسلوب القرآن الكريم، وبها صار معجزاً –: " واعلم أن تصريف القول في القرآن على هذا النحو كان فناً من فنون إعجازه الأسلوبي كما ترى، وكان في الوقت نفسه مِنَّة يمنّها الله على الناس؛ ليستفيدوا عن طريقها كثرة النظر في القرآن والإقبال عليه قراءة واستماعاً، وتدبراً وعملاً، وأنه لا عذر معها لمن أهمل هذه النعمة، وسفه نفسه، اقرأ – إن شئت – قوله سبحانه في سورة الإسراء: ٨٩ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ

---

(١) يُنظر: صفحة: ٢٦ من هذا البحث.

(٢) حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي: ٢/١٩٦

(٣) المصدر السابق: ٢/١٩٦

(٤) محاسن التأويل: ٦/٢٤٥٦.

(٥) المصدر السابق: ٦/٢٤٥٦.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، وقوله – سبحانه – في سورة الكهف: ٥٤ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾".[1]

* * *

(١) مناهل العرفان: ٢/٣٤٥.

المبحث الثالث: موقف المشركين من تصريف آيات القرآن الكريم:

جاء الكشف عن موقف المشركين من تصريف آيات القرآن من خلال آيات التصريف، فقد تضمنت هذه المواقف، وبينته أتم بيان وجلاء، وفيما يأتي وقفة مع هذه الآيات لبيان موقفهم منه.

الموقف الأول:

جاء ذكر هذا الموقف، والإبانة عنه في قوله ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٦]

والمؤسف حقاً أن يكون هذا الموقف ناتجاً عن تصريف الآيات، ومنبثقاً منه، فقد كان منهم هذا الموقف بعد تصريف الآيات لهم، والمعنى – كما يذكر الطبري –: أي " ثم هم مع متابعتنا عليهم الحجج، وتنبيهنا إياهم بالعبر عن الادكار والاعتبار يعرضون "[1]. وقد أكد هذا المعنى ابن كثير يقول: " أي ثم إنهم مع هذا البيان يصدفون أي يعرضون عن الحق، ويصدون الناس عن اتباعه"[2]، ومما يدل – كذلك – على أن هذا الموقف ناتج من تصريف هذه الآيات قول القاسمي: في بيان معنى﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ " أي بعد رؤيتهم تصريف الآيات يعرضون عنها، فلا يتأملون فيها عناداً وحسداً وكبراً")).[3]

وقد حذف متعلق مفعول "يَصْدِفُونَ "؛ إشارة إلى أن هذه الصفة صارت لازمة لهم لا تنفك عنهم، وأن موقفهم هذا من التصريف لا يتغير، والمعنى: " أنهم يعرضون إعراضاً لازماً لهم لزوم الصفة"[4]، وفي هذا إشارة إلى أن صدور هذه الصفة منهم، وأن يكون هذا موقفهم من تصريف آيات القرآن الكريم، هذا بحد ذاته ذم ومنقصة بحقهم، بغض النظر عن أي شيء صدفوا وأعرضوا.

---

(١) جامع البيان عن تأويل أي القرآن: ٩/١٠، ٢٠١.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/١٠، ١٥٠.

(٣) محاسن التأويل: ٦/١٣١٧.

(٤) نظم الدرر: ٧/١١٩.

وثمة سرٌ آخر في حذف مفعول "يَصْدِفُونَ" وهو إرادة العموم، وفي هذا مزيد تشنيع عليهم، دلالة على أنهم أعرضوا عن كل ما جاءهم من ربهم في القرآن الكريم الذي صُرِّفت لهم آياته.

وفي مجيء لفظة "ج" فعلاً مضارعاً إشارة إلى هذا المعنى، فقد أفادت تجدد حدوث هذا الفعل منهم، وتكرر وقوعه[1]، فقد تجدد الإعراض منهم، والصدوف عن آيات القرآن الكريم، فما زادهم نزول القرآن الكريم، وتصريف آياته إلا إعراضاً عنها وصدوفاً.

وفي لفظة الصدوف ودلالاتها بيان لهذا الموقف، وكشف له، فإن فيها معنى الميل والصد والإعراض عن الشيء[2]، كما أن في هذه اللفظة ودلالاتها سخرية بهم واستهزاء؛ وذلك أن هذا الموقف ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ "تعجيب مصحوب بمشهد الصدوف، المعروف عند العرب، والذي يذكرهم بمشهد البعير المؤوف، فيثير في النفس السخرية والاستخفاف والعزوف".[3]

الموقف الثاني

تم الإبانة عنه، وذكره في قوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥] جاءت الإشارة إلى موقفهم من تصريف الآيات في قوله ﴿ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ ﴾ . الواو في قوله ﴿ وَلِيَقُولُوا۟ ﴾ للعطف على فعل محذوف دل عليه السياق، أي نصرف الآيات: لينتفعوا بها، أو لتقوم عليهم الحجة، وليقولوا درست[4]. ولذا فإن قوله ﴿ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ ﴾ علة لفعل محذوف، والتقدير: " وليقولوا درست نفعل ما نفعل من التصريف المذكور"[5]. يدل على هذا المعنى قول الواحدي: "دخلت الواو في

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٧/ ٢٣٦.

(٢) ينظر: البسيط: ٨/ ١٤٩.

(٣) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٩٢.

(٤) ينظر: فتح القدير: ٢/ ١٤٩.

(٥) إرشاد العقل السليم: ٣/ ١٧٠.

قوله ﴿ وَلِيَقُولُواْ ﴾ عطفاً على مضمر. التقدير: وكذلك نصرف الآيات؛ لنلزمهم الحجة. ﴿ وَلِيَقُولُواْ ﴾ فحذف المعطوف عليه؛ لوضوح معناه".[1]

وقد تعددت أقوال المفسرين في بيان معنى قولهم ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ بناء على تعدد القراءات الواردة في لفظة ﴿ دَرَسْتَ ﴾ يدل على ذلك قول ابن جرير الطبري: " واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك على قدر اختلاف القراء في قراءته"[2]. ثم يقول بعد أن ذكر القراءات المتعددة في لفظة ﴿ دَرَسْتَ ﴾ : " وأولى القراءات في ذلك عندي بالصواب: قراءة من قرأه ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ ، بتأويل: قرأت، وتعلمت؛ لأن المشركين كانوا يقولون للنبيﷺ. وقد أخبر الله عن قيلهم ذلك بقوله: ولقد نعلم أنهم يقولون ... وغير ذلك من القراءات)).[3]

إذن فمعنى قولهم ﴿ دَرَسْتَ ﴾ " أي قرأت على غيرك، وتعلمتَ منه، وحفظت بالدرس أخبار من مضى)).[4]

وثمة إشكال قد يرد على المعنى المتعلق به قول المشركين ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ ؛ لأن هذا القول لا يناسب أن يكون علة لتصريف الآيات . فهل صُرفت الآيات لهذا الأمر؟ وليقولوا هذا القول؟[5]. وقد ذكر العلماء رداً الإشكال، وطرداً لهذا الفهم الخاطئ. وذكروا أن اللام في قوله ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ ليست للتعليل، وإنما هي لام العاقبة، أو لام الصيرورة، كما يسميها أهل اللغة[6]. والمعنى: أن عاقبة أمرهم، ومآل حالهم مع تصريف هذه الآيات أن يقولوا، وهكذا صار تصريف الآيات " سبباً لمقالتهم هذه؛ وذلك لشقاوتهم التي لحقتهم، وقضت عليهم، وهذا يدل على أنه – تعالى – جعل تصريف

---

(١) تفسير البسيط: ٨/ ٣٣٨.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٩/ ٤٧٢ .

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٩/ ٤٧٢، وللوقوف على القراءات الأخرى ومعانيها للفظة " درست".
ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٩/ ٤٧٢، و: معاني القرآن وإعرابه: ٢/ ٢٧٩

(٤) محاسن التأويل: ٦/ ٢٤٤٦ .

(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ٧/ ٤٢٢ .

(٦) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٢/ ٢٨٠، و: الكشاف: ٢/ ٤٢ .

الآيات سبباً لضلالة قوم وشقاوتهم بما قضى عليهم في الأزل من الضلالة. وهذا كقوله ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٥]". [1]

ولذا فهذه الآية نظير قوله ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ [القصص: ٨]. وهم لم يلتقطوه لهذه الغاية. ولكن كانت عاقبة هذا الالتقاط أن كان لهم موسى – عليه الصلاة والسلام – عدواً وحزناً. وكذلك الأمر في هذه الآية. والمعنى – كما يذكر الطاهر بن عاشور –: " أي نصرف الآيات مثل هذا التصريف الساطع فيحسبونك اقتبسته بالدراسة والتعلم فيقولوا درست. والمعنى: إنا نصرف الآيات، ونبينها تبييناً من شأنه أن يصدر من العالم الذي درس العلم. فيقول المشركون: درست هذا وتلقيته من العلماء والكتب؛ لإعراضهم عن النظر الصحيح الموصل إلى صدور مثل هذا التبيين من رجل يعلمونه أمياً لا يكون إلا من قِبل وحي من الله إليه، وهم قد قالوا ذلك من قبل ويقولونه. ويزيدون بمقدار زيادة تصريف الآيات. فشُبه ترتب قولهم على التصريف بترتب العلة الغائية. واستُعير لهذا المعنى الحرف الموضوع للعلة، على وجه الاستعارة التبعية ". [2]

الموقف الثالث:

تم الإبانة عنه، وذكره في قوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤١]. إذن فهذا موقفهم من التصريف، وذلك حالهم معه. فما زادهم تصريف الآيات إلا نفوراً. والمعنى – كما يذكر الطبري –: " إلا ذهاباً عن الحق، وبعداً منه وهرباً. والنفور في هذا الموضع مصدر من قولهم: نفر فلان من هذا الأمر ينفر منه نَفْراً ونفُوراً ". [3]

وقد جاءت جملة ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ في أبلغ صورة في بيان موقفهم من التصريف، وفي أظهر صورة في تجليته وبيانه؛ وذلك أن جملة ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ في

---

(١) البسيط: ٨/ ٣٤٤.

(٢) التحرير والتنوير: ٧/ ٤٢٢.

(٣) جامع البيان عن تأويل اي القرآن: ١٥/ ٢٤١.

محل نصب على الحال، أي والحال: أن تصريف الآيات، وتذكيرهم بها ما يزيدهم إلا نفوراً[1]. والغرض من هذا الحال: " التعجب من حال ضلالتهم إذ كانوا يزيدون نفوراً من كلام فصّلٍ وبيّن؛ لتذكيرهم. وشأن التفصيل أن يفيد الطمأنينة للمقصود ".[2]

جاء بيان حالهم، في ذكر موقفهم من تصريف الآيات بأسلوب القصر، بطريق الاستثناء بعد النفي. ولهذا القصر، بهذا الطريق دلالاته في هذا المقام، فليس لهم من الصفات، وليس لهم من المواقف إلا النفور، والبعد عن هذا البيان الذي صُرف لهم على أبلغ وجه وأحسنه، والمعنى: " إنما زادهم نفوراً؛ لأنهم اعتقدوا أنها شُبه وحيل، فنفروا منها أشد النفور لهذا الاعتقاد الفاسد، ومنعهم ذلك من التدبر لها، وإدراك منزلتها في عظم الفائدة، وجلالة المنزلة ".[3]

فضلاً عن دلالة لفظة " نفوراً " فإن فيها إشارة إلى نفورهم عن السماع، فضلاً عن التذكر والانتفاع، عما جاء فيه، والإقبال عليه، المؤدي إلى معرفة ما هم عليه من الكفر والقبائح.[4]

كما تضمن هذا الموقف الإشارة – كذلك – إلى شدة النفور، وكثرة الأعراض، تشبيهاً لهم بنفور الدابة؛ وذلك أن النفور هو: " هروب الوحشي والدابة بجزع؛ خشية من الأذى، واستُعير هنا لإعراضهم تنزيلاً لهم منزلة الدواب والأنعام ".[5]

الموقف الرابع:

جاء الإبانة عنه، وذكره في قوله ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا** ﴾ الإسراء: ٨٩]، أي جحوداً للحق، ورداً له[6]. والمراد بالناس هنا:

---

(١) ينظر: فتح القدير: ٣/ ٢٢٩.

(٢) التحرير والتنوير: ١٥/ ١١١.

(٣) البسيط: ١٣/ ٣٤٢.

(٤) ينظر: نظم الدرر: ١١/ ٤٢٢، و: إرشاد العقل السليم: ٥/ ١٧٤.

(٥) التحرير والتنوير: ١٥/ ١١٠.

(٦) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٧٠، و: معالم التنزيل: ٣/ ١٣٦.

أهل مكة. فهم الذين جحدوا الحق وأنكروه، " وذلك أنهم أنكروا القرآن، وكونه معجزة بعد قيام الحجة عليهم. واقترحوا من الآيات ما ليس لهم ".[1]

جاء نظم الآية في أبلغ عبارة، وأجزل جملة في الدلالة على موقف الكفار من تصريف الآيات، والإبانة عنه. فقد أوحت لفظة " أبى" بالتكسب والمشقة، وشدة الحرص على هذا الأمر. والتمسك به. كما أن فيه تغليظاً عليهم وإنكاراً.[2]

كما جاء الحديث عنهم في هذا المقام على خلاف مقتضى الظاهر، بطريق الإظهار في مقام الإضمار. ولو جاء الكلام على مقتضى الظاهر لقيل: فأبوا، ولكنه أظهر فقيل: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾. وفي ذلك تأكيد وتوضيح لموقفهم من تصريف الآيات؛ لتتضح الصورة. وليُعرف عنهم هذا الأمر عن القرآن الكريم وتصريف آياته.[3]

كما أن في قوله ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ " من المبالغة ما ليس في آبوا الإيمان؛ لأن فيه دلالة على أنهم لم يرضوا بخصلة سوى الكفر من الإيمان، والتوقيف في الأمر. ونحو ذلك، وأنهم بالغوا في عدم الرضا، حتى بلغوا مرتبة الإباء ".[4]

كما أن قوله ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ " تأكيد الشيء بما يشبه ضده. أي تأكيده في صورة النقض؛ لما فيه من الإطماع بأن إباءتهم غير مطردة، ثم يأتي المستثنى مؤكداً لمعنى المستثنى منه. إذ الكفور أخص من المفعول الذي حُذف للقرينة".[5]

وقد تكرر هذا الموقف نفسه تجاه تصريف الآيات في القرآن الكريم، فجاء ذكره وبيانه في آية أخرى في قوله ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٥٠]، ولا يخفى أن في ذكر هذا الموقف، وتكراره في موضع آخر من مواضع آيات التصريف إشارة إلى عظم هذا الموقف، وزيادة في التشنيع عليهم، ووصمهم به.

---

(١) تفسير البسيط: ٤٧٤/١٣ .

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ٤٨٤/٣ .

(٣) ينظر: فتح القدير: ٢٥٧/٣ .

(٤) إرشاد العقل السليم: ١٩٤/٥ .

(٥) التحرير والتنوير: ٢٠٥/١٥ .

ونعتهم فيه، فقد تكرر موقفهم ذلك بتكرر هذه الآيات تصريفها، فما يزيدهم تصريف الآيات إلا كفرا وعناداً، فلا غرو بعد ذلك أن يكونوا به كافرين وجاحدين.

الموقف الخامس:

جاءت الإشارة إلى موقف المشركين من تصريف آيات القرآن في قوله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤]

ولا تخفى العلاقة بين هذا الموقف، وبين تصريف الآيات. وقد أشار إلى هذا العلاقة، وكشف عنها ابن كثير في تفسيره لهذه الآية، يقول: " ومع هذا البيان، وهذا الفرقان فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل إلا من هدى الله، وبصره بطريق النجاة "[1]، وقليل ما هم إلا من رحم ربك.

جاء التعبير عن هذا الموقف بأجزل قول وأبلغه في قوله ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾، ثم وصمهم بهذه الصفة؛ لعدم انتفاعهم من القرآن الكريم، ومن تصريف آياته، ولهذا استحق أن يوصف كل واحد منهم بأنه ﴿ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾؛ لأنه " لم ينته عن الجدل بعد هذا البيان الذي أضاء جميع الأكوان". [2]

كما أن في هذا الوصف إشارة إلى أن العناد جبلة فيه، متأصلة في جذور أعماقه، وليس لشيء تضمنه القرآن الكريم آثار هذا الجدل، وتلك المخاصمة، وقد أشار أبو السعود إلى هذا المعنى يقول – في قوله ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ " أي مجادلة ومنازعة فيه، مع أنه غير لائق بهم ولا عدل منهم، والذي أوجب له ذلك عدم الإيمان بالله، إنما هو الظلم والعناد، لا القصور في بيانه وحجته وبرهانه ". [3]

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/١٠١.

(٢) نظم الدرر: ١٢/٨٨ .

(٣) إرشاد العقل السليم: ٣/١٦٦.

وليس التفضيل في قوله ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ على بابه، وإنما هو " مسلوب المفاضلة، وإنما أتى بصيغته؛ لقصد المبالغة في شدة جدل الإنسان، وجنوحه إلى المماراة والنزاع حتى فيما ترك الجدال في شأنه أحسن ". [1]

وقيل: إن التفضيل فيه على بابه، وأن المعنى: " إن الإنسان أكثر جدلاً من كل ما يجادل من ملائكة وجن، وغير ذلك "[2]، وذلك؛ " لكونهم مجبولين على المجادلة والمخاصمة والعناد، بها يقطعون الطريق على أنفسهم، فتارة يجادلون مع الأنبياء، ولا يقبلونهم بالنبوة والرسالة ويقاتلونهم، وتارة يجادلون في الكتب المنزّلة، ويقولون ما أنزل الله على بشر من شيء، وتارة يجادلون في متشابهاتها، وتارة في ناسخها ومنسوخها، وتارة في قدمها وحدوثها، ونحو ذلك، ولو تفرغوا من المجادلة إلى المعادلة والمجاهدة، ومن المنازعة إلى التعلم والمطاوعة لامتلأت قلوبهم بنور المعرفة والهداية، وتوصلوا بذلك إلى عزّ الدارين، و كان الإنسان ظلوماً جهولاً ". [3]

جاء التعبير عن الإنسان في هذه الآية بـ" شيء "؛ ليحد من غروره، وليقلل من شأنه؛ عله أن يرعوي عن هذا الجدل، وينفك منه، وألمح إلى ها المعنى، وأشار إليه سيد قطب، يقول: " ويعبر السياق عن الإنسان في هذا المقام بأنه " شيء "، وأنه أكثر شيء جدلاً؛ ذلك لكي يطامن الإنسان من كبريائه، ويقلل من غروره، ويشعر أنه خلق من مخلوقات الله الكثيرة، وأنه أكثر هذه الخلائق جدلاً بعدما صرف الله في هذا القرآن من كل مثل ". [4]

* * *

---

(١) التحرير والتنوير: ١٥/٣٤٧.

(٢) المحرر الوجيز: ٣/٥٢٤.

(٣) حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي: ٣/٢٦٦.

(٤) في ظلال القرآن: ٤/٢٢٧٥.

المبحث الرابع: موقف المؤمنين من تصريف آيات القرآن الكريم:

ذكرتُ في المبحث السابق موقف المشركين من تصريف آيات القرآن الكريم. من خلال الآيات التي تحدثت عن تصريف القرآن. وقد تضمنتْ بيان ذلك الموقف أتم بيان، وكشفته ووضحته بجلاء، إذن فهذا هو موقف المشركين من تصريف آيات القرآن الكريم. وقد حكاه الله عنهم وبينه أتم بيان من خلال هذه الآيات، وقد تجلى موقفهم في قوله ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ وقوله ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ وقوله ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾، وقوله ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ في موضعين من مواضع آيات التصريف، وفي قوله ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾.

ومن خلال ما تقدم من بيان موقف المشركين من هذا التصريف يتبين أن الناس انقسموا حوله قسمين، الأول. وهم المشركون. وقد تم بيان موقفهم منه. والقسم الآخر: هم المؤمنون. وقد تضمنت آيات التصريف الإشارة إليه تصريحاً وتلميحاً. وفيما يأتي بيان لهذا الموقف:

جاءت الإشارة إلى هذين الموقفين. وإلى هذا الانقسام حول تصريف الآيات في قوله – تعالى –: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥]. سبقت الإشارة إلى موقف المشركين من التصريف في قوله ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾. وأما في هذا المقام فسأتناول موقف المؤمنين في بيان موقفهم من تصريف الآيات. وذلك في قوله ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾. فقد تضمن قوله ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ الإشارة إلى موقف المؤمنين. يؤيد هذا الأمر ويؤكده وروده بعد موقف المشركين من تصريف الآيات في قوله ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾. وقد أشار إلى هذا المعنى ابن كثير في تفسيره لهذه الآية. يقول في معناها: " أي لنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه. والباطل فيجتنبونه. فلله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك. وبيان الحق لهؤلاء "[1]. ومن خلال هذا الآية يتبين بجلاء انقسام الناس. وتباين موقفهم من تصريف آيات القرآن الكريم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/١٨٢.

ولـذا فـإن تـصريف الآيـات " يـسـعد بهـا قـوم بفهمهـا، والعمـل فيهـا، ويـشقى آخـرون بالإعراض عنها، فمن يقول للنبي درسـت فهـو شـقي، ومـن يتبـين الحـق فيهـا، ويعمـل بهـا فهو سعيد".[1]

ولـذا فـإن قولـه ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ متعلـق بـالتبيين؛ لكـونهم المنتفعـين لهـذا التـصريف، المـدركين لغاياتـه[2]، يـدل علـى هـذا المعنـى ويؤكـده قـول ابـن عبـاس – فـي تفسيره لهذه الآية –: " يريد أولياءه الذين هداهم إلى سبيل الرشاد".[3]

ولذا فإن في قوله ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ تعريضاً بالمشركين بأنهم لا علم لهـم، ولو كانوا يعلمون ما أعرضوا عن القرآن، وقد صرفت لهم آياته، ولذا فهو تعريض بهم، وأنهم أجهل الجاهلين.[4]

وقـد أشـار سـيد قطـب إلـى هـذا الانقـسام، وتبـاين موقـف المـؤمنين مـن موقـف الكافرين في قضية تصريف الآيات، يقـول: " فينتهـي هـذا التـصريف إلى نتيجتـين متقـابلتين في البيئة، فأما الذين لا يريدون الهدى، ولا يرغبـون فـي العلـم، ولا يجاهـدن ليبلغـوا الحقيقـة فهـؤلاء سـيحاولون أن يجـدوا تعليـلاً لهـذا المـستوى الـذي يخـاطبهم بـه محمـد ﷺ – وهـو منهم –، وسيختلقون ما يعلمـون أنـه لـم يقـع، فمـا كـان شـيء مـن حيـاة محمـد ﷺ خافيـاً عليهم قبل الرسـالة ولا بعـدها، ولكـنهم يقولـون درسـت هـذا يـا محمـد مـع أهـل الكتـاب، وتعلمته منهم، وما كان أحد من أهل الكتاب يعلم شـيئاً عـن هـذا المـستوى... وأمـا الـذين يعلمـون حقـاً فـإن تـصريف الآيـات علـى هـذا النحـو يـؤدي إلـى بيـان الحـق لهـم فيعرفونـه ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾، ثـم تقـع المفاصلة بـين قـوم مبـصرين يعلمـون، وقـوم عمـي لا يعلمون".[5]

---

(١) البسيط: ٨/٢٤٣.

(٢) إرشاد العقل السليم: ٣/١٧١.

(٣) معالم التنزيل: ٢/١٢١.

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٣/١٧١، و: التحرير والتنوير: ٧/٤٢٣.

(٥) في ظلال القرآن: ٢/١١٦٨.

وثمة آية أخرى من آيات التصريف أشارت إلى موقف المؤمنين من هذا التصريف، وذلك في قوله ﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٨]، فالمؤمنون هم الذين شكروا ربهم على نعمة القرآن، وعلى تصريف آياته، وهم الذين آمنوا به، وأقبلوا عليه، وانتفعوا به، ولذا فإن في ذكر الشكر هنا إشارة إلى عظم هذه النعمة التي لا توازيها نعمة، وأن حقها الإيمان بها، و شكر الله عليها، وقد أشار أبو حيان الأندلسي إلى هذا المعنى بقوله: " ولما كان ذلك أكبر نعمة على الخلق قال ﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ أي هذه النعمة التي لا تكاد توازيها نعمة".[1]

وقد جاء مفعول " يشكرون" محذوفاً؛ دلالة على كثرة هذه النعم التي يشكرون ربهم عليها، كما جاء هذه الحذف – كذلك – ليشمل النعم كلها، ولذا فهم يشكرون ربهم " على إنعامه عليهم بالهداية، وتبصيره إياهم سبيل أهل الضلالة باتباعهم ما أمرهم باتباعه، وتجنبهم ما أمرهم بتجنبه من سبل الضلالة ".[2]

كما أن في ذكر الشكر هنا إشارة إلى أنهم وحدهم هم الذين يقدرون قدر هذه النعمة، كما أنهم وحدهم المنتفعون بها، وأنهم وحدهم " الذين ينتفعون ما فصّل الله في كتابه من الأحكام، والمطالب الإلهية؛ لأنهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربهم، فيتلقونها مفتقرين اليها، فرحين بها، فيتدبرونها ويتأملونها، فيبين لهم معانيها بحسب استعدادهم ".[3]

وهذه الآي نظير قوله ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[4]، فقد خصّ المتقون بالهدى؛ لأنهم وحدهم الذين انتفعوا به، وأقبلوا عليه، واهتدوا بهداياته وإشراقاته، فهم الذين " أتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية، وهو التقوى التي حقيقتها: اتخاذ ما يقي

---

(١) البحر المحيط: ٤/٣٢٣.

(٢) جامع البيان عن تأويل اي القرآن: ١٠/٢٥٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن: ٢/١٢١.

(٤) البقرة: ٢.

سخط الله وعذابه، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فاهتدوا به، وانتفعوا غاية الانتفاع".[1]

وأما غير الشاكرين فلا ينتفعون بها، ولا يقبلون عليها، فضلاً أن يشكروا ربهم عليها، ولا غرو في ذلك؛ فهم أصحاب " القلوب الخبيثة التي لا خير فيها فإذا جاءها الوحي لم يجد فيه محلاً قابلاً، بل يجدها غافلة معرضة أو معارضة، فيكون كالمطر الذي يمر على السباخ والرماد والصخور، فلا يؤثر فيها شيئاً".[2]

وفي مجيء لفظة " يشكرون" فعلاً مضارعاً إشارة إلى تجدد حدوث هذا الشكر، وتكرر وقوعه، وهذا هو المتوافق مع تجدد هذا الشكر وكثرته، كما أنه متوافق مع تجدد نزول القرآن الكريم، وتصريف آياته، فما زادهم هذا التصريف إلا إيماناً وشكراً. ولهذا حُذف متعلق الفعل " يشكرون" إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه، وفي هذا مزيد مدح لهم، وثناء عليهم، وكانوا أهلا أن تُصرف لهم الآيات، وأن يُشاد بهم، وأن ينتفعوا بها، ويقبلوا عليها.

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٣٢/١

(٢) المصدر السابق: ١٢١/٢.

المبحث الخامس: علاقة تصريف الآيات بإعجاز القرآن الكريم:

لا يشك أحد في إعجاز القرآن الكريم، وأنه بلغ الغاية في البيان، ومن هنا تحدى الله به العرب أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وقد حكم الله عليهم بالعجز والغلبة في قوله ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[1]، ولست هنا في مقام الحديث عن إعجاز القرآن، فثمة كتب تناولت هذا الموضوع بالدراسة والمناقشة[2]، ولكني أشير في هذا المبحث إلى أن تصريف آيات القرآن وجه من وجوه إعجازه، وسأبين هذا الأمر في هذا المبحث، وسأكشف عن علاقة تصريف آيات بإعجاز القرآن الكريم، فأقول وبالله التوفيق: ثمة عدة أمور تؤكد أن تصريف آيات القرآن الكريم بالطريقة التي نزل بها القرآن، وذكر فيها موضوعاته ومعانيه أن ذلك معجز، وأنه وجه من وجوه إعجاز القرآن التي لا تحدُّ ولا تُعد، فمن ذلك ما يأتي:

أولاً: الإشارة المتقدمة من أبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٢٩٦) في كتابه " النكت في إعجاز القرآن"، فقد تحدث في مقدمة كتابه عن وجوه إعجاز القرآن الكريم، وذكر أنها تظهر في سبع جهات، وذكر منها البلاغة[3]، ثم بعد ذلك فصل القول في الحديث عن البلاغة، وذكر أنها " على عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان"[4]، اذن فالبلاغة عنده في عشرة أقسام، والتصريف منها في المنزلة السابعة، متقدماً على التضمين، والمبالغة، وحسن البيان.

---

(١) البقرة: ٢٤.

(٢) ومن هذه الكتب على سبيل المثال: النكت في إعجاز القرآن للرماني، و: بيان اعجاز القران، للخطابي، والرسالة الشافية لعبد القاهر الجرجاني، وكتاب: إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني، واعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، وكتاب: الإعجاز البلاغي، للأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى، وغيرها.

(٣) ينظر: النكت في إعجاز القرآن: ٧٥.

(٤) المصدر السابق: ٧٦.

وحسبك في هذا إشارة إلى أهمية هذا التصريف، وأنه قسم من أقسام البلاغة التي صار القرآن الكريم بها معجزاً. ثم بيّن معنى التصريف، وذكر أنه " بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعاني التي تظهره، وتدل عليه" [1]. ثم ختم الحديث عن التصريف مبيناً أن الله – سبحانه وتعالى – هو " الذي يقدر أن يأتي بما شاء من مثل القرآن. فظهور الحجاج على الكفار بأن أتى في المعنى الواحد بالدلالات المختلفة فيما هو من البلاغة في أعلى طبقة" .[2]

ولا يخفى علاقة هذا التصريف بالإعجاز، كما لا يخفى – كذلك – أثر الرماني وجهده في هذا الموضوع، فقد سعى إلى إبراز التصريف، وبيان أثره، وشديد علاقته بالإعجاز، فقد " دلل الرماني بهذا اللون أيضاً على بلوغ القرآن غاية البلاغة" .[3]

ثانياً: وثمة عالم آخر أشار إلى هذا الأمر، وذكر أن التصريف وجه من وجوه بلاغة القرآن الكريم، التي صار بها معجزاً. ذلكم هو أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣)، وقد ذكر هذا الأمر في كتابه " إعجاز القرآن". وفي ذكر هذا الأمر في هذا الكتاب إشارة واضحة أن تصريف الآيات ضرب من إعجاز القرآن الكريم، وهي من الإشارات المتقدمة – كذلك – في هذا الباب، وحسبك بهذا دليلاً على مكانة هذا التصريف، وعلو قدره في البيان، وفي بلاغة القرآن، مما قصر البشر عن بلوغه، والإتيان بمثله، وقد ذكر هذا الأمر تحت مبحث: " في وصف وجوه من البلاغة" .[4]

ثالثاً: ومن الأمور الدالة – كذلك – على أن تصريف آيات القرآن وجه من وجوه إعجازه، وأنه بالغ في ذلك حد الكمال، مما عجز البشر عن بلوغه والإتيان بمثله: آية من

---

(١) المصدر السابق: ١٠١.

(٢) النكت في إعجاز القرآن: ١٠٢.

(٣) دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن: ١٩٨.

(٤) اعجاز القرآن الكريم: ٢٦٢، لأبي بكر الباقلاني، وإن كان جهد الباقلاني في هذا الكتاب قليلاً، بل هو نقل عما جاء في كتاب الرماني، ولكن حسبه أنه أشار إليه وذكره في كتابه الذي يتحدث فيه عن اعجاز القرآن، كما يدل على ذلك عنوانه.

آيات التصريف. فقد تضمنت الإشارة إلى هذا الأمر تلميحاً لا تصريحاً. وتلك الآية هي قوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥]. وأقصد في ذلك قوله ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾. وقد سبقت الإشارة إلى معناها. وبيان المراد بها[١]. وفي هذا القول من المشركين اشارة من طرف خفي إلى بلاغة هذا التصريف. وأنه بلغ حداً من البيان. يتعذر معه الإتيان بمثله. وفي هذا اعتراف منهم – شعروا أو لم يشعروا – بهذه الحقيقة. فقد أدركوا أنهم لا قِبل لهم بهذا البيان. وأنه فوق طاقتهم البيانية. ولكن كفرهم حال دون الإقرار بأن هذا القران منزل من عند الله. فما وجدوا عذراً ولا حجة إلا أن يقولوا لرسول الله ﷺ في رد هذا القرآن وتكذيبه " درست ".

وقد أشار بعض المفسرين إلى هذا المعنى. يقول البقاعي في تفسير هذه الآية ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥]: " وكذلك " أي ومثل هذا التصريف العظيم " نصرف " أي ننقل جميع الآيات من حال إلى حال في المعاني المتنوعة. سالكين من وجوه البراهين ما يفوت القوي، ويعجز القدْر. " وليقولوا " اعتداء لا عن ظهور عجزهم " درست " أي غيرك من أهل الكتاب. أو من غيرهم في هذا حتى انتظم لك هذا الانتظام، وتم لك هذا التمام. فيأتون ببهتان بيّن عواره. ظاهر أسراره، مهتوك أستاره. فيكونوا كأنهم قالوا: إنك أتيت به عن علم. ونحن جاهلون لا نعلم شيئاً ".[٢]

ومن الإشارات إلى هذا الأمر – كذلك – ما ذكره الطاهر بن عاشور في تفسير قوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥] فذكر أن معنى الآية: " أي نصرف الآيات مثل هذا التصريف الساطع فيحسبونك اقتبسته بالدراسة والتعلم. فيقولوا: درست. والمعنى: أنا نصرف الآيات. ونبينها تبييناً من شأنه أن يصدر من العالم الذي درس العلم. فيقول المشركون: درست هذا. وتلقيته من العلماء

---

(١) ينظر: صفحة: ٣٩. من هذا البحث.

(٢) نظم الدرر: ٧ / ٢٢٤ .

والكتب؛ لإعراضهم عن النظر الصحيح الموصل إلى صدور مثل هذا التبيين من رجل يعلمونه أمياً لا يكون إلا من قِبل وحي الله إليه".[1]

وقد ذكر هذا المعنى، وألمح إليه سيد قطب كذلك. فذكر أن في هذا القول ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم.. وأنه بهذا التصريف بالغ حد البيان المعجز الذي يتعذر على البشر الإيتان بمثله، يقول: "إن الله يصرف آياته على هذا المستوى الذي لا عهد للعرب به؛ لأنه ليس نابعاً من بيئتهم. كما أنه ليس نابعاً من البيئة البشرية على العموم".[2]

ومن الإشارات المهمة في بيان علاقة التصريف بالإعجاز ماذكره الدكتور عبدالعظيم المطعني. فقد تحدث عن هذا الأسلوب، وأشار إليه بطريقة السؤال والجواب. فأشار إلى تصريف الآيات بقوله: "لماذا اختلفت أساليب الحكاية والمحكي عنه واحد؟ والجواب:

أولاً: أن الاختلاف راجع في الأغلب إلى اختلاف الأحوال. ففي كل عبارة جاءت على منهج معين: رعاية ومناسبة لمقام الحديث، ويتصل بهذا المظهر من مظاهر التحدي، حيث يكون المعنى الأصل واحداً، ويحدث بتكراره زيادات ومعان ثانية لم يزدد بها إلا حلاوة وطلاوة. على خلاف المعهود في بلاغة الناس. فإن التكرار فيه يعرضه للقوة والضعف والتهافت، وإن وُفق في موضع خَذل وسقط في موضع آخر

ثانياً: الفروق اللفظية التي يجيء عليها التكرار، عندما نبحث عن أسرارها يتجلى لنا بوضوح لماذا آثر القرآن لفظاً على لفظ، وأسلوباً على أسلوب مما يؤدي في النهاية إلى الإقرار اليقيني بإعجاز القرآن".[3]

رابعاً: وله علاقة وثيقة بما قبله: وهو مجيء آية من آيات التصريف القرآن عقب آية التحدي بالأمر بالإتيان بمثل القرآن، وذلك في قوله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن

---

(١) التحرير والتنوير: ٧/ ٤٢٢

(٢) سيد قطب: ٢/ ١١٦٨.

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ١/ ٣٦٥ .

﴿ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾. وحسبك في هذا دلالة واضحة، وإشارة بينة إلى علاقة هذا التصريف بإعجاز القرآن الكريم، فهو وجه من وجوه الإعجاز، وبه صار معجزاً، وبسببه تعذر على البشر جميعاً الإتيان بمثله، ومن هنا بلغ هذا التصريف هذا الإعجاز، وكان آية في البلاغة والبيان.

وقد أشار الطاهر بن عاشور في تفسيره إلى ارتباط آية التصريف بآية الإعجاز، يقول: " لما تحدى الله بلغاء المشركين بالإعجاز، تطاول عليهم بذكر فضائل القرآن على ما سواه من الكلام، مدمجاً في ذلك النعي عليهم إذ حرموا أنفسهم الانتفاع بما في القران من كل مثل، وذكرت هنا ناحية من نواحي إعجازه، وهو ما اشتمل عليه من أنواع الأمثال، ويجوز أن يراد بالمثل الحال أي من كل حال أحسن المعاني يجدر أن تتمثل به، ويشبه ما يراد بيانه من نوعه، فجملة ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ ﴾ مشاركة لها في حكمها المتقدم بيانه، زيادة في الامتنان والتعجيز ".[1]

ولذا فإن تصريف الآيات، ومجيئها بهذه الصورة البديعة المعجزة سبب إلى الإيمان به، والإقبال عليه، وأما الكافرون فما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً، ولذا جاءت الإشارة إلى موقفهم من إعجاز القرآن الكريم، ومن تصريف آياته في هذا الموضع بقوله ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾.

خامساً: ورود مقولات عن المفسرين تؤكد على أن التصريف من وجوه إعجاز القرآن الكريم:

وردت كثير من المقولات لبعض المفسرين ذكروها في ثنايا تفسيرهم لآيات التصريف، تضمنت الإشارة الصريحة إلى أن هذا التصريف وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وأنه بالغ حد البيان المعجز، ومن الإشارات المتقدمة في ذلك قول البقاعي في

---

(١) التحرير والتنوير: ١٥/٢٠٤.

تفسير قوله – تعالى – ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٦] يقول: " أي نوجهها لهم ولغيرهم في كل وجه من وجوه البيان بالغ في الإحسان ما يأخذ بالعقول، ويدهش الألباب، ويكون كافياً في الإيصال إلى المطلوب " .[1]

ويشير في موضع آخر إلى الإعجاز المتضمن في تصريف آيات القرآن الكريم في موضع آخر من مواضع آيات التصريف، وذلك في تفسير قوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥]: يقول " "وكذلك" أي ومثل هذا التصريف العظيم "نصرف" أي ننقل جميع الآيات من حال إلى حال في المعاني المتنوعة، سالكين من وجوه البراهين ما يفوت القوي، ويعجز القدر"[2]. وفي هذا النص إشارة واضحة إلى الإعجاز، بل تصريح به في قوله "ما يفوت القوي، ويعجز القدر" دلالة على أن التصريف معجز تحداهم الله به، وتعذر عليهم الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

وقد أشار السعدي في تفسير هذه الآية إلى الإعجاز الذي تضمنه تصريف هذه الآيات، يقول: " والمراد أن الله – تعالى – ينوع الآيات الدالة على المعاني الرائعة، الكاشفة عن الحقائق الغامضة، لا تصريفاً أدنى منه، بل تصريفاً بلغ في الروعة مبلغاً ارتقى عن إدراك المخلوقين"[3]. إذن فقد بلغ هذا التصريف مبلغاً عظيماً في البلاغة والبيان، ارتقى عن إدراك المخلوقين عن بلوغه والإتيان بمثله، وأنى لهم ذلك وهو ضرب من إعجاز القرآن الكريم، لم يأتوا ولن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

ويقرر هذا الحقيقة ويؤكدها البقاعي، مبيناً أن هذا التصريف جاء " على هذا المنهاج الغريب، والمنوال العجيب المذكر بالنعم في أسلوب دال على التفرد، وتمام القدرة"[4]. ويشير إلى هذه القضية مرة أخرى، وفي آية أخرى من آيات التصريف يقول – في قوله ﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٨] يقول: " أي ومثل هذا التصريف.

---

(١) نظم الدرر: ٧/ ١١٨.

(٢) المصدر السابق: ٧/ ٢٢٤ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن: ٢/ ٥٥ .

(٤) نظم الدرر: ٧/ ٢٢٤.

وهو الترديد مع اختلاف الأنحاء لا اختلاف الدلالات، وإبرازها في قوالب الألفاظ الفائقة، والمعاني الرائقة، في النظوم المعجزة على وجوه لا تكاد تدخل تحت الحصر".[1]

وقد تضمن كلامه إشارات مهمة متعلقة بإعجاز القرآن الكريم، وذلك في قوله "وإبرازها في قوالب الألفاظ الفائقة، والمعاني الرائقة، في النظوم المعجزة"، وذلك أن هذه الأمور الثلاثة هي أركان البلاغة وأساسها، يدل على ذلك قول أبي سليمان الخطابي – وهو يناقش قضايا إعجاز القرآن الكريم، ويذكر وجوه إعجازه–، يقول: "وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملتَ القرآن وجدتَ هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً، وأشد تلاؤماً وتشاكلا من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها، وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني"[2]، ثم ختم هذه الحقيقة مبيناً "أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله، أو مناقضته في شكله".[3]

ومن الإشارات المهمة في أقوال المفسرين في الدلالة على أن تصريف آيات القرآن بلغ حد الإعجاز: قول أبي السعود يقول في تفسير قوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩]: "يقول "ولقد صرفنا" أي: كررنا وأوردنا على وجوه كثيرة من النظم "من كل مثل" أي من كل نوع من أنواع

---

(١) نظم الدرر: ٧ / ٢٢٤.

(٢) بيان اعجاز القرآن: ٢٧.

(٣) المصدر السابق: ٢٨.

المعاني البديعة الداعية إلى الإيمان التي هي في الغرابة والحسن واستجلاب النفس كالمثل؛ ليتلقوه بالقبول فلم يفعلوا"[1]

وقد تضمنت هذه المقولة الإشارة إلى نظم القرآن، الذي صار به معجزاً. ومعلوم أن إعجاز القرآن في نظمه. يدل على أهمية هذا النظم، وعلو قدره قول عبدالقاهر الجرجاني: "وقد علمتَ إطباق العلماء على تعظيم شأن النظم، وتفخيم قدره، والتنويه بذكره، وإجماعهم أن لا فضل مع عدمه، ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم له، ولو بلغ في غرابة معناه مابلغ، وبتهم الحكم بأنه الذي لا تمام دونه، ولا قوام إلا به، وأنه القطب الذي عليه المدار، والعمود الذي به الاستقلال، وما كان بهذا المحل من الشرف، وفي هذه المنزلة من الفضل، وموضوعاً هذا الموضع من المزية، وبالغاً هذا المبلغ من الفضيلة كان حرىً بأن تُوقظ له الهمم، وتُوكَّل به النفوس، وتُحرَّك له الأفكار، وتُستخدم له الخواطر".[2]

وقد تضمن كلام أبي السعود السابق الإشارة إلى المعاني البديعة التي جاء بها القرآن الكريم من خلال تصريف آياته، وأنها آية في الحسن، وأن حقها الإيمان بها، والإقبال عليها؛ لِما اشتملت عليه من البلاغة والبيان بلغتْ به حد الإعجاز.

ومن المقولات — أخيراً — التي تدل على أن في هذا التصريف إعجازاً، قول الطاهر بن عاشور في تفسير قوله ﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٨] يقول: "كذلك نصرف الآيات أي تفنن الاستدلال بالدلائل على عظيم القدرة المقتضية الواحدانية، فذلك تصريف أي تنويع وتفنن للآيات في الدلائل".[3]

وقد تضمن كلامه الإشارة إلى أن هذا التصريف جاء بألفاظ بديعة، ومعانٍ طريفة، وتصرف بالقول، وتفنن صادر من حكيم عليم، وقد دل هذا التصريف على عظيم قدرته التي تحدى بها البشر جميعاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فعجزوا، وكان الأولى أن يقودهم هذا التصريف إلى النظر والإيمان، والاستدلال به أنهم لا طاقة لهم بمثله فيؤمنوا لا أن يكفروا ويعارضوا.

---

(١) إرشاد العقل السليم: ٥/ ٢٢٩.

(٢) دلائل الإعجاز: ٨٠.

(٣) التحرير والتنوير: ٨/ ١١١٦.

المبحث السادس: بلاغة تصريف آيات القرآن الكريم في كتب البلاغيين:

هذا التصريف الذي عرفنا تعريفه، والمراد به، كما عرفنا آياته في القرآن الكريم، وحِكمه التي جاء لتحقيقها، وموقف الناس من هذا التصريف: المؤمنين والكافرين على حدٍّ سواء، وقد اتضحت – كذلك – علاقة هذا التصريف بإعجاز القرآن الكريم، وأنه وجه من وجوه إعجازه، بعد هذا كله ما نصيب هذا التصريف في كتب البلاغيين ودراساتهم؟ وما مدى حديثهم عنهم؟ وإشارتهم إليه؟ هذا ما سأكشفه في هذا المبحث، وأتحدث عنه وأبينه، فأقول: من العجيب والمؤسف في الوقت نفسه أن هذا التصريف وقد عرفنا أهميته وبلاغته لم ينل حظه، ولم يأخذ حقه في الدراسات البلاغية، ولم ينل العناية الكافية التي تليق به بالدراسة والإشارة في كتب المتقدمين، مع أن للرماني جهوداً وإشارات متقدمة سابقة في هذا الموضوع، كان الأولى على من جاء بعده أن يكمل المسيرة، وأن يضيف عليه اللبنات تلو اللبنات، وأن يتناوله تنظيراً وتطبيقاً، ولذا فمن الحق والإنصاف أن أشير في هذا المقام إلى جهد الرماني في هذا الموضوع، يُعدُّ الرماني (ت ٢٩٦) أول من تحدث عن التصريف، "ولم نرَ أحداً قبل الرماني تحدث عن هذا اللون"[١]، فذكر أن البلاغة على عشرة أقسام، يقول: "والبلاغة على عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان، ونحن نفسرها باباً باباً إن شاء الله – تعالى –"[٢]، وصدق في ذلك فقد فسر هذه الأقسام وتناولها بالبيان والتفصيل، فبين المراد بالتصريف، وذكر أنه "تصريف المعنى في المعاني المختلفة، كتصريفه في الدلالات المختلفة، وهو عقدها على جهة التعاقب، فتصريف المعنى في المعاني كتصريف الأصل في الاشتقاق في المعاني المختلفة".[٣]

---

(١) دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن: ١٩٩.

(٢) النكت في إعجاز القرآن: ٧٦.

(٣) المصدر السابق: ١٠١.

وهي إشارة متقدمة منه، وصائبة في بيان " أن التصريف في الوجوه البلاغية لا يقف عند ذكر ميزانه الصرفي، كما يحدث عند النحويين في تصاريفهم، بل يتجاوز ذلك إلى ربط الصيغ بالمعاني ".[1]

كما أشار إلى أهمية هذا التصريف وبلاغته، مبيناً أنه " بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعاني التي تظهره، وتدل عليه "[2]،مبيناً مجيء هذا التصريف في القرآن كثيراً، مشيراً إلى أن " تصريف المعنى في الدلالات المختلفة جاء في القرآن في غير قصة "[3]، ثم ذكر بعد ذلك حِكم هذا التصريف، فذكر أن " التصرف في البلاغة من غير نقصان في أعلى مرتبة، ومنها تمكين العبرة والموعظة "[4]، ثم ختم الحديث عن التصريف ببيان علاقته بإعجاز القرآن الكريم، فذكر أن الله – سبحانه وتعالى – وحده " الذي يقدر على أن يأتي بما شاء من مثل القرآن، فظهور الحجاج على الكفار بأن أتى في المعنى الواحد بالدلالات المختلفة فيما هو من البلاغة في أعلى طبقة ".[5]

أقول كان الأولى على من جاء بعد الرماني أن يكمل المسيرة، وأن يبدأ من حيث انتهى إليه الرماني، شأنه في ذلك شأن كثير من الأساليب البلاغية التي تعاقب عليها العلماء بالدراسة والبيان، والإضافة والتمحيص والتعليق، ولكن هذا لم يحدث، " وقليل ممن جاءوا بعده تحدثوا عنه بشيء من الإيجاز "[6]. وينطبق هذا على أبي بكر محمد الباقلاني، فقد ذكر التصريف، وأشار إليه إشارة مختصرة، تحت مبحث " في وصف وجوه من البلاغة "[7]، ولكنه اكتفى بنقل ما ذكره الرماني، دون الإشارة حتى إلى اسمه، مكتفياً بالقول: " ذكر بعض أهل الأدب والبلاغة "[8]، ونقل بعض ما ذكره الرماني مختصراً.[9]

---

(1) في إعجاز القرآن الكريم: ٨١ .
(2) النكت في إعجاز القرآن: ١٠١ .
(3) النكت في إعجاز القرآن: ١٠١.
(4) المصدر السابق: ١٠٢.
(5) المصدر السابق: ١٠٢.
(6) دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن: ١٩٩.
(7) ينظر: إعجاز القرآن: ٢٦٢.
(8) المصدر السابق: ٢٧٢.
(9) المصدر السابق: ٢٧٢.

هذا فقط ما وقفت عليه مما ذكره المتقدمون عن التصريف. وقد أشار إلى هذا الحقيقة أحد الباحثين في إعجاز القرآن الكريم. في معرض حديثه عن جهود الرماني في إعجاز القرآن الكريم. فقال – بعد أن بين جهود الرماني في هذا المجال –: " ولم نرَ أحداً قبل الرماني تحدث عن هذا اللون. وقليل ممن جاءوا بعده تحدثوا عنه بشيء من الإيجاز الشديد كالباقلاني. الذي أوجز ما قاله الرماني ".[1]

ولم أجد – في حدود علمي واطلاعي – غير هذين العلمين اللذين آشارا إلى بلاغة التصريف في القرآن الكريم وإعجازه، ومن خلال قراءتي في كتب البلاغة لم أجد من أشار إلى هذا الأمر. سوى آبي الإصبع المصري (٦٥٤هـ) فقد ذكر باباً بعنوان " باب التصريف". ولقلة الحديث عن هذا الموضوع فقد ذكر الدكتور أحمد مطلوب أن هذا التصريف من مبتدعات أبي الإصبع المصري [2]. ولست مع الدكتور أحمد مطلوب في ذلك جملة وتفصيلاً؛ فقد سبق الحديث عن جهد الرماني في هذا الباب. واستفاضته في هذا الموضوع، وإحاطته به من جميع جوانبه، وبأكثر موضوعاته. وإن كان ثمة من عذر للدكتور أحمد مطلوب فهو بسبب قلة الدراسات البلاغية لهذا الأسلوب. وندرة ورود هذا المصطلح في الدراسات البلاغية.

كما ذكر محقق كتاب " تحرير التحبير" أن هذا الموضوع – يعني التصريف – من الأنواع التي سلمت للمؤلف، يعني ابن أبي الإصبع. وما أدري ماذا يقصد بذلك. فإن كان مراده أنه أول من تحدث عن هذا الموضوع. فليس الأمر كما ذكر. وقد سبق بيان هذه القضية، وأحقية الرماني بقصب السبق في هذا الموضوع.

وقد عرّف ابن أبي الإصبع التصريف بقوله: " وهو أن يأتي الشاعر إلى معنى فيبرزه في عدة صور. تارة بلفظ الاستعارة، وطوراً بلفظ الإيجاز، وآونة بلفظ الإرداف، وحيناً بلفظ الحقيقة"[3]. ثم استشهد للتصريف بحديث امرئ القيس عن الليل، مشيداً ببلاغته في

---

(١) دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن: ١٩٩.

(٢) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٣٦٠ .

(٣) تحرير التحبير: ٥٨٢ .

تصرفه. وتصريفه القول في الحديث عن الليل. يقول: " وهذا كقول امرئ القيس يصف الليل [١]:

وليل كموج البحر أرخى سدوله   عليّ بأنواع الهموم ليبتلـــــي

فقلتُ له لما تمطى بجـــــــوزه   وأردف أعجازاً وناء بكلكل

فإنه أبرز هذا المعنى في لفظ الاستعارة. ثم تصرف فيه فأتى به بلفظ الإيجاز. فقال:

فيالك من ليل كأن نجومه   بكل مغار الفتل شدت بيذبل

فإن التقدير: فيالك من ليل طويل، فحذف الصفة. لدلالة التشبيه عليها. ثم تصرف فيه فأخرجه بلفظ الإرداف. فقال:

كأن الثريا علّقت في مصامها   بأمراس كتان إلى صم جندل

ثم تصرف فيه فعبر عنه بلفظ الحقيقة. فقال:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلِ   بصبح وما الإصباح فيك بأمثل " [٢]

ولم يقف جهد ابن أبي الإصبع عند هذه الإشارة. فقد ذكر هذا الموضوع في كتابه الآخر " بديع القرآن ". فقد ذكره تحت عنوان " باب الاقتدار ". وعرّفه بقوله " وهو أن يبرز المتكلم المعنى الواحد في عدة صور؛ اقتداراً منه على نظم الكلام وتركيبه، وعلى صياغة قوالب المعاني والأغراض. فتارة يأتي به في لفظ الاستعارة، وطوراً يبرزه في صورة الإرداف، وآونة يخرجه مخرج الإيجاز، وحيناً يأتي به في ألفاظ الحقيقة" [٣]. ثم استشهد لذلك – أيضاً – بحديث امرئ القيس عن الليل. وتصريفه القول في الإبانة عنه، بطرق مختلفة . [٤]

وعند النظر في التعريفين اللذين ذكرهما ابن أبي الإصبع نجد أن هذين التعريفين ينطبقان تماماً على معنى التصريف الذي تم الحديث عنه في القرآن الكريم. فقد ذكر في

---

(١) ينظر: ديوانه: ١٨.

(٢) تحرير التحبير: ٥٨٢ .

(٣) بديع القرآن: ٢٨٩ .

(٤) المصدر السابق: ٢٨٩ .

التعريف الأول أن الشاعر يتصرف في المعنى، ويتفنن فيه، فيعرضه في عدة صور بين الحقيقة والمجاز بأنواعه.

وفي الإشارة إلى هذا الموضوع تحت عنوان " الاقتدار" في كتابه الآخر إشارة مهمة في تصريف المعاني، فلا ريب أن من تمكّن من المعاني، وصرفها كما يشاء، ونوّع في الحديث عنها أن ذلك دلالة على اقتداره على المعاني، وتملكه إياها، فقد اقتدر عليها، وتصرّف فيها، وصرّفها كما يشاء، ولذا فإن إبراز المعنى الواحد في صور متعددة لاشك أن ذلك اقتدار منه، وتحكم في المعاني، فقد لانت له وانقادت، فقاد أزمتها، وامتطى صهوتها، وقد أشار عن هذه القدرة والملكة والتمكن من هذه المعاني من خلال العنوان الذي جعله عنواناً لهذا الموضوع، وهو " الاقتدار"، بل قد صرّح بهذا في قوله: " ولا شبهة في أن هذا إنما يأتي من قوة الشاعر، وقدرته على التلاعب بالكلام ".[1]

وقد أشار ابن أبي الإصبع إشارة مهمة إلى بلاغة القرآن الكريم وإعجازه في هذا المجال، يقول: " وعلى هذا أتت جميع قصص القرآن العزيز، فإنك ترى القصة الواحدة التي لا تختلف معانيها كيف تأتي في صور مختلفة، وقوالب من الألفاظ متعددة، حتى لا تكاد تشتبه في موضعين منه، ولا بد أن تجد الفرق بين صورها ظاهرا "[2]، وأشار إلى هذه الحقيقة -- كذلك – في كتابه الآخر، يقول: " ولذلك أتت قصص القرآن الكريم في صور شتى من البلاغة، مابين الإيجاز والإطناب، واختلاف معاني الألفاظ، وشهرة ذلك تغني عن شرحه ".[3]

وأقول: ليتك شرحتَ ذلك، واستشهدت له من القرآن الكريم، وليتك زدتَ في حديثك عن هذا الموضوع في القرآن الكريم تنظيراً وتطبيقاً .

---

(١) المصدر السابق: ٢٩٠ .

(٢) المصدر السابق: ٢٩٠ .

(٣) تحرير التحبير: ٥٨٣ .

يكاد يكون هذا قصارى ما نجده في كتب البلاغة القديمة في الحديث عن تصريف الآيات في القرآن الكريم. وقد سارت الدراسات الحديثة على خطا الدراسات البلاغية فلا تكاد تجد لهذا المصطلح حضورا في كتبهم، ولا في دراساتهم تنظيرا له ولا تطبيقاً.

وهناك من ذكر هذا الأمر، ولفت الأنظار إليه، بل عده خاصية من خصائص أسلوب القرآن الكريم التي صار بها معجزاً، ذلكم هو الأستاذ الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني في كتابه " مناهل العرفان في علوم القرآن" فقد تحدث فيه عن أسلوب القرآن الكريم، وذكر " أن أسلوب القرآن الكريم هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه، ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به، فإن لكل كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص به، وأساليب المتكلمين وطرائقهم في عرض كلامهم من شعر أو نثر تتعدد بتعدد أشخاصهم، بل تتعدد في الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التي يتناولها، والفنون التي يعالجها" .[1]

ثم ذكر أن " الخصائص التي امتاز بها أسلوب القرآن، والمزايا التي توافرت فيه؛ حتى جعلت له طابعاً معجزاً في لغته وبلاغته، أفاض العلماء فيها بين مقل ومكثر، ولكنهم بعد أن طال بهم المطاف، وبعد أن دميت أقدامهم، وحفيت أقلامهم، لم يزيدوا على أن قدموا إلينا قُلاً من كثر، وقطرة من بحر، معترفين بأنهم لم يزيدوا على أن قرّبوا لنا البعيد بضرب من التمثيل؛ رجاء الإيضاح والتبيين، أما الاستقصاء والإحاطة بمزايا الأسلوب القرآني، وخصائصه على وجه الاستيعاب فأمر استأثر به منزله الذي عنده علم الكتاب، وإذن فلنذكر نحن بدورنا شيئاً من خصائص أسلوب القرآن على وجه التمثيل والتقريب أيضاً، وما لا يُدرك كله لا يترك أقله" .[2]

فذكر جملة من خصائص القرآن الأسلوبية، وكان مما ذكر – وهو ما يعنينا في هذه الدراسة –: " براعته في تصريف القول، وثروته في أفانين الكلام"، وبيّن أن المراد بها

---

(١) مناهل العرفان: ٢/ ٣٢٥ .

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٣٣١ .

أنه " يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة، بمقدرة فائقة خارقة، تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء ".[1]

يقول – بعد أن ذكر جملة من أمثلة تصريف المعاني في القرآن الكريم التي أراد منها التدليل والتوضيح، لا الاستيعاب والاستقراء –: " وهكذا تجد القرآن يفتنّ في أداء المعنى الواحد بألفاظ وطرق متعددة، بين إنشاء وإخبار، وإظهار وإضمار، وتكلم وغيبة، وخطاب ومضيّ، وحضور واستقبال، واسمية وفعلية، واستفهام وامتنان، ووصف، ووعد ووعيد، إلى غير ذلك، ومن عجب أنه في تحويله الكلام من نمط إلى نمط كثيراً ما تجده سريعاً لا يجارى في سرعته، ثم هو على هذه السرعة الخارقة لا يمشي مكباً على وجهه، مضطرباً أو متعثراً، بل هو محتفظ دائماً بمكانته العليا من البلاغة ".[2]

ثم بين أثر هذا التفنن في القول، والتصريف فيه على الأسلوب والمخاطب، يقول: " ولقد خلع هذا التصرف والافتنان لباساً فضفاضاً من الجدة و الروعة على القرآن، ومسحه بطابع من الحلاوة والطلاوة، حتى لا يملّ قارئه، ولا يسأم سامعه مهما كثرت القراءة والسماع، بل ينتقل كل منهما من لون إلى لون، كما ينتقل الطائر في روضة غناء من فنن إلى فنن، ومن زهرة إلى زهرة ".[3]

وممن أشار إلى تصريف المعاني في القرآن الكريم الدكتور بدوي طبانة في " معجم البلاغة العربية "، فقد ذكر ذلك في مصطلحي " التصرف، والتصريف " بيد أنه في مصطلح " التصرف " نقل نقلاً كاملاً عن ابن أبي الإصبع دون الإشارة إليه، ولم يزد عليه، وكذلك فعل في مصطلح " التصريف " فقد نقل فيه عن الرماني، مع الإشارة إليه بشيء من التصرف، دون أن يزيد عليه[4]، ولكن يحسب له إشارته إلى هذا المصطلح، ولفت الأنظار إليه.

---

(١) مناهل العرفان: ٣٤١/٢ .

(٢) المصدر السابق: ٣٤٤/٢ .

(٣) المصدر السابق: ٣٤٥/٢ .

(٤) ينظر: معجم البلاغة العربية: ٣٤١ .

ومن باب الإنصاف فإن هناك دراسات أفادت من التصريف، وانطلقت منه، ودرست الآيات التي تم تصريف القول فيها، سواء كان ذلك على مستوى الآيات أو الموضوعات، فأما على مستوى الآيات فدرست آيات التشابه في القرآن الكريم، ولعل من أبرزها: كتاب " درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز"، لأبي عبدالله محمد بن عبدالله الإسكافي (٢٠هـ)، وفي تسمية الكتاب إشارة واضحة بالمراد من هذا الكتاب، وقد أشار إلى شيء من ذلك في المقدمة، يقول: " إني مذ خصني الله بإكرامه وعنايته، وشرفني بإقراء كلامه ودرايته، تدعوني دواعٍ قوية يبعثها نظر وروية في الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة، وحروفها المتشابهة المنغلقة والمنحرفة، تطلباً لعلامات ترفع لبس إشكالها، وتخص الكلمة بآيتها دون أشكالها، فعزمت عليها بعد أن تأملت أكثر كتب المتقدمين والمتأخرين، وفتشت على أسرارها معاني المتأولين المحققين المتبحرين، فما وجدت أحداً من أهلها بلغ غاية كنهها، كيف ولم يقرع بابها، ولم يفتر لهم عن نابها، ولم يسفر عن وجهها، ففتقت من أكمام المعاني ما أوقع فرقاناً، وصار المبهم المتشابه، وتكرار المتكرر تبياناً، ولطعن الجاحدين رداً، ولمسلك الملحدين سداً، وسميته " درة التنزيل وغرة التأويل"، وليس لله بمنكر مستبدع أن يعثر خاطر عبد ربئ على كنز حكمة في القرآن خبئ، أو يبلغه في لطيف من لطائف كلامه حداً، لا يبلغه آحد وإن كان أوحداً" .[1]

ومن الكتب -كذلك -: " البرهان في توجيه متشابه القرآن"، لمحمود بن حمزة بن نصر الكرماني (د٠ دهـ)، والكتاب كسابقه، وقد ذكر في مقدمته أنه يذكر في هذا الكتاب " الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن، وألفاظها متفقة، ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال حرف مكان حرف، أو غير ذلك مما يوجب اختلافاً بين الآيتين، أو الآيات التي تكررت من غير زيادة ولا نقصان، وأبين ما السبب في تكرارها، والفائدة من إعادتها، وما الموجب للزيادة والنقصان، والتقديم والتأخير، والإبدال، وما

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل: ٣ .

الحكمة في تخصيص الآية بذلك دون الآية الأخرى. وهل كان يصلح ما في هذه السورة مكان ما في السورة التي تشاكلها. أو لا. ليجري ذلك مجرى علامات تزيل إشكالها، وتمتاز بها عن أشكالها من غير أن أشتغل بتفسيرها وتأويلها. فإني بحمد الله قد بينت ذلك كله بشرائطه في كتاب "لباب التفسير وعجائب التأويل"، مشتملاً على أكثر ما نحن بصدده، ولكني أفردت هذا الكتاب لبيان المتشابه، فإن الأئمة رحمهم الله قد شرعوا في تصنيفه. واقتصروا على ذكر الآية ونظيرتها. ولم يشتغلوا بذكر وجوهها و عللها والفرق بين الآية ومثلها. وهو المشكل الذي لا يقوم بأعبائه إلا من وفقه الله لأدائه".[1]

ومن الكتب –كذلك –: "ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل" لأحمد بن الزبير الغرناطي (٧٠٨هـ). وليس الغرض من ذكر هذه الكتب الحصر ولا الاستقصاء، ولكن أدرت من ذلك: التدليل والتمثيل على هذا النوع من المؤلفات.

وهذه المؤلفات مع أهميتها وجليل نفعها، إلا أن فيها شيئا من النقص والقصور؛ وذلك أنها تنطلق في دراستها من الآية والآيتين اللتين وقع فيهما التشابه دون الالتفات إلى سياق كل آية. واختلاف مقام كل آية عن الأخرى. ودون الإشارة إلى موضوع كل آية، ودون ضم النظير إلى نظيره؛ للوقوف على المعاني التي تم تصريفها. والتنوع في بيانها، والتفنن في ذكرها في تناول هذا الموضوع المتحدث عنه. وينسحب هذا الحكم على نوع آخر من هذه الدراسات قريب منها. وهو دراسة التشابه اللفظي في القرآن الكريم، ومع ما تضمنته هذا النوع من الدراسات من الفائدة والجدة، إلا أنها ضيقت دائرة الدراسة، وحصرت التشابه وأوجه الاختلاف في الألفاظ. مع أن تغير الألفاظ وتشابهها بناء على تغير المقامات، واختلافها. وارتباط كل لفظة بالغرض الذي جاءت لتحقيقه. وبالمعنى الذي جاءت الآية لبيانه وإيضاحه. وإلا فإن دائرة الدراسة أوسع وأشمل، وما الألفاظ إلا جزء من

---

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن: ١٩.

هذا التصريف. ومن الدراسات القيمة في هذا الموضوع: رسالة دكتوراه بعنوان: " المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية"[1]. وكتاب آخر بعنوان: " من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم"[2]. وهاتان الدراستان – كما يتضح من عنوانهما – تعنيان بالجانب البلاغي في موضوع التشابه اللفظي. وثمة دراسة قيمة في هذا الجانب ولكنها تعنى بالجانب الموضوعي في التشابه اللفظي. وهي رسالة ماجستير. بعنوان: " المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وتوجيهه: دراسة موضوعية"[3].

وثمة دراسات درست هذا التصريف على مستوى الموضوعات دراسة موضوعية بلاغية، وإن لم تصرح بالتصريف. وهي دراسات نافعة. كما أن فيها عمقاً. واستيعاباً للموضوع المتحدث عنه من جميع جوانبه. وحصرا لكل الآيات التي تحدثت عنه. ومن تلك الدراسات على سبيل المثال لا الحصر:

كتاب: " متشابه النظم القرآني في قصة آدم عليه السلام" للدكتور عبدالجواد محمد طبق. وذكر أنه تم التنوع والتعدد في الحديث عن قصة آدم – عليه السلام –. وبيانها لدرجة أنه " اشتد التشابه أو دق أحياناً بين بعض العبارات في مواضع القصة لدرجة يصعب معها استكناه سر هذه التشابه. وهذا أمر طبعي في تناول مثل هذه المسائل في القرآن الكريم؛ لأنه ما دام فوق طاقة البشر في محاكاته فهو فوق طاقتهم – أيضاً – في فض جميع مغاليقه وأسراره. ولكن هذه لا يثنينا عن المحاولة إذا ما أوتينا وسائلها؛ لأننا إن عجزنا أحياناً عن كشف بعض أسرار المتشابه فلن نعجز عن المحاولات الجادة التي يمكن أن تصيب في أحيان أخرى؛ لأننا مأمورون بالتدبر في أسراره. والتفطن لخواص تراكيبه. ومحاولة كشف أستاره ".[4]

---

(١) للدكتور صالح بن عبدالله الشتري. مقدمة لقسم البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية. جامعة أم القرى. ١٤٢١هـ .

(٢) للأستاذ الدكتور محمد بن علي الصامل. وقد صدرت طبعته الأولى عن دار إشبيليا. عام ١٤٢٢هـ .

(٣) للباحث محمد بن راشد البركة. وقد تقدم بها إلى قسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . عام ١٤٢٥هـ

(٤) متشابه النظم القرآني في قصة آدم عليه السلام: ٢ .

ومن الدراسات – كذلك –: كتاب: " خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام" للدكتور الشحات محمد أبو ستيت. وقد ذكر طبيعة عمله، وطريقة تناوله لهذه القصة، يقول: " وأتبعت كل فصل من الفصول الأربعة السابقة ببحث خاص يبين أسرار التشابه، والتنوع في نظم الحلقات التي ينتظمها الفصل، وذلك من خلال المقارنة المفصلة بين نظمها مجتمعة، على أننا في تحليلنا البلاغي لكل حلقة على انفرادها قد عنينا عناية خاصة ببيان أسرار التنوع في نظمها، وإيضاح ما فيه من تلوين أسلوبي بديع، وإظهار كثير من لطائف ترتيبه، ونسقه الفريد ".[1]

ومن الدراسات – أخيراً –: " من أسرار تنوع النظم القرآني في قصة زكريا عليه السلام". للدكتور أحمد السيد طلحة داود، وقد أشار إلى إعجاز القرآن الكريم في هذا المجال، يقول: " فإن من أوضح وأبرز مظاهر هذا التنوع والتشابه في الذكر الحكيم ما نراه في القصص القرآني، حيث يعرض القصة الواحدة في أنماط متعددة من النظم، وتنوع هذا العرض بالإطناب والإيجاز، وبالتقديم والتأخير، إنما هو تلاؤم مع مقتضيات السياق، والغرض المقصود ".[2]

كما بيّن الهدف الذي يسعى إليه من خلال هذه الدراسة، وذلك في قوله " وهذا البحث يرمي بالدرجة الأولى إلى استجلاء الأسرار البيانية التي تكمن وراء تنوع النظم في هذه القصة، معتمداً في بيان هذه الأسرار على فقه حركة السياق، وفهم الغرض المقصود الذي شكل صياغتها وترتيبها".[3]

وهذه الدراسات وما شاكلها هي الأقرب – في نظري – من النوع الأول في بيان معنى تصريف المعاني في القرآن الكريم، كما أنها تُعد النموذج التطبيقي لتصريف المعاني في القرآن الكريم، وإنْ كان تصريف الآيات والمعاني لا يقتصر على قصص

---

(١) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام: د .

(٢) من أسرار تنوع النظم القرآني في قصة زكريا عليه السلام: ٢ .

(٣) المصدر السابق: ٣ .

الأنبياء. ولكنه يتجلى في هذه القصص. وإلا فإنه كامن في المعاني كلها التي يذكرها القرآن الكريم. وينوع في ذكرها ويتفنن في عرضها من المعاني التي يبدئ فيها ويعيد.

كما أني أفضل أن ينص في مثل هذه الموضوعات صراحة على التصريف؛ فإنها لفظة قرآنية. تكررت في مواضع متعددة من القرآن الكريم. كما أن هذا التصريف منهج قرآني كذلك. اتخذه القرآن وسيلة في بيان معانيه وذكرها. وبسط القول فيها. وتنوع في عرضها.

* * *

المبحث السابع: وقفة مع تصريف المعاني في آيات التصريف في القرآن الكريم

في هذا المبحث سأنظر في آيات التصريف نظرة تأمل وتدبر؛ للوقوف عند بلاغة القرآن الكريم في ذكره لهذا المعنى، وتصريفه القول وتنوعه في ذكره لآيات التصريف في القرآن. وسأنطلق في هذا الأمر من الآيات نفسها. ولذا يحسن في هذا المقام ذكر هذه الآيات مرة أخرى مجتمعة في هذا الموضع؛ لتأملها، والغوص في دلالاتها، وإمعان النظر فيها، وذكر شيء من أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية وهذه الآيات هي:

الآية الأولى: قول الله – تعالى –: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٦]

الآية الثانية: قول الله – تعالى –: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٥]

الآية الثالثة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥]

الآية الرابعة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٨]

الآية الخامسة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤١]

الآية السادسة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ الإسراء: ٨٩]

الآية السابعة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤]

الآية الثامنة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣]

الآية التاسعة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٠]

الآية العاشرة: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٧]

الوقفة الأولى:

أن جميع هذه الآيات نزلت في العهد المكي[1]، ولذا أخذت هذه الآيات خصائص العهد المكي في خصائصه الموضوعية والأسلوبية، ولهذا الأمر دلالة يحسن الوقوف معها، والإشارة إليها، وهي أن القرآن الكريم يكاد يكون الحديث البارز في العهد المكي، فمن الناحية الموضوعية فيكاد يكون القرآن الكريم من أكثر الموضوعات التي كثر فيه حديث المشركين عنه، وكثر جدالهم فيه، فما أكثر ما تطاول عليه القوم، فقد أطلقوا فيه الافتراءات العظيمة، فهو – كما زعموا – شعر وسحر، كما أنه إفك مفترى، ولذا فمن المناسب – والحالة هذه – أن يكثر الحديث عن القرآن، وأن يبين – سبحانه – حقيقة هذا الكتاب، وأن يذكر خصائصه التي تميز بها، وانفرد عما سواه من الكتب، التي بسببها باين كلام البشر، وصار بها معجزاً، كما أن حال القوم، وماهم عليه من الإعراض والتكذيب ناسب ذكر هذا الأمر في هذا العهد، وتكراره عليهم؛ علهم أن يقبلوا عليه، ويؤمنوا به، كما تجلى ذلك من خلال حكم هذا التصريف التي سبق الإشارة إليها، فلم تقف نعمة الله ومنته بنزول القرآن عليهم، بل أنزله عليهم منجماً، وصرف فيه الآيات والأمثال؛ لعلهم يرجعون، ولعلهم يفقهون، ولعلهم يشكرون، ولكن ما زادهم

---

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١/١٩٣، الزركشي، و: المكي والمدني في القرآن الكريم:٧١، للأستاذ الدكتور محمد الشايع

هذا التصريف إلا كفوراً، ونفوراً وجدلاً. ولا غرو أن يكون هذا موقفهم؛ لأنه لا ينتفع من تصريف الآيات إلا القوم الذين يعلمون ويشكرون.

كما جاءت آيات تصريف المعاني في القرآن الكريم محملة بكثير من الخصائص الأسلوبية للآيات المكية. وسوف أبسط القول في بيان هذه الخصائص في الوقفات الآتية في بيان ما تميز به أسلوبها، وما انطوت عليه من أسرار بلاغية، ونكت بيانية.

الوقفة الثانية:

جاءت آيات تصريف الآيات في القرآن الكريم على قدر كبير من البلاغة والجزالة في القول، وقد تم توظيف ذلك كله في الدلالة على أهمية هذا التصريف، وعلو قدره وشأنه في البلاغة والإعجاز. و قد تجلى ذلك من خلال ما يأتي:

أولاً: من خلال فعل الأمر " انظر " الذي صُدرت به بعض آيات التصريف، وقد جاء ذلك في موضعين، في قوله ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٦]

الآية الثانية: قول الله – تعالى –: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٥]

ولا يخفى أن في هذا الفعل إشارة إلى أهمية هذا التصريف، و لفت الأنظار إليه، فلعلو قدره، وعظيم أثره وتأثيره جاء هذا الأمر ليدل على هذا المعنى، ويشير إليه، ولذا فإن في هذا الأمر تعجباً من حالهم من عدم انتفاعهم من هذا التصريف، وعدم إقبالهم عليه، فهو " تعجب لرسول الله من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة ".[1]

كما أن في هذا التعجب إشارة إلى عِظم هذا التصريف، وعلو قدره، وأن حقه الإيمان به، والإقبال عليه، ولذا فإن في هذا الأمر تعظيماً لهذا التصريف[2]. كما أن في هذا

(١) إرشاد العقل السليم: ٣/ ١٤٣.

(٢) ينظر: نظم الدرر: ٧/ ١٤٤.

الفعل إشارة إلى عظم هذا التصريف، وعظيم نفعه على الأمة، ولذا جاء الفعل " انظر" ليلفت العقول إلى هذا الفضل. وقد أشار ابن عطية إلى الأمر بقوله: " وهذه الآية تنبيه على فضل الله في القرآن على العالم، وتوبيخ للكفار على قبيح فعلهم ".[1]

يدل على ذلك – أيضاً– قول البقاعي: " ولما كان هذا بياناً عظيماً أشار إلى عظمته بقوله " انظر" ".[2]

وفي الأمر بالنظر إلى هذا التصريف في قوله ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ إشارة إلى عِظم هذا التصريف واشتهاره، فقد صار ماثلاً للعيان يبصره كل ذي عينين، ومن هنا جاء الأمر بالالتفات إليه بقوله ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ ﴾، وقد أشار الطاهر بن عاشور إلى بلاغة هذا الفعل ودلالاته، يقول " في قوله " انظر" تنزيل للأمر المعقول منزلة المشاهد، وهو تصريف الآيات مع الإعراض عنها، حتى إن الناظر يستطيع أن يراها، وأما الأمر فهو مستعمل في التعجب من حالهم ".[3]

ثانياً: مجيء لفظة " نصرف" فعلاً مضارعاً، وفي ذلك إشارة إلى تكرر حدوث هذا التصريف، وتجدد وقوعه، وهذا من رحمة الله بعباده أن كرر عليهم نزول القرآن، وأن صرف لهم الآيات تصريفاً، فلم يكن هذا التصريف مرة ثم انتهى هذا التصريف وانقضى، بل تكرر حدوثه، و تجدد وقوعه بتجدد معاني آيات القرآن الكريم التي تم الحديث عنها، وذكرها في القرآن الكريم بأبلغ أسلوب، وأحسن بيان.

ثالثاً: جاء الحديث عن التصريف في أربعة مواضع بصيغة الجمع في قوله " نصرف"، وفي المواضع الستة الأخرى جاء الفعل فيها مسنداً إلى ضمير الجمع في قوله " صرفنا". ولا يخفى أن في هذا الجمع تعظيماً له – سبحانه وتعالى – وهو لا يعظم نفسه إلا على أمر

---

(١) المحرر الوجيز: ٢/ ٤٨٤.

(٢) نظم الدرر: ٧/ ١٤٤.

(٣) التحرير والتنوير: ٧/ ٢٣٥.

عظيم، ومن هنا جاء هذا الجمع إشارة إلى هذا المعنى ودلالة عليه. يدل على هذا المعنى ويؤكده قول البقاعي في قوله ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ "أي بما لنا من العظمة".[1]

كما أن في قوله "صرفنا" تعظيماً له – سبحانه – وتفخيماً لذاته على تصريفه المعاني والأمثال في هذا القرآن. يدل على ذلك – أيضاً – قول البقاعي في قوله "ولقد صرفنا" "أي رددنا وكررنا تكريراً بما لنا من العظمة".[2]

رابعاً: العطف بـ "ثم" في قوله ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٦] فللعطف بهذا الحرف ارتباط وثيق بتصريف الآيات. فقد تضمن الإشارة إلى بلاغة هذا التصريف، وعظيم أثره. كما تضمن – كذلك – الإشارة إلى موقف المشركين منه. وإعراضهم عنه. وذلك أن في هذا العطف معنى الاستبعاد، استبعاد أن يصدفوا عن هذه الآيات، ويعرضوا عنها بعد تصريفها وتنوعها وتكرار بيانها عليهم مرة بعد أخرى.

وقد أشار كثير من المفسرين إلى هذا المعنى، وأكدوا عليه. يقول أبو السعود – في تفسير هذه الآية –: "وثم" لاستبعاد صدوفهم أي أعراضهم عن تلك الآيات بعد تصريفها على هذا النمط البديع الموجب للإقبال عليها".[3]

كما أشار إلى هذا المعنى محي الدين زادة في قوله: "ثم استبعد إعراض المشركين عن التأمل فيها مع هذه المبالغة في تفهيمها وتقريرها وكشفها وإيضاحها. وعجّب الرسول منه، فقال: "ثم هم". أي انظر يا محمد كيف هم يصدفون".[4]

وقد تضمن هذا الاستبعاد تعجباً من حالهم، ومن موقفهم من هذا التصريف، يقول ابن عاشور – في الكشف عن دلالة حرف العطف "ثم" –: "وهو هنا للتعجب من قوة الأدلة واستمرار الإعراض والمكابرة مع ذلك أجدر بالتعجب به".[5]

---

(١) نظم الدرر: ٧/ ١١٨.

(٢) المصدر السابق: ١١/ ١٠د .

(٣) إرشاد العقل السليم: ٣/ ١٣٤.

(٤) حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي: ٢/ ١١٦ .

(٥) التحرير والتنوير: ٧/ ٢٣٦.

خامساً: المتأمل للأفعال التي خُتمت بها آيات التصريف وهي قوله ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٦]. وقوله ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٥]. وقوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥].وقوله ﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٨]. وقوله ﴿ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٧] يجد أن مفعول هذه الأفعال في كل المواضع جاء محذوفاً. وقد جاء هذا الحذف متوافقا مع مكانة هذا التصريف. وعظم أثره على كل من تلقّى القرآن. سواء كان مؤمناً أم كافراً. فالغرض من هذا الحذف: إرادة العموم. وعدم التقييد في المذكور. فقد أُريد العموم لتذهب النفس في تقديره كل مذهب. ولو ذُكر المفعول لانحصر الذهن في المذكور. ومن هنا " صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر؛ لأن النفس تذهب فيه كل مذهب. ولو ذُكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان" .[1]

وفي هذا الحذف إبراز لأثر هذا التصريف. وثناء على المؤمنين في إقبالهم على القرآن. حين صُرفت لهم آياته. فقد فقهوا كل ما جاء فيه عن ربهم. وعلموا كل حكمه. وغاياته. وشكروا ربهم بجميع أنواع المحامد كلها. كما أن فيه نعياً وذماً على الكافرين من خلال موقفهم من تصريف هذه الآيات. ولذا فهم يصدفون عن كل شيء. ويعرضون عن كل ما جاء فيه من غير تحديد أو تعيين. وفي هذا مزيد ذم لهم. وعتب عليهم. كما أن قوله ﴿ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ دعوة عامة لهم إلى الإقلاع عما هم متلبسون فيه من الكفر والتكذيب والإعراض والعناد. إشارة إلى كثرة ما وقعوا فيه. وإلى تنوع مواقفهم وتعددها من القرآن الكريم. وممن أُنزل عليه القرآن. ومن هنا جاء الحذف إشارة إلى هذه المعاني كلها. ودلالة عليها. ولذا فقد تم توظيف أسلوب الحذف في إبراز مكانة هذا التصريف. وإبراز أثره. وقوة تأثيره على الناس جميعاً. والله أعلم بأسرار كتابه.

---

(١) النكت في اعجاز القرآن: ٧٧ .

سادساً: التأكيد الذي صُدرت به بعض آيات التصريف. فقد تم تأكيدها بـ" لقد". وقد جاء هذا التأكيد في أربعة مواضع من آيات التصريف. وذلك في: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤١]. وقوله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩]. وقوله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤]. وقوله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٠]

وفي مجيء التأكيد في هذه الآيات وتتابعه بهذه الطريقة دعوة إلى النظر فيه، وتأمل أسراره وحِكمه، إذ لا يخفى أن للتوكيد أسرارا وحكماً. كما أن له مقاماته وسياقاته. يدل على ذلك قول العلوي: " ولا يخفى موقعه البليغ، ولا علو مكانه الرفيع، وكم من كلام هو عند التحقيق طريد حتى يخالطه صفو التأكيد، فعند ذاك يصير قلادة في الجيد، و قاعدة في التجويد ".[1]

فما بلاغة هذا التأكيد؟ وما علاقته بآيات تصريف المعاني في هذا المقام؟ لم يكن الباعث من هذا التأكيد – والله أعلم – مراعاة حال المخاطب، ومن ثَم جاء الخبر إنكارياً نظراً إلى درجة الإنكار القائمة في نفوس المخاطبين. كلا فليس هذا هو الغرض، إذ لم يدر في نفوس المخاطبين به إنكار لهذا التصريف. ومن ثَم جاءت الآيات مؤكدة بهذه المؤكدات؛ لتواجه هذه الإنكار، وتقتلعه من جذوره. كما أن بلاغة التوكيد وبواعثه أكبر من أن تحصر في هذا الأمر. بل إن هذا الأمر جزء من أغراض التأكيد وهو النظر إلى حال المخاطب، وثمة أغراض بلاغية للتوكيد باعثها الخبر نفسه. وقد أشار الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى إلى هذه الأغراض. يقول: " وأما دواعي التوكيد وأغراضه فقد ضاق صدري بحديث المتأخرين حينما أداروه حول مواجهة إنكار المخاطب التحقيقي أو الاعتباري. وكأن جواب أبي العباس المبرد على سؤال الكندي المتفلسف كان محيطاً بدواعي

---

(١) الطراز: ٢/١٧٦.

التوكيد وأسراره في هذه اللغة فجاء كلامهم ترديداً أو شرحاً لهذا الجواب، وهذا قصور كثير في فهم هذه الخصوصية التي هي من أدق الخصائص البلاغية وأكثرها صلة بالحس والشعور، وأكثرها شيوعاً في الكلام كله".[1]

ولذا فالغرض من توافر هذا التأكيد في آيات التصريف منظور فيه إلى قيمة هذا الخبر، وما تضمنه من حِكم ومقاصد. فالغرض من التأكيد مرتبط بالخبر نفسه، ومتعلق بمضمونه، إذ المراد تقرير هذا التصريف، وبيان محاسنه، وذكر حِكمه، وموقف الناس منه، وبيان كيفية الانتفاع منه، فكأن الغرض من هذا التأكيد إرادة تثبيت هذه المعاني في النفوس، وتقريرها حتى وإن كانت خالية من كل معنى من معاني الإنكار، ولا شك أن في هذا التأكيد حفاوة بمضمونه، واهتماماً بما تضمنه، فيكون هذا مظهراً من مظاهر الاهتمام به، وأنه جدير بالعناية والرعاية.[2]

ولذا فإن مما يدل على أهمية هذا التصريف، وعظيم خطره ونفعه أن يُساق ابتداء بهذه المؤكدات إشارة إلى أهميته، وجليل شأنه، وعظيم أثره، إذن فهذا التأكيد منظور فيه قيمة الخبر نفسه، إشارة إلى مكانته، وتأكيداً على أهمية تصريف هذه الآيات، وذلك أبلغ من أن يكون الغرض من هذا التأكيد منظوراً فيه إلى حال المخاطب، وكأن هذا الإنكار ردة فعل من حال المخاطبين حيال موقفهم من القرآن الكريم، والله أعلم بأسرار كتابه.

سابعاً: متشابه النظم في آيات تصريف القرآن الكريم:

جاء الحديث عن تصريف آيات القرآن الكريم في عشرة مواضع كما سبق ذكرها وبيانها، ويعد الحديث عن التصريف من خلال هذا الآيات نموذجاً تطبيقياً لهذا التصريف، وقد تمت الإشارة إلى التنوع والتفنن وتكرار الحديث عن هذا التصريف، وترديد القول فيه ترديداً من خلال هذه الوقفات، ومن خلال تصريف هذه الآيات ظهرت كثير من الخصائص

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ٤١٣ .

(٢) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ٤١٣ .

الموضوعية والأسلوبية لهذا التصريف في الحديث عن تصريف آيات القرآن الكريم. ولذا فإن القرآن الكريم وبلاغته من خلال هذا التصريف هو الأجدر أن ينصرف إليه تعريف ابن أبي الإصبع للتصريف حين قال: " وهو أن يبرز المتكلم المعنى الواحد في عدة صور، اقتداراً منه على نظم الكلام وتركيبه، وعلى صياغة قوالب المعاني والأغراض، فتارة يأتي به في لفظ الاستعارة، وطوراً يبرزه في صورة الإرداف، وآونة يخرجه مخرج الإيجاز، وحيناً يأتي به في ألفاظ الحقيقة"[1]، وذكره تحت عنوان " الاقتدار".

ومن هنا رأينا هذا التنوع والتفنن والاقتدار في الحديث عن هذا الموضوع من خلال هذه الآيات، ومن أصدق من الله قيلاً، ومن أبلغ منه حديثاً، وقد جاء الحديث في غاية البيان، وفي غاية البلاغة والجزالة، وقد تنوعت الموضوعات، واستوعبت هذه الموضوع من جميع جوانبه، وعبرت عنه بهذا الأسلوب البليغ الجزل، كما تم إبرازه بصور عدة، وقوالب متعددة، كما تم فيه توظيف الأساليب البلاغية في إبراز هذا المعنى وإظهاره في أحسن صورة، وأبهى حلة، ومن هنا جاء الاختلاف في آيات التصريف فيما بينها تقديماً وتأخيراً، حذفاً وذكراً، متغايرة فيما بينها في الحقيقة و المجاز، وفي استخدام فنون البديع، فتفاوتت فيما بينها تفاوتاً أظهرت بلاغة المتكلم، وتفاوتاً في الأسلوب، ولكنها اتفقت في المقصود والمآل، وهذه وقفة مع بعض آيات التصريف التي ظهر فيها هذا التنوع وتجلى فيها هذا التفنن في عرض هذه الحقيقة وذكرها من خلال تصريف هذه الآيات،

وهذه الآيات هي: قول الله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤١]، وقوله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ الإسراء: ٨٩]، وقوله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤]

---

(١) بديع القران: ٢٨٩.

وقد أشار ممن كتب في متشابه الآيات إلى هذه الآيات الثلاث. ولعل من أبرز الإشارات وأقدمها حديث محمد بن عبدالله المعروف بالخطيب الإسكافي (٤٢٠)[١]. وكذلك محمود بن حمزة الكرماني (٥٠٥)[٢].. وكذلك أحمد بن الزبير الغرناطي (٧٠٨)[٣]. وقد جاء حديثهم عن هذه الآيات في ضوء الحديث عن التشابه اللفظي في القرآن الكريم، فهم لم يدرسوا هذه الآيات في ضوء الموضوع المتحدث عنه، كما لم يشيروا إلى موضوع التصريف الذي تم فيها. وقد سبق الحديث عن هذه الكتب[٤]. ومع ذلك فقد أفدتُ من هذه الكتب. وأفدتُ من كلامهم عن هذه الآيات من خلال حديثهم عن وجوه الاختلاف فيما بينها، ووجوه الاتفاق كذلك.

ومما اتفقت فيه هذه الآيات الثلاثة في الافتتاح الذي افتُتحت فيه كل آية. فجاءت بداية كل آية بقوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ . وقد سبقت الإشارة إلى دلالة التوكيد في قوله ﴿ وَلَقَدْ ﴾ . والإشارة – كذلك – إلى دلالة الإسناد إلى ضمير العظمة في قوله ﴿ صَرَّفْنَا ﴾ . وارتباطه بموضوع تصريف الآيات، وبيان أثره كذلك في إظهار مكانته، وبيان عظمته.[٥].

كما اتفقت – كذلك – في الإشارة إلى القرآن الكريم باسم الإشارة القريبة "هذا". وفي الإشارة إلى القرآن باسم الإشارة القريب دلالة على قرب القرآن ممن أقبل عليه، وانتفع به. وقرب أثر هذا التصريف عليهم. ففيه إشارة إلى قرب القرآن منهم. وقربهم منه، وقربهم من الانتفاع بمواعظه. والانتفاع من حِكم هذا التصريف. ولذا فالقرآن أقرب إليهم من كل قريب إن آمنوا به، وأقبلوا عليه.

وإن ورود التصريف والحديث عنه من خلال هذه الآيات في هذه المواضع يُعدُّ مظهراً من مظاهر التفنن في إيراد هذا المعنى بهذه الأساليب المتعددة. بيد أن بلاغة القرآن

---

(١) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل: ١٥٣.

(٢) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن ١٦٦.

(٣) ينظر: ملاك التأويل ٢/ ٦٢٩ .

(٤) ينظر: صفحة: ٦٤ من البحث .

(٥) ينظر: صفحة: ٧٥ من البحث .

الكريم لا تقف عند هذا الحد. ولم تأت لهذا الغرض، بل تتجاوز ذلك إلى غايات وحِكم وأسرار ترتبط بغايات هذه الآيات، وبإظهار مقاصدها، وتحقيق غاياتها، ولذا فجاء الاختلاف بينها لارتباط كل آية بالسياق الذي وردت فيه، وبالغرض الذي نزلت لتحقيقه، وبالمعنى المراد بيانه وتقريره.

ومن هنا وقف العلماء مع هذه الآيات فذكروا أبرز الفروق بينها، وسبب هذا الاختلاف وغاياته، والمتأمل لهذه الآيات الثلاث ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤١]، وقوله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقوله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤]

يجد الاختلاف والتنوع البديع بين هذه الآيات، فما حكمة هذا التنوع؟ وما سرّ هذه المغايرة في الحديث عن تصريف آيات القرآن الكريم؟ ومن الاختلاف بين هذه الآيات، خلو الآية الأولى من لفظة " الناس "؛ لتقدم ذكرهم في الآيات التي تسبقها، فما زال الحديث موصولاً عنهم، فذكرهم أولاً أغنى عن إعادته مرة أخرى في هذه الآية[١]، كما أن الخطاب في هذه الآية لكفار قريش بدلالة الآية التي قبلها وهي قوله ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء: ٤٠]

ولذا لم تأت لفظة "الناس" في هذا المقام؛ لتوجه الحديث مع المشركين[٢]، وفي هذا مزيد عتاب عليهم، أن يكون هذا موقفهم من القرآن رغم ما تم لهم فيه من البيان والإيضاح، وتصريف الآيات، وكان جديراً بهم أن يكون ذلك سبباً لهم إلى الإيمان به، والإقبال عليه، ولكنهم كفروا وكذبوا، وأعرضوا، بالرغم من تكرار هذا الهدايات عليهم والبينات، ولذا ختمت الآية بقوله ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه.

---

(١) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن: ١١٦

(٢) ينظر: ملاك التأويل: ٢/ ٦٢٩ .

كما أن عدم ذكر لفظة "الناس" في هذه الآية، إبهاماً للقول، "ليحيط بأنواع تصاريف الكلام من الخبر و العبر، و ضرب المثل، والأمر والنهي، والوعظ والزجر، إذ كان فيما قبله كل ذلك"[1].

وأما ذكر لفظة "الناس" في الآية الأخرى، فلم يسبق ذكرهم في الآيات التي قبلها، بل ذُكر قبلها الحديث عن الإنس والجن معاً في قوله ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]. ففي ذكر لفظة "الناس" في هذه الآية تصريح بهم، وإشارة إلى أنهم هم المراد من هذا التصريف. فهم المخاطبون به، وكأن التحدي متوجه إليهم، وإنما جاء ذكر الجن تبعاً لهم، وذُكروا في ركابهم[2]، ولذا فإن ذكر لفظة "الناس"، والتصريح بها، دعوة لهم "ليهتموا بتفهمه، ويعنوا بتدبره، ويقفوا عند أوامره، وينتهوا عن زواجره. فكان موضع الآية يقتضي تقديم "الناس"، على عادة العرب في تقديم ما عنايتهم بذكره أتم"[3]. ولذا فإن مجيء هذه الآية بعد آية التحدي كان له الأثر في مجيء هذه الآية بهذا النظم، وفي ذكر لفظة "الناس" في هذا المقام.

أكد هذه الحقيقة، وأشار إليها الطاهر بن عاشور، فذكر أن الحكمة من ذكر "الناس" في هذا الموضع، إشارة إلى "أن هذه الآية واردة في مقام التحدي والإعجاز، فكأن الناس مقصودون به قصداً أصلياً، مؤمنهم وكافرهم، بخلاف الآية المتقدمة فإنها في مقام توبيخ المشركين خاصة، فكانوا معلومين".[4]

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل: ١٥٣.

(٢) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن: ١١٦

(٣) درة التنزيل وغرة التأويل: ١٥٣.

(٤) التحرير والتنوير: ١٥/٢٥٤.

ولأن الحديث في هذه الآية عن الإعجاز ذُكر قوله ﴿ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ دون الآية التي قبلها. ولا شك " أن ذكر ذلك أدخل في باب الإعجاز؛ فإن كثرة أغراض الكلام أشد تعجيزاً لمن يروم معارضته على أن يأتي بمثله".[1]

وأما ذكر لفظة "الناس" في سورة الكهف، فقد أصاب المحز. وحقق الغرض؛ لارتباط هذه الآية بما قبلها من الآيات. وبيان ذلك أنه "لم يقع قبلها ذكر الثقلين فيحتاج إلى ذكر تقديم الناس. كما احتيج في آية الإسراء.... ولكون الخطاب عاماً في الآيتين لم يكن بد من ذكر الناس. بخلاف الآية الأولى في سورة الإسراء، إذ خطابها خاص بالقائلين من كفار العرب: إن الملائكة بنات الله – تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً – فقد ورد كل من هذه الآيات على ما يناسب ويلائم ما اتصل به".[2]

كما أن ثمة اختلافاً آخر في هذه الآيات من حيث التقديم والتأخير. فقد قُدم لفظة "الناس" في قوله – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩]. وفي موضع آخر قُدمت لفظة " القرآن" عليها كما في آية الكهف. في قوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤]. والغرض من هذا الاختلاف – والله أعلم -- أنه قُدم في كلا الموضعين ما هو أولى بالعناية والاهتمام؛ بناء على غرض الآية. والمعنى المراد بيانه وتقريره. فقد سبقت الإشارة إلى أن ذكر الناس في سورة الإسراء؛ لأنهم هم المقصودون بهذا الخطاب، وبهذا التصريف، وأن في ذلك تشريفاً لهم وتحديداً. فجاء تقديمهم بالذكر؛ إشارة إلى هذا المعنى، فالحديث عنهم، وهم المراد من ذلك كله. أما في سورة الكهف فالحديث عن القرآن في إظهار شرفه، وبيان مكانته، وجاء ذكر الناس تبعاً له، وإلحاقاً به. وبيان ذلك أن سبب تقديم " في هذا القرآن" في قوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤]؛ " لأن ذكره

---

(١) المصدر السابق: ١٥/٢٠٥.

(٢) ملاك التأويل: ٢/٦٣٠.

جل الغرض، وذلك أن اليهود سألته عن قصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، فأوحى الله إليه في القرآن. فكان تقديمه في هذا الموضع أجد، والعناية بذكره أحرى".[1]

ومن هنا جاء تقديم " القرآن" إشارة إلى الأحداث التي وقعت في هذه السورة " من ذكر أصحاب الكهف، وما سئل النبي ﷺ عن الإخبار به مما لم يقدر عليه إلا بأن يوحى إليه، وكان جميع ذلك من خبر موسى ﷺ، وقصة ذي القرنيين بعدهما مما أودع القرآن وتضمنه الكتاب. فقال في هذا المكان ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الكهف: ٥٤]، للدلالة على ما طلبوه من النبي، وما قد أوحى الله به إليه في كتابه، فكان تقديم ذلك في هذا المكان أولى، والله أعلم".[2]

يدل على أن المراد في هذا المقام الحديث عن القرآن ذكر قوله ﴿ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ ففي ذلك إظهار لعظمة هذا القرآن، وإبراز لمكانته أن ذكرت فيه الأمثال، وصرفت فيه الآيات والعبر والقصص والأخبار، وقد تجلى ذلك كله في سورة الكهف.

ولذا جاء ختام الآية بقوله ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ متوافقاً مع هذا التقديم أتم الموافقة. فالبرغم مما تضمنته هذا القرآن من البيان والتصريف إلا أن الإنسان لم يقبل عليه، ويؤمن به، بل زاده ذلك إصراراً وعناداً، وسؤالا وجدلاً؛ ذلك لطبيعة هذا الإنسان، وما جبل عليه، وليس ذلك راجعاً إلى القرآن وما تضمنه، فقد جاء بالبينات والهدى التي من حقها الإيمان بها، والانقياد لها، ولكن الإنسان أعرض عن ذلك كله ونأى بجانبه، ولا غرو فهو كما ذكر عنه ربه، وحكم عليه بقوله ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾.

* * *

---

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن: ١١٧.

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل: ١٥٣.

الخاتمة

وبعد فهذي هي نهاية المطاف لهذه الرحلة الماتعة، ولهذا الإبحار الجميل، والصعب الشائق في الوقت نفسه مع آيات تصريف المعاني في القرآن الكريم، التي نعمت بصحبتها، والتنقل في أرجائها، وسعدت بالاستراوح بظلها وظليلها، وبعد الغوص في أعماق درر هذه الآيات البيانية، والنظر في أسرارها البلاغية، والنظر في معنى التصريف ودلالاته، وحِكمه وأسراره، بعد ذلك كله تصل هذه الدراسة إلى خاتمتها، وتقف عند نهايتها، علها أن تكون قد حققت غايتها، وبلغت مبتغاها، وثمة نتائج قد أمكن الاهتداء إليها من خلال هذه الدراسة، ومن أبرزها ما يأتي:

أولا: أن التصريف لفظة قرآنية، وردت بهذا المعنى في عدة مواضع من القرآن الكريم، وفي سياقات متعددة، كما ورد هذا المصطلح في كتب بعض العلماء المتقدمين والمتأخرين في الحديث عن بلاغة القرآن وإعجازه، كما أن هذا التصريف منهج قرآني كذلك، اتخذه القرآن وسيلة في بيان معانيه وذكرها، وبسط القول فيها، وتنوع في عرضها.

ثانياً: أن آيات التصريف في القرآن الكريم جاءت شاملة في الحديث عن هذا الموضوع من جميع جوانبه، فقد ذكرت حكمه وغاياته، وموقف الناس جميعاً منه المؤمنين والكافرين على حد سواء، ولذا كانت هذه الآيات المرجع في الحديث عن هذا الموضوع، ولذا قام هذا البحث على التأمل وطول التدبر، وإمعان النظر، والقراءة في التفاسير، وكلام الأئمة.

ثالثاً: أن مصطلح التصريف لم ينل حظه، ولم يأخذ حقه من الاهتمام والتعريف في الدراسات البلاغية على مستوى التنظير والتطبيق، على النقيض من ذلك المفسرون، فإن لهم جهوداً بارزة في بيان معنى التصريف، وذكر غاياته وحِكَمه من خلال تفسيرهم للآيات التي ذُكر فيها التصريف، ولذا فقد ذكرت المعنى الاصطلاحي للتصريف من خلال كلام المفسرين، وبيان معانيهم لمعنى التصريف، وبيان المراد به.

رابعاً: أن لتصريف آيات القرآن حِكماً سعت إلى تحقيقها، وغاية ترنو الوصول إليها، ولأهمية هذه الحكم تم الحديث عنها، وإبانتها، بل النص عليها في آيات التصريف في القرآن، وقد تم ذكر هذه الحكم في آيات التصريف، وقد تعددت هذه الحكم بتعدد آيات التصريف، وبتعدد المقامات التي تنزلت فيها هذه الآيات، وبتعدد أحوال المخاطبين بها، وبتعدد مواقفهم من القرآن الكريم.

خامساً: انقسم الناس حول تصريف آيات القرآن الكريم، والانتفاع منه قسمين: الأول، وهم المشركون، وقد تم الإبانة عن موقفهم تصريحاً من خلال آيات التصريف، والقسم الآخر: هم المؤمنون، وقد تضمنت آيات التصريف الإشارة إليه تصريحاً وتلميحاً.

سادساً: أن للتصريف علاقة بإعجاز القرآن الكريم، بل هو وجه من وجوه إعجازه، وقد أشار البحث إلى عدة أمور تؤكد على أن تصريف آيات القرآن الكريم بالطريقة التي تزل بها القرآن، وذكر فيها موضوعاته ومعانيه أن ذلك معجز، وأنه وجه من وجوه إعجاز القرآن التي لا تُحدُّ ولا تُعد.

سابعاً: أن للرماني جهوداً وإشارات متقدمة سابقة في موضوع تصريف آيات القرآن الكريم، وقد تحدث عن هذا الموضوع من جميع جوانبه، وأتى على معظم عناصره، ويكاد يكون أول من تحدث عن هذا الموضوع، وقد تناولتُ في هذا البحث جهد الرماني في هذا المجال، وكان الأولى على من جاء بعده أن يكمل المسيرة، وأن يضيف عليه اللبنات تلو اللبنات، ويتناوله تنظيراً وتطبيقاً، ويبدأ من حيث انتهى إليه الرماني، شأنه في ذلك شأن كثير من الأساليب البلاغية التي تعاقب عليها العلماء بالدراسة والبيان، والإضافة والتمحيص والتعليق، ولكن هذا لم يحدث.

ثامناً: هناك دراسات أفادت من التصريف، وانطلقت منه، ودرست الآيات التي تم تصريف القول فيها، قديماً وحديثاً، سواء كان ذلك على مستوى الآيات أو الموضوعات، وهذه المؤلفات مع أهميتها وجليل نفعها، إلا أن فيها شيئا من النقص والقصور؛ وذلك أنها تنطلق في دراستها من الآية والآيتين اللتين وقع فيهما التشابه دون الالتفات إلى

سياق كل آية، واختلاف مقام كل آية عن الأخرى، ودون الإشارة إلى موضوع كل آية، ودون ضم النظير إلى نظيره، للوقوف على المعاني التي تم تصريفها، والتنوع في بيانها، والتفنن في ذكرها في تناول هذا الموضوع المتحدث عنه.

تاسعاً: أن مصطلح التصريف أبلغ وأفضل وأولى -- في نظري -- من مصطلح "التشابه اللفظي" في القرآن الكريم، ومع ما تضمنته هذا النوع من الدراسات من الفائدة والجدة، إلا أنها ضيقت دائرة الدراسة، وحصرت التشابه وأوجه الاختلاف في الألفاظ، مع أن تغير الألفاظ وتشابها بناء على تغير المقامات، واختلافها، وارتباط كل لفظة بالغرض الذي جاءت لتحقيقه، وبالمعنى الذي جاءت الآية لبيانه وإيضاحه، وإلا فإن دائرة الدراسة أوسع وأشمل، وما الألفاظ إلا جزء من هذا التصريف، فضلاً أن التصريف لفظة قرآنية، تكررت في مواضع متعددة من القرآن الكريم، كما أنه منهج قرآني كذلك، اتخذه القرآن وسيلة في بيان معانيه وذكرها، وبسط القول فيها، وتنوع في عرضها.

عاشراً: أن جميع آيات التصريف نازلة في العهد المكي، ولذا أخذت هذه الآيات خصائص العهد المكي الموضوعية والأسلوبية، وقد تمت الإشارة إلى دلالة هذا الأمر، وذكر شيء من حكمه وغاياته، وتبعاً لذلك جاءت آيات تصريف المعاني في القرآن الكريم محملة بكثير من الخصائص الأسلوبية للآيات المكية، وقد تم بسط هذه القضية في ثنايا هذا البحث، في بيان ما تميزت به هذه الآيات في أسلوبها، وما انطوت عليه من أسرار بلاغية، ونكت بيانية.

الحادي عشر: جاءت آيات تصريف الآيات في القرآن الكريم على قدر كبير من البلاغة والجزالة في القول، وقد تم توظيف ذلك كله في الدلالة على أهمية هذا التصريف، وعلو قدره وشأنه في البلاغة والإعجاز.

* * *



ثبت المصادر والمراجع

١. ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي. بيروت.

٢. أساس البلاغة. لجار الله الزمخشري، دار ومطابع الشعب، القاهرة: ١٩٦٠م .

٣. إعجاز القرآن. لأبي بكر الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف. القاهرة. ط: السادسة.

٤. الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره. د. عبدالغني محمد سعد بركة، مكتبة وهبة، القاهرة: ط: الأولى: ١٤٠٩هـ .

٥. البحر المحيط. لأبي حيان الأندلسي. دارسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود. والشيخ على محمد معوض. ود. زكريا عبدالمجيد النوني، ود. أحمد النحولي. دار الكتب العلمية. بيروت. ط: الأولى: ١٤١٣هـ .

٦. بديع القرآن. لابن أبي الإصبع المصري. تحقيق حفني محمد شرف. نهضة مصر للطباعة والنشر.

٧. البرهان في علوم القرآن. للإمام بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم. مكتبة دار التراث.

٨. البرهان في متشابه القرآن. لمحمود بن حمزة الكرماني، قدم له وراجعه على أصوله: أحمد عز الدين الخلف. دار الوفاء. المنصورة. ط: الأولى: ١٤١١هـ .

٩. البلاغة القرانية في تفسير الزمخشري. د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة: ط: الثانية. ١٤٠٨هـ .

١٠. بيان اعجاز القران. لأبي سليمان الخطابي، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، ود. محمد زغلول، دار المعارف. القاهرة. ط: الرابعة، طبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القران.

١١. التبيان في إعراب القران، لابي البقاء العكبري، تحقيق: ابراهيم عطوه عوض. دار الحديث القاهرة.

١٢. التحرير والتنوير. للشيخ محمد بن طاهر بن عاشور.

١٣. تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن . لابن أبي الإصبع، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف. الجمهورية العربية المتحدة. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. لجنة إحياء التراث الإسلامي.

١٤. تفسير القرآن العظيم. للحافظ عماد الدين ابن كثير. قدم له عبدالقادر الأرناؤوط. دار السلام. الرياض. ط: الأولى: ١٤١٣هـ .

١٥. التفسير البسيط. لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي. تحقيق مجموعة من الباحثين. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. عمادة البحث العلمي. سلسلة الرسائل الجامعية.

١٦ـ التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب. للإمام الفخر الرازي. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط: الأولى: ١٤١١هـ.

١٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تقديم: محمد النجار. تصحيح: محمد البسام. دار المدني. جدة. ١٤٠٨هـ .

١٨. جامع البيان عن تأويل أي القرآن. لابن جرير الطبري. تحقيق الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي. هجر للطباعة والنشر. ط: الأولى: ١٤٢٢هـ .

١٩. حاشية زادة على تفسير البيضاوي. لمحيي الدين شيخ زادة. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

٢٠. خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية. د. عبدالعظيم إبراهيم المطعني. مكتبة وهبة. القاهرة. ط: الأولى: ١٤١٣هـ .

٢١خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام. للدكتور الشحات محمد أبوستيت. مطبعة الأمانة. القاهرة. ط: الأولى: ١٤١٢هـ .

٢٢. دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن. للدكتور المحمدي عبدالعزيز الحناوي . دار الطباعة المحمدية. ط: الأولى: ١٤٠٤هـ

٢٣. درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز. للخطيب الإسكافي. دار الكتب العلمية. بيروت. ط: الأولى: ١٤١٦هـ .

٢٤. ديوان امرئ القيس. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. القاهرة. ط: الخامسة.

٢٥. الرسالة الشافية. لعبدالقاهر الجرجاني. تحقيق: محمد خلف الله أحمد. ود. محمد زغلول سلام. دار المعارف. القاهرة. ط: الرابعة. طبع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

٢٦ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود الألوسي البغدادي، ضبطه وصححه على عبدالباري عظيمة، دار الكتب العلمية، بيروت. ط: الثانية، ١٤٠٦هـ .

٢٧. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للعلوي. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢هـ .

٢٨. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ .

٢٩. في إعجاز القرآن الكريم: محمد بركات حمدي، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، ط: الأولى: ١٤٠٣هـ

٣٠. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ط: الثانية عشرة: ١٤٠٦هـ .

٣١. القاموس المحيط، للفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الثانية: ١٤٠٧هـ .

٣٢ـ الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده، ١٣٩٢هـ .

٣٣ـ لسان العرب، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثالثة: ١٤١٣هـ .

٣٤ـ متشابه النظم القرآني في قصة آدم عليه السلام، للدكتور عبدالجواد محمد طبق، دار الأرقم للطباعة والنشر، القاهرة، ط: الأولى: ١٤١٣هـ

٣٥ـ محاسن التأويل، لجمال الدين القاسمي، علق عليه وخرج آياته وأحاديثه محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العلمية.

٣٦. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالسلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى: ١٤١٣هـ .

٣٧. معالم التنزيل، للبغوي، إعداد وتحقيق: خالد عبدالرحمن العك، ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، ط: الثانية: ١٤٠٧هـ .

٣٨. معاني القرآن واعرابه، لأبي إسحاق الزجاج، تحقيق: د. عبدالجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة، ط: الأولى: ١٤١٤هـ .

٣٩. معجم البلاغة العربية، للدكتور بدوي طبانة، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، ط: الثالثة: ١٤٠٨هـ

٤٠. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان، ط: الثانية، ١٩٩٦م

٤١- معجم مقاييس اللغة. لابي الحسن بن فارس. تحقيق: عبدالسلام هارون. دار الجيل. بيروت. ط: الأولى: ١٤١١هـ.

٤٢. مفردات ألفاظ القرآن. للعلامة الراغب الأصفهاني. تحقيق: صفوان عدنان داودي. دار القلم. دمشق. ط: الثانية: ١٤١٨هـ.

٤٣. المكي والمدني في القرآن الكريم. للأستاذ الدكتور محمد الشايع. ط: الأولى: ١٤١٨هـ.

٤٤- مناهل العرفان في علوم القرآن. للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني. دار الكتب العلمية. بيروت: ١٤٠٦هـ.

٤٥. من آسرار تنوع النظم القرآني في قصة زكريا عليه السلام. للدكتور أحمد السيد طلحة. ط: الأولى: ١٤٢٤هـ

٤٦. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه للفظ من آي التنزيل. لأحمد بن الزبير الغرناطي. تحقيق: د. محمود كامل أحمد. دار النهضة العربية. بيروت: ١٤٠٥هـ

٤٧- النكت في إعجاز القرآن. لأبي الحسن الرماني. دار المعارف. القاهرة. ط: الرابعة. طبع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

٤٨. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. لبرهان الدين البقاعي. دار الكتاب الإسلامي. القاهرة. ط: الثانية: ١٤١٣هـ.

* * *

البلاغة النبوية في ضوء تعدد الروايات الحديثية
دراسة منهجية

د. يوسف بن عبدالله العليوي
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي – كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



البلاغة النبوية في ضوء تعدد الروايات الحديثية (دراسة منهجية)

د. يوسف بن عبدالله العليوي
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي -- كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

تعدد الروايات في الحديث النبوي من القضايا المشكلة في دراسة البلاغة النبوية؛ لأن الباحث يقع بين أن تكون الرواية لفظ النبي ﷺ أو لفظ غيره من الرواة، مما يجعل نسبة البلاغة إلى النبي ﷺ محل نظر. ومجال ذلك في الأحاديث التي اختلفت رواياتها ورواها صحابي واحد، أو تعدد رواتها واتحدت فيها القصة.

ولذا كان من الأهمية البحث عن منهجية بلاغية في دراسة الخطاب النبوي، تعالج إشكالية تعدد الروايات، ويمكن من خلالها الوقوف على خصائص البلاغة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

فكان هذا البحث، الذي جاء في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، تناولت في التمهيد اختلاف الروايات عند المحدثين: أنواعه، وأسبابه، والترجيح بينها، وفي المبحث الأول تنوع الأساليب البلاغية في الروايات المتعددة، وفي المبحث الثاني المنهج البلاغي في تحليل الحديث النبوي الذي اختلفت رواياته، وفي المبحث الثالث أنموذجًا للدراسة، ثم الخاتمة. ويقترح البحث عددًا من الآليات المنهجية لدراسة البلاغة النبوية في ضوء تعدد الروايات، هي:

أولاً: الجمع بين الروايات الصحيحة.

ثانيًا: دراسة اللفظ المتفق عليه وترك المختلف فيه.

ثالثًا: دراسة الظواهر البلاغية المتفق عليها بين الروايات.

رابعًا: دراسة سياق الحديث.

خامسًا: موافقة الرواية للبلاغة النبوية.

وما هذه الدراسة إلا لبنة من لبنات البحث عن منهج ملائم لدراسة البلاغة النبوية، يراعي قدسية الحديث النبوي، وخصوصيته عن غيره، ويأخذ في الاعتبار تعدد رواياته.

والله ولي التوفيق، والحمد لله رب العالمين.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن خير الكلام بعد كلام الله ﷻ كلام رسوله ﷺ، وأفصح حديث وأبلغه بعد كتابه حديث رسوله ﷺ.

ولقد بلغ من الفصاحة شأوًا بعيدًا ومن البلاغة شأنًا عظيمًا، حتى كادت أن تكون إعجازًا، قال يونس بن حبيب (١٨٢هـ): ((ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله ﷺ))[١]. وقال ابن دحية (٦٣٣هـ) في خصائص فمه ﷺ: ((أعظمها الفصاحة، التي فاق بها جميع العرب، وأتى بنظام غير نظام الشعراء والمترسلين وذوي الخطب))[٢].

وكان لبعض العلماء الذين درسوا سيرته وشمائله وخصائصه عناية بوصف بلاغته ﷺ، تجد ذلك مثلاً عند القاضي عياض في الشفا في حقوق المصطفى، كما كان لبعض شراح حديثه عناية بتتبع بلاغته وبيان الأساليب البلاغية التي حواها بيانه، ومن هؤلاء الطيبي في الكاشف عن حقائق السنن، وابن حجر في فتح الباري بشرح صحيح البخاري، والعيني في عمدة القاري شرح صحيح البخاري، كما أن جملة من البلاغيين استشهدوا بأحاديثه ﷺ على أساليب البلاغة التي تناولوها، وممن أكثر من ذلك ابن أبي الإصبع في تحرير التحبير، والطيبي في التبيان، وابن الأثير في المثل السائر، والعلوي في الطراز، والسيوطي في شرح عقود الجمان.

وليس من السهولة أن يدرس المرء حديث رسول الله ﷺ دراسة بلاغية، فهو يتعامل مع وحي من الله ﷻ، ويعبر عن مراد رسول الله ﷺ، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالحديث إذا تعددت رواياته، واختلفت ألفاظه، فإن هذا مما يدعو البلاغي إلى التأني في بيان البلاغة النبوية وذكر خصائصها في خطاب النبي ﷺ.

---

(١) البيان والتبيين: ٢/ ١٨.

(٢) الآيات البينات في ذكر ما في أعضاء رسول الله ﷺ من المعجزات، لابن دحية: ٢٥٨.

فتعدد الروايات من القضايا المشكلة في دراسة البلاغة النبوية، لأن الباحث يقع بين أن تكون الرواية لفظ النبي ﷺ أو لفظ غيره من الرواة، مما يجعل نسبة البلاغة إلى النبي ﷺ محل نظر.

ولذا كان من الأهمية البحث عن منهجية بلاغية في دراسة الخطاب النبوي، تعالج إشكالية تعدد الروايات. ويمكن من خلالها الوقوف على خصائص البلاغة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. وهذا ما يسعى إليه هذا البحث، راجيًا من الله التوفيق والسداد.

وقد وقفت على كتابين تناولا هذه القضية، الأول: الرواية بالمعنى في الحديث النبوي، وأثرها في الفقه الإسلامي، للدكتور عبدالمجيد بيرم[1]. والثاني: مقدمة في نظرية البلاغة النبوية: السياق وتوجيه دلالة النص، للدكتور عيد بلبع[2].

أما الأول فالكتاب مختص بدراسة أثر الروايات في الفقه الإسلامي. لكن المؤلف تناول في الفصل الأول: حكم الرواية بالمعنى في الأحاديث النبوية، وتساءل في آخره عن أثر الرواية بالمعنى على الأسلوب النبوي وبلاغته[3]. ولم يحدد المؤلف منهجية لدراسة البلاغة النبوية في ظل تعدد الروايات، لكنه مثل بحديثين دلل من خلال تحليل رواياتهما على أن الرواية بالمعنى لا تؤثر على الخصائص الأسلوبية للبيان النبوي. وهذه آلية منهجية جيدة في دراسة الحديث النبوي متعدد الروايات، إذا كانت الروايات تتفق على أساليب بلاغية وإن اختلفت ألفاظها، لكنها لا تعالج أحاديث أخرى تكون مختلفة الروايات في الألفاظ والأساليب.

وأما الكتاب الثاني فقد محضه مؤلفه للبلاغة النبوية، بحثًا عن نظرية بلاغية في دراسة الحديث الشريف.

---

(١) نشرت الطبعة الأولى من الكتاب مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة عام ١٤٢٤هـ.

(٢) نشرت الطبعة الأولى من الكتاب بلنسية للنشر والتوزيع بشبين الكوم، في مصر، عام ١٤٢٩هـ.

(٣) ينظر: الرواية بالمعنى في الحديث النبوي، لبيرم: ١٠٤.

وكان مما تناوله في إطار التنظير للبلاغة النبوية، شبهة الرواية بالمعنى[١]، وقدم لدحض الشبهة إجراءً منهجيًا في إطار البحث الأسلوبي، تتمثل في "المقارنة الأسلوبية" لرصد ثبات الظواهر الأسلوبية بين الروايات، منطلقًا في ذلك من أن التغير بين الروايات هو في الألفاظ لا في الأساليب، ولذا تقوم هذه المقارنة على تحييد اللفظ والاهتمام بالنظم المرادف عنده للأسلوب.

وهذا الإجراء الأسلوبي يتفق مع ما توصل إليه الدكتور عبدالمجيد بيرم. لكن الدكتور بلبع لا يرى قيمة بلاغية في دراسة الألفاظ، مما جعله يرى أن القول بالرواية بالمعنى من المغالطات المعرفية الصارخة، والاختلاف في الألفاظ اختلاف جزئي لا يعني بحال من الأحوال إثبات الرواية بالمعنى[٢]. وهذا القول فيه نظر، ينبني عليه تحرير مفهوم "النظم" بين الأسلوبية التي ينطلق منها الدكتور عيد، وبين البلاغة العربية، وليس هذا مقامه، لكني أشير إلى أن مفهوم النظم -منذ أن تناوله العلماء في كتب الإعجاز كالخطابي والرماني والباقلاني إلى أن عمّق البحث فيه عبدالقاهر الجرجاني- لا يحيّد اللفظ، ويراه جزءًا منه، بل قال الخطابي (٣٨٦هـ): ((اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون منه سقوط البلاغة، ذلك أن في الكلام ألفاظًا متقاربة في المعاني، يحسب أكثر الناس أنها مترادفة متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب، كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح... والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها، وإن كانا يشتركان في بعضها))[٣]، وعقد عبدالقاهر

---

(١) ينظر: السياق وتوجيه دلالة النص، لبلبع: ٧٥.

(٢) ينظر: السياق وتوجيه دلالة النص، لبلبع: ٩٦، ١٠١.

(٣) بيان إعجاز القرآن، للخطابي: ٢٩.

الجرجاني فصلاً في "تحقيق القول على البلاغة، والفصاحة، والبيان، والبراعة" ثم قال: ((لا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، وتختار له اللفظ الذي هو أخص به، وأكشف عنه، وأتم له، وأحرى بأن يكسبه نبلاً، ويظهر فيه مزية))[1].

وإذا كان الكلام في حديث النبي ﷺ فهو من وحي الله ﷻ، وتحييد اللفظ من الدراسة البلاغية يسقط جانبًا مهمًا من البلاغة النبوية، وألفاظ الحديث النبوي لها دلالاتها المؤثرة في الأحكام الشرعية، ولذا يختلف العلماء في المسألة بناء على اختلاف لفظ الرواية[2]. ولئن كانت دراسة البلاغة النبوية من جهة الألفاظ يشكل عليها تعدد الروايات إذا اختلفت ألفاظها، فإن هذا البحث يسعى إلى تقديم آلية لمعالجة هذه الإشكالية.

ومما أنبه إليه في دراسة الدكتور عيد أنه خلط بين الاختلاف في روايات الحديث الواحد الذي اختلفت ألفاظه مع اتحاد مخرجه، أو اتحاد قصته، وبين الاختلاف في الأحاديث التي اختلفت ألفاظها مع اختلاف مخرجها[3]. والإشكال إنما هو في الأول لا في الثاني.

ومع ما يلحظ على كتاب الدكتور عيد مما ذُكر وغيره مما لا مجال للحديث عنه هنا إلا أنه قدم رؤية عميقة في نظرية البلاغة النبوية تستحق النظر والمناقشة، وتفتح بابًا للبحث فيها.

وما هذه الدراسة إلا لبنة من لبنات البحث في منهجية الدراسة البلاغية للحديث النبوي، تستكمل ما بدأه المتقدمون وتفيد مما جاء به المتأخرون.

ومجالها إنما هو في الأحاديث التي اختلفت رواياتها ورواها صحابي واحد، أو تعدد رواتها واتحدت فيها القصة.

---

(١) دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٤٣.

(٢) ينظر امثلة على ذلك في كتاب الرواية بالمعنى في الحديث النبوي، لبيرم: ١٣٩–١٨٩.

(٣) ينظر على سبيل المثال: السياق وتوجيه دلالة النص، لبلبع: ١١٢، ٣١١.

وقد جاءت في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

تناولت في التمهيد اختلاف الروايات عند المحدثين: أنواعه، وأسبابه، والترجيح بينها. وفي المبحث الأول تنوع الأساليب البلاغية في الروايات المتعددة. وفي المبحث الثاني المنهج البلاغي في تحليل الحديث النبوي الذي اختلفت رواياته. وفي المبحث الثالث أنموذجًا للدراسة. ثم الخاتمة.

وإني لأشكر كل من أفادني في هذا البحث، وأخص بالشكر المشايخ الفضلاء الذين قرؤوا مسودة البحث دون المقدمة والمبحث الثالث، وأتحفوني بآرائهم وملحوظاتهم التي كان لها أثر في تقويم البحث، وهم: الشيخ الدكتور عبدالمحسن العسكر، عضو هيئة التدريس بقسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، والشيخ عبدالعزيز الطريفي، الباحث الشرعي بوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، والشيخ الدكتور بكر البخاري، عضو هيئة التدريس بقسم السنة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فجزاهم الله عني خير الجزاء.

وإني لأسأل الله أن يسددني لصادق القول وصوابه، بمنّه ورحمته، وهو خير معين.

* * *

تمهيد

اختلاف الروايات عند المحدثين: أنواعه، أسبابه، الترجيح بينها.

يعد اختلاف روايات الحديث النبوي من الظواهر الحديثية المهمة التي وقف عندها المحدِّثون والفقهاء، وكانت لها آثار في الحركة العلمية، وخصوصًا في علوم الحديث ومنها: علم العلل، وعلم الجرح والتعديل، والمصطلح، وفي الفقه وأصوله؛ لما في اختلاف الروايات من أهمية بالغة وفوائد عظيمة في الصناعة الحديثية والاجتهادات الفقهية[1].

وهذا الاختلاف أمر واقع بغض النظر عن القول بجواز الرواية بالمعنى أو منعها؛ لكونها من أهم الأسباب التي أدت إلى اختلاف الروايات. وقد أقر بهذا الواقع الصحابة والتابعون ﷺ، ويروى عنهم في هذا أقوال[2].

- **أنواع اختلاف الروايات.**

ويرد الاختلاف بين روايات الحديث النبوي على أنواع:

الأول: اختلاف مع تعدد الواقعة وتكرر القول في مواقف مختلفة.

وقد يكون التعدد متحققًا، وقد يكون محتملًا، إذا لم يتحد مخرج الحديث، فيتعدد الرواة من الصحابة، مع عدم اتفاقهم على ذكر سبب الحديث.

ومن أمثلة هذا النوع ما رواه أبو مسعود الأنصاري ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان، مما يطيل بنا، فما رأيت النبي ﷺ غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ، فقال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيُوجِزْ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِ الْكَبِيرَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ"[3].

---

(1) ينظر في أثر الروايات وأهميتها حديثيًا وفقهيًا: منهج النقد في علوم الحديث، لنور الدين عتر: ٤٢٣، والرواية بالمعنى في الحديث النبوي وأثرها في الفقه الإسلامي، لعبدالمجيد بيرم: ١٣٩، وأثر اختلاف المتون والأسانيد في اختلاف الفقهاء، لماهر الفحل.

(2) ينظر في هذه الأقوال: المحدث الفاصل، للرامهرمزي: ٣٢٢د، والكفاية في معرفة أصول علم الرواية، للخطيب البغدادي: ٧/٢، ومناهج المحدثين في رواية الحديث بالمعنى، للشايجي ونوح: ٢١.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٩٠ و٧٠٢ و٧٠٤ و٧١٥٩)، ومسلم في صحيحه: برقم (٤٦٦) وهذا لفظه.

وجاء معنى الحديث من النبي ﷺ في موقف آخر رواه عثمان ابن أبي العاص الثقفي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: ((أُمَّ قَومَكَ)) قال: قلت: يا رسول الله، إني أجد في نفسي شيئًا. قال: ((ادنه)) فجلّسني بين يديه، ثم وضع كفه في صدري بين ثديي، ثم قال: ((تحول)) فوضعها في ظهري بين كتفي، ثم قال: ((أُمَّ قومك، فمن أمَّ قومًا فليخفف، فإن فيهم الكبير، وإن فيهم المريض، وإن فيهم الضعيف، وإن فيهم ذا الحاجة، وإذا صلى أحدكم وحده فليصل كيف شاء))[1].

وورد الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إِذَا صَلَّى أَحَدُكُم لِلنَّاسِ فَلْيُخَفِّف، فَإِنَّ مِنْهُمُ الضَّعِيفَ وَالسَّقِيمَ وَالْكَبِيرَ، وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلْيُطَوِّلْ مَا شَاءَ))[2].

وهذا اختلاف صادر من النبي ﷺ غالبًا بسبب تكرر الفعل وتعدد المجالس واختلاف المناسبات، قال العلامة الصنعاني: ((وذلك كاختلاف روايات الأذان، منهم من رواه بتربيع التكبير أوله، ومنهم من رواه بعدمه، وكذلك الترجيع في الشهادتين، وكذلك التثويب، وكذلك اختلفوا في ألفاظ التوحيد، وفي ألفاظ التشهد، وغير ذلك مما ثبت في الأحاديث صحيحة أو حسانًا، ومثل هذا كثير، كاختلافهم في كيفية رواية صلاة الخوف، حتى بلغ إلى زيادة على عشر كيفيات... فهذا القسم أمره هيّن وإشكاله سهل، لأنه قد عُلِم أنه صلى الله عليه وآله وسلم في الأفعال المتكررة، مثل أذكار الصلاة التي ذكرنا، كان يعلمهم، فمن روى رواية وصحت أو حسنت طرقها كتشهد ابن عباس مثلاً، وتشهد ابن مسعود، فهما حديثان صحيحان اختلفت ألفاظهما والكل مرفوع، فمثل هذا ومثل ألفاظ الأذان وغير ذلك محمول على تعداد التعليم منه صلى الله عليه وآله وسلم))[3].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (٤٦٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٧٠٣)، ومسلم في صحيحه: برقم (٤٦٧).

(٣) رسالة في اختلاف ألفاظ الحديث النبوي، للصنعاني: ٢٦-٢٨.

الثاني: اختلاف مع تكرير القول في الموقف الواحد.

وهذا النوع كالذي قبله، من حيث إن الاختلاف صادر من النبي ﷺ غالبًا، لأن من هديه ﷺ تكرير القول، كما روى أنس ﷺ أنه ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثًا[1]، وعن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا دعا دعا ثلاثًا[2]. وربما مع تكرار القول يختلف اللفظ، فينقل كل راو عنه لفظًا غير الذي نقله الآخر. وأشار إلى هذا الخطابي في سياق تعليله كثرة الغريب في حديث النبي ﷺ، قال: ((إنه ﷺ بعث مبلغًا ومعلمًا، فهو لا يزال في كل مقام يقومه وموطن يشهده يأمر بمعروف وينهى عن منكر ويشرع في حادثة ويفتي في نازلة، والأسماع إليه مصغية والقلوب لما يرد عليها من قوله واعية، وقد تختلف عنها عباراته، ويتكرر فيها بيانه؛ ليكون أوقع للسامعين، وأقرب إلى فهم من كان منهم أقل فقهًا وأقرب بالإسلام عهدًا، وأولو الحفظ والإتقان من فقهاء الصحابة يرعونها كلها سمعًا، ويستوفونها حفظًا، ويؤدونها على اختلاف جهاتها، فيجتمع لذلك في القضية الواحدة عدّة ألفاظ، تحتها معنى واحد، وذلك كقوله: ((الولد للفراش، وللعاهر الحجر))[3]، وفي رواية أخرى: ((وللعاهر الأثلب))[4]، وقد مر بمسامعي ولم يثبت عندي: وللعاهر الكِثْكِث))[5].

الثالث: اختلاف مع اتحاد الواقعة والقول.

وقد يتحقق اتحاد الواقعة والقول، كحجته ﷺ، وما فيها من أفعال وأقوال كخطبة عرفة.

---

(1) أخرجه البخاري: (94 و95 و6244).

(2) أخرجه مسلم: (1794) عن ابن مسعود ﷺ.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (2053)، ومسلم في صحيحه: برقم (1457) عن عائشة رضي الله عنها، وأخرجاه عن أبي هريرة ﷺ: البخاري: برقم (6818)، ومسلم: برقم (1458).

(4) أخرجه أحمد في مسنده: 11/ 264 و424، عن عبدالله بن عمرو ﷺ، وقال محققوه شعيب الأرناؤوط وأصحابه: ((إسناده حسن، ولبعضه شواهد يصح بها)). والأثلب (بكسر الهمزة واللام، وفتحهما): الحجر. وينظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: 1/ 23.

(5) غريب الحديث، للخطابي: 1/ 68.

وقد يترجح، ومن أهم الضوابط في ذلك اتحاد مخرج الحديث، قال الحافظ ابن حجر: ((إذا كان مخرج الحديث واحداً فالأصل عدم التعدد))[1]، ومثال ذلك حديث ((إنما الأعمال بالنيات)) فقد اختلفت رواياته مع أنه لم يصح عن النبي ﷺ إلا من جهة عمر ﷺ، ولا عن عمر إلا من جهة علقمة بن وقاص الليثي، ولا عن علقمة إلا من جهة محمد بن إبراهيم التيمي، ولا عن التيمي إلا من جهة يحيى بن سعيد الأنصاري، ثم اشتهر عن يحيى[2].

وهذا الاختلاف صادر بسبب الرواة، قال الخطابي: ((قد يتكلم ﷺ في بعض النوازل وبحضرته أخلاط من الناس، قبائلهم شتى، ولغاتهم مختلفة، ومراتبهم في الحفظ والإتقان غير متساوية، وليس كلهم يتيسر لضبط اللفظ وحصره، أو يتعمد لحفظه ووعيه، وإنما يستدرك المراد بالفحوى، ويتعلق منه بالمعنى، ثم يؤديه بلغته، ويعبر عنه بلسان قبيلته، فيجتمع في الحديث الواحد إذا انشعبت طرقه عدة ألفاظ مختلفة، موجبها شيء واحد))[3].

وهذا الاختلاف على نوعين:

١- اختلاف تضاد، إذا وردت الروايات بألفاظ مختلفة متعارضة مع اتحاد الواقعة.

قال العلامة الصنعاني: ((وهذا هو المشكل، وذلك واقع كثيراً، كقضية بيع جمل جابر وشرائه ﷺ له منه، فإنه اختلف لفظه في القيمة، وفي اشتراطه ركوبه إلى المدينة، وكاختلافهم في ركوعات صلاة الكسوف مع أنه لم يصلها إلا مرة واحدة... وكاختلافهم في حجه، وكل منهم روى أنه حج صلى الله عليه وآله وسلم مفرداً، وآخرون رووا أنه تمتع، وآخرون أنه قارن، وهي في واقعة واحدة، وحجة واحدة، ونحو هذه الصور، وهو كثير، فهذا لا بد فيه من النظر في الروايات وطرقها، والصحيح منها، والراجح من المرجوح، وهو شيء عسير إلا على من سهله الله))[4].

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر: ٦٠٥/١١.
(٢) ينظر: البدر المنير، لابن الملقن: ٦٥٨/١-٦٦٠، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر: ١١/١.
(٣) غريب الحديث، للخطابي: ٦٨/١-٦٩.
(٤) رسالة في اختلاف ألفاظ الحديث النبوي، للصنعاني: ٣٣-٣٤.

٢- اختلاف تنوع. إذا وردت الروايات بألفاظ مختلفة من غير تعارض بينها مع اتحاد الواقعة. وهذا كثير، قل أن يسلم منه حديث.

ويأتي هذا الاختلاف على وجوه، منها: الاختلاف في ضبط اللفظة، والتعبير عن المعنى بألفاظ مترادفة، والزيادة والنقصان، وغير ذلك من الاختلافات التي تجد لها شواهد كثيرة في المبحث الأول من هذا البحث.

والاختلاف في حكاية الفعل كالاختلاف في رواية القول.

- **أسباب الاختلاف بين الروايات.**

يرجع الاختلاف بين روايات الحديث الواحد إلى عدة أسباب، من أهمها: الرواية بالمعنى، حينما يؤدي الراوي معنى الحديث بلفظه لا بلفظ النبي ﷺ. ومن الأسباب: اختلاف الرواة في الضبط والحفظ والنسيان، مما ينشأ عنه الزيادة والنقص، والتقديم والتأخير، والوهم والخطأ، ونحو ذلك. ومن الأسباب: اقتصار الراوي في مقام على رواية بعض الحديث، وفي مقام آخر يرويه كله. ومن الأسباب: أن يجمع الراوي بين حديثين في مقام، ويحدث بكل واحد منهما في مقامات آخر. ومن الأسباب: سماع بعض الرواة لبعض الحديث، وسماع غيرهم لجميعه، فيروي كل واحد ما سمع[1].

- **الترجيح بين الروايات.**

ذكر العلماء وجوهًا كثيرة للترجيح بين الأحاديث التي يظهر التعارض بينها، مما يندرج تحت النوع الذي سماه المحدثون: مختلف الحديث، منها ما يتعلق بالرواة والإسناد، ومنها ما يتعلق بالمتن، ومنها ما يتعلق بالزمان، والمكان، ومنها ما يتعلق بأمور خارجية[2]. قال ابن حجر: ((وجوه الترجيح كثيرة لا تنحصر، ولا ضابط لها بالنسبة إلى

---

(١) ينظر: المرجع السابق: ٣٦-٤٢، وأسباب تعدد الروايات في متون الحديث النبوي، للقضاة: ٢٥-٥٨.

(٢) ينظر: الكفاية في معرفة اصول علم الرواية، للخطيب البغدادي: ٢/٦٠٥-٦٥٥، والتقييد والإيضاح، للعراقي: ٢٤٤-٢٥٠، وتدريب الراوي، للسيوطي: ٢/٦٥١-٦٥٩، ومختلف الحديث بين المحدثين والأصوليين، لخياط: ٢٠٧-٢١٠، والرواية بالمعنى في الحديث النبوي، لبيرم: ٨١-٨٤.

جميع الأحاديث، بل كل حديث يقوم به ترجيح خاص. وإنّما ينهض بذلك الممارس الفطن، الذي أكثر من الطرق والروايات. ولهذا لم يحكم المتقدمون في هذا المقام بحكم كلي يشمل القاعدة، بل يختلف نظرهم بحسب ما يقوم عندهم في كل حديث بمفرده))[1].

وجملة من وجوه الترجيح تلك تصح أن تكون وجوهًا للترجيح بين الروايات المختلفة وإن لم تكن متعارضة[2].

* * *

---

(١) النكت على كتاب ابن الصلاح، لابن حجر: ٢/٧١٢.

(٢) للتوسع ينظر كتاب: قرائن الترجيح في المحفوظ والشاذ وفي زيادة الثقة عند الحافظ ابن حجر في كتابه "فتح الباري"، لنادر العمراني.

المبحث الأول: تنوع الأساليب البلاغية في الروايات المتعددة

يهدف هذا المبحث إلى معرفة مدى ثبات الأساليب البلاغية أو تغيرها حينما تتعدد الروايات في الحديث الواحد. وجعلت عينة التطبيق أحاديث كتابي الوحي والإيمان من صحيح البخاري مقارنة بما في صحيح مسلم. وكان اختيار الكتابين على سبيل التمثيل، ولأنهما أول ما بدأ به البخاري صحيحه.

ومن خلال تتبع الأحاديث التي تعددت رواياتها وجدت كثيرًا منها لا تتفق رواياتها على أسلوب بلاغي واحد، بل تتنوع الأساليب البلاغية في الحديث الواحد بتنوع رواياته، وسأذكر جملة من الاختلافات اللفظية والأسلوبية التي تنوعت إليها الروايات، مع ذكر أمثلة لها:

١- اختلاف مادة اللفظة:

وهذا كثير في الأحاديث المتعددة الروايات؛ أن يعبر الراوي عن اللفظة بمرادفتها، مما يدل على الرواية بالمعنى. وقد أجاز الجمهور رواية الحديث بالمعنى إذا كانت بإبدال اللفظ بمرادفه، مع بقاء التركيب على حاله[1]، وقد قال محمد بن سيرين: ((كنت أسمع الحديث من عشرة، المعنى واحد، واللفظ مختلف))[2]. وقال الخطيب البغدادي: ((قال قوم من أهل العلم: الواجب على المحدث أن يروي الحديث على اللفظ، إذا كان معناه غامضًا محتملاً، فأما إذا لم يكن كذلك، بل كان معناه ظاهرًا معلومًا، وللراوي لفظ ينوب مناب لفظ الرسول ﷺ، غير زائد عليه ولا ناقص منه ولا محتمل لأكثر من معنى لفظه ﷺ- جاز للراوي روايته على المعنى، وذلك نحو أن يبدل قوله: قام بنهض، وقال بتكلم، وجلس بقعد، وعرف بعلم، واستطاع بقدر، وأراد بقصد، وأوجب بفرض، وحظر بحرّم، ومثل هذا مما يطول تتبعه، وهذا القول هو الذي نختاره مع شرط آخر وهو أن يكون

---

(١) ينظر: اختصار علوم الحديث، لابن كثير: ١٣٦، والبحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي: ٤/٣٥٦، والرواية بالمعنى في الحديث النبوي: ٥٤، ٧٤.

(٢) ينظر: الكفاية في معرفة أصول علم الرواية، للخطيب البغدادي: ٢/١٥.

سامع لفظ النبي ﷺ عالمًا بموضوع ذلك اللفظ في اللسان، وبأن رسول الله ﷺ مريد به ما هو موضوع له...))[1].

ومن أمثلة هذا الاختلاف بين المترادفات حديث عمر بن الخطاب ﷺ وفيه: "فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا"[2]. وفي رواية أخرى: "يَتَزَوَّجُهَا"[3]. وفي حديث جابر ﷺ عن فترة الوحي: "بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي..."[4]. وفي رواية: "قَاعِدٌ"[5] بدلاً من "جَالِسٌ". و"جُئِثْتُ"[6] و"فَرِقْتُ"[7] بدلاً من "رُعِبْتُ". و"دَثِّرُونِي"[8] بدلاً من "زَمِّلُونِي". وفي حديث عائشة رضي الله عنها: "عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا"[9]. وفي رواية: "فَوَاللَّهِ لا يَسْأَمُ اللَّهُ حَتَّى تَسْأَمُوا"[10].

٢- اختلاف صيغة اللفظة:

ربما جاءت اللفظة بمادتها لكن تختلف صيغتها. والاختلاف في الصيغة يأتي على صور متنوعة، من ذلك:

---

(١) المرجع السابق: ١/٥٧٧.

(٢) اخرجه البخاري في صحيحه: برقم (١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٥٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٤).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٣٢٣٨).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٣٢٣٨)، ومسلم في صحيحه: برقم (١٦١).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٤٩٥٤).

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٤٩٢٢)، ومسلم في صحيحه: برقم (١٦١).

(٩) اخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٤٣، ١١٥١)، ومسلم في صحيحه: برقم (٧٨٥).

(١٠) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (٧٨٥).

- الاختلاف بين صيغ الأسماء المشتقة:

كما رواية البخاري لحديث أنس ﷺ: "آيَةُ الإيمَانِ حُبُّ الأنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأنْصَارِ"[1]. وفي رواية لمسلم: "آيَةُ الْمُنَافِقِ بُغْضُ الأنْصَارِ، وآيَةُ الْمُؤْمِنِ حُبُّ الأنْصَارِ"[2]، فجاء التعبير عن الإيمان والنفاق في الرواية الأولى باختيار صيغة المصدر (الإيمان، النفاق)، وفي الرواية الثانية باختيار صيغة اسم الفاعل (المؤمن، المنافق). ويلاحظ أيضًا بين الروايتين تقديم وتأخير بين الجملتين.

- الاختلاف بين صيغ الأفعال، وفي بنائها للفاعل أو للمفعول:

ومن ذلك حديث أبي سعيد الخدري ﷺ في رؤيا للنبي ﷺ، وفيه: "بَيْنَا أنَا نَائِمٌ، رَأيْتُ النّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ، وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ: مِنهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ، وَمِنهَا مَا دُونَ ذَلِكَ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، وَعَلَيهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ"[3]، وفي رواية أخرى: "رَأَيْتُ النَّاسَ عُرِضُوا عَلَيَّ"[4] بصيغة الفعل الماضي المبني للمفعول (عُرضوا)، وفي الرواية السابقة بالمضارع المبني للمفعول (يُعرضون)، وفي رواية جاء الفعل المضارع (يجره) بصيغة أخرى مضارعًا: "يَجْتَرُّهُ"[5]، وجاء بهذه الصيغة ماضيًا: "اجْتَرَّهُ"[6]، وفي رواية: "وَمَرَّ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ"[7]، وفي هذا التعبير اختلاف في المادة بين (عرض) و(مرّ)، واختلاف في الصيغة بين المبني للمفعول والمبني للفاعل.

ومن الاختلاف في صيغ الأفعال أن يأتي فعل الأمر في بعض الروايات على صيغة وفي روايات أخرى على صيغة أخرى، ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها: "خُذُوا مِن

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (١٧، ٣٧٨٤).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (٧٤).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٢٣)، ومسلم في صحيحه: برقم (٢٣٩٠).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٣٦٩١، ٧٠٠٩).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٧٠٠٩).

(6) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٣٦٩١).

(7) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٧٠٠٨).

العَمَلِ مَا تُطِيقُونَ"[1] بصيغة فعل الأمر. وفي رواية: "عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ"[2]، بصيغة اسم فعل الأمر.

ومن ذلك حديث أبي ذر ﷺ مع عبده، وفيه قال الرسول ﷺ: "مَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدَيهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ"[3]. فجاء الأمر في هذه الرواية بصيغة الفعل المضارع المقرون بلام الأمر، وفي رواية لمسلم جاء الأمر بفعل الأمر: "فَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَأَلْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ"[4].

- الاختلاف بين الإفراد والجمع:

من التنوع الذي جاءت عليه الروايات في صيغ الحديث ما اختلفت فيه بين الإفراد والجمع، ومن ذلك حديث: "إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ"[5] بالجمع (الأعمال، النيات)، وجاءت رواية أخرى بإفرادهما جميعًا: "الْعَمَلُ بِالنِّيَّةِ"[6]. وروايات أخرى بجمع (الأعمال) وإفراد (النيات): "الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ"[7].

ومن ذلك حديث أبي ذر ﷺ مع عبده، وفيه قال الرسول ﷺ: "مَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدَيهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ"[8]. فجاء الأمر في هذه الرواية بضمير المفرد، وجاء النهي بضمير الجمع، وفي رواية أخرى جاء الأمر والنهي بالجمع: "فَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَأَلْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ،

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (٧٨٥).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٤٣، ١١٥١)، ومسلم في صحيحه: برقم (٧٨٥).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٣٠، ٢٥٤٥، ٦٠٥٠)، ومسلم في صحيحه: برقم (١٦٦١).

(4) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (١٦٦١).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (١).

(6) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٥٠٧٠).

(7) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٥٤، ٢٥٢٩، ٣٨٩٨، ٦٦٨٩، ٦٩٥٣)، ومسلم في صحيحه: برقم (١٩٠٧).

(8) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٣٠، ٢٥٤٥)، ومسلم في صحيحه: برقم (١٦٦١).

وَلا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ. فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ"[1]. وفي رواية ثالثة جاء الأمر والنهي بالإفراد: "فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ. وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ. وَلا يُكَلِّفْهُ مِنَ الْعَمَلِ مَا يَغْلِبُهُ. فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ"[2].

– الاختلاف بين التذكير والتأنيث:

ومن التنوع بين الروايات ما اختلفت فيه بين صيغتي التذكير والتأنيث. ومن ذلك حديث ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ..."[3] بتذكير (خمس). وفي رواية أخرى بتأنيثها: "بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسَةٍ"[4].

– الاختلاف بين التعريف والتنكير:

ومن ذلك ورود صيغة (السلام) في كتاب النبي ﷺ إلى هرقل معرفة في رواية واحدة عند البخاري. قال ﷺ: "مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ. إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ. السَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى"[5]. ووردت بالتنكير في الروايات الثلاث الأخرى عند البخاري، ورواية مسلم[6].

ومن ذلك ورود لفظة (الجهاد) معرفة في رواية لحديث أبي هريرة ﷺ قال: سئل النبي ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: "إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ" قيل: ثم ماذا؟ قال: "الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" قيل: ثم ماذا؟ قال: "حَجٌّ مَبْرُورٌ"[7]. وفي رواية أخرى قَالَ "جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"[8].

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (1616).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (6050).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (8)، ومسلم في صحيحه: برقم (16).

(4) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (16).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (6260).

(6) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (7 و2941 و3505). ومسلم في صحيحه: برقم (1773).

(7) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (26)، ومسلم في صحيحه: برقم (83).

(8) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (1519).

٣- الاسمية والفعلية:

من التنوع في الأساليب بين الروايات المختلفة أن تأتي بعضها بالجملة الاسمية والأخرى بالفعلية. ومن ذلك حديث ابن عمر ﷺ: "إنّ الإسلام بني على خمس..."[١] فبني التعبير في هذه الرواية على الاسمية، وفي رواية أخرى بني على الفعلية: "بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ..."[٢].

ومن ذلك حديث أبي مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: "إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا فَهْوَ لَهُ صَدَقَةٌ"[٣]. وفي رواية: "إِذَا أَنْفَقَ الْمُسْلِمُ نَفَقَةً عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً"[٤]، وفي رواية: "إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً"[٥]. فبني التعبير في الروايتين الأوليين على الفعلية، وفي الأخرى على الاسمية. كما أن جملة الحال (يحتسبها) في الرواية الأولى جملة فعلية. وفي الروايتين التاليتين جملة اسمية (وهو يحتسبها).

٤- التقديم والتأخير:

ويأتي التقديم والتأخير على وجوه، منها ما يتعلق بالتركيب النحوي. كتقديم المعمول على عامله، كما في حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ قَالَ: "كُلُّ ذَاكَ، يَأْتِينِي الْمَلَكُ أَحْيَانًا فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ وَيَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (١٦).

(٢) اخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٨). ومسلم في صحيحه: برقم (١٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٥٥).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٥٣٥١).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (١٠٠٢).

أَحْيَانًا رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ"[1]. وجاء تقديم الظرف (أحيانًا) في رواية أخرى للبخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: "أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ..."[2].

ويأتي التقديم والتأخير بين المفردات المتعاطفة. كتقديم (الوالد) على (الولد) في رواية البخاري لحديث أنس ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ"[3]. وقدم (الولد) في رواية أخرى عند مسلم[4].

ويأتي التقديم والتأخير بين ركني الجملة. كما في رواية البخاري لحديث أنس ﷺ: "آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ"[5]. وفي رواية لمسلم: "حُبُّ الأَنْصَارِ آيَةُ الإِيمَانِ، وَبُغْضُهُمْ آيَةُ النِّفَاقِ"[6].

ويأتي التقديم والتأخير بين المتعلقات كما في حديث أبي مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: "إِذَا أَنْفَقَ الْمُسْلِمُ نَفَقَةً عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً"[7]. وفي رواية: "إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً"[8]. فاختلف التقديم والتأخير بين المفعول (نفقة) والجار والمجرور (على أهله).

ويأتي التقديم والتأخير بين الجمل. كما في حديث عمر بن الخطاب ﷺ: "فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ"[9]. جاء في الرواية الأخرى: "فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (3215).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (2). ومسلم في صحيحه: برقم (2333).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (15).

(4) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (44).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (17، 3784).

(6) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (74).

(7) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (5351).

(8) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (1002).

(9) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (54).

يَصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ"[1].

وقد جاء عن بعض السلف الترخيص في التقديم والتأخير إذا لم يخل بالمعنى. قال الحسن البصري: ((لا بأس بتقديم الحديث وتأخيره إذا أصيب المعنى))[2].

٥- الإظهار والإضمار.

قد تأتي رواية بإظهار الاسم وأخرى بإضماره، كما في رواية البخاري لحديث أنس ﷺ: "آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ"[3]. فأظهر لفظ (الأنصار) في قوله: "بُغْضُ الأَنْصَارِ" والأصل الإضمار، فخرج الكلام في هذه الرواية على خلاف مقتضى الظاهر. وفي رواية لمسلم جاء الكلام على مقتضى الظاهر: "حُبُّ الأَنْصَارِ آيَةُ الإِيمَانِ، وَبُغْضُهُمْ آيَةُ النِّفَاقِ"[4].

٦- الإطلاق والتقييد:

حيث يأتي الفعل مطلقًا في رواية ومقيدًا في أخرى، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: "مَهْ، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ"[5]، وفي رواية: "مَهْ، عَلَيْكُمْ مَا تُطِيقُونَ مِنَ الأَعْمَالِ"[6].

وقد يأتي الفعل مقيدًا في رواية بقيد لم يقيد به في رواية أخرى، مع اتفاق الروايتين في قيد آخر، كما في حديث بيعة النساء عن عبادة بن الصامت ﷺ أن النبي ﷺ قال: "بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا... ولا تَعْصُوا في مَعْرُوفٍ"[7]، وفي رواية أخرى قيد العصيان بالنبي ﷺ: "وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ"[8].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٣٨٩٨).

(٢) ينظر: الكفاية في معرفة أصول علم الرواية، للخطيب البغدادي: ١٨/٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (١٧، ٣٧٨٤).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (٧٤).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٤٣)، ومسلم في صحيحه: برقم (٧٨٥).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (١١٥١).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (١٨، ٧٢١٣).

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٣٨٩٢، ٦٨٠١، ٧٤٦٨).

٧- الخبر والإنشاء:

قد تختلف الروايات بين أسلوبي الخبر والإنشاء، ومما جاء على ذلك حديث عبادة بن الصامت ﷺ، وفيه: "أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَن لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا..."[1]، وبني الكلام في هذه الرواية على أسلوب الخبر، وفي رواية ثانية جاء الكلام بأسلوب الأمر: "بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا"[2]، وفي رواية أخرى جاء بأسلوب الاستفهام: "أَتُبَايِعُونِي عَلَى أَن لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا"[3].

ومن ذلك حديث علي ﷺ قال: قال النبي ﷺ: "لا تَكْذِبُوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَلِجْ النَّارَ"[4]، وفي رواية أخرى: "لا تَكْذِبُوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَكْذِبْ عَلَيَّ يَلِجِ النَّارَ"[5]، والاختلاف هنا في جواب الشرط، جاء في الرواية الأولى إنشائيًا بصيغة الأمر، وفي الثانية خبريًا.

٨- التأكيد وتركه:

قد يأتي الكلام مؤكدًا في رواية وغير مؤكد في رواية أخرى، كما في حديث عبدالله بن عمر ﷺ: "بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ..."[6]، وفي رواية أخرى جاءت الجملة مؤكدة بـ(إنّ): "إِنَّ الإِسْلامَ بُنِيَ عَلَى خَمْسٍ"[7]، وكما في حديث أنس ﷺ: "لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ"[8]، جاء في رواية أخرى مؤكدًا بـ(القسم): "والذي نفسي بيده..."[9].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٦٨٠١، ٧٤٦٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (١٨، ٣٨٩٢، ٣٩٩٩، ٦٧٨٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٤٨٩٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (١٠٦).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (١).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٨)، ومسلم في صحيحه: برقم (١٦).

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (١٦).

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (١٣)، ومسلم في صحيحه: برقم (٤٥).

(٩) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (٤٥).

وقد يأتي الكلام مؤكدًا بأكثر من مؤكد في رواية، ويتخلف بعضها في رواية أخرى، كما في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كنا نسلم على النبي ﷺ وهو في الصلاة، فيرد علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه، فلم يرد علينا، وقال: "إِنَّ فِي الصَّلَاةِ شُغْلاً"[1]، وفي رواية: "إِنَّ فِي الصَّلَاةِ لَشُغْلاً"[2]، فجاء التأكيد بـ(اللام) في هذه الرواية، وتخلف في الرواية الأولى. ومن ذلك حديث أبي بكرة ﷺ لما قال النبي ﷺ: "إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسلِمَانِ بِسَيْفَيهِمَا فالقَاتِلُ والمقْتُولُ في النَّارِ" قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ فقال: "إِنَّهُ قَدْ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ" هذه رواية مسلم[3]، وفي رواية عند البخاري: "إِنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ"[4]، فتركت الرواية هذه التأكيد بـ(قد).

٩- الالتفات:

من الأساليب البلاغية التي اختلفت فيها الروايات: الالتفات، ومن ذلك ما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، لا يُخْرِجُهُ إِلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ وَتَصدِيقُ كَلِمَاتِهِ بِأَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، مَعَ مَا نَالَ مِنَ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ"[5]. هذه الرواية جاء الكلام فيها على الأصل في سياق الضمائر كلها على الغيبة، وفي رواية أخرى خرج الكلام فيها على خلاف مقتضى الظاهر، فجاء الكلام بضمير الغيبة، ثم التفت إلى ضمير التكلم: "تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لا يُخْرِجُهُ إلا جِهادًا في سَبِيلِي وإِيمَانًا بِي وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَه الجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ"[6].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (١١٩٩، ٣٨٧٥)، ومسلم في صحيحه: برقم (٥٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (١٢١٦).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (٢٨٨٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٧٠٨٣).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٣١٢٣، ٧٤٥٧، ٧٤٦٣)، ومسلم في صحيحه: برقم (١٨٧٦).

(٦) البخاري (٣٦)، ومسلم في صحيحه: برقم (١٨٧٦) وهذا لفظه.

١٠- التكرار وتركه:

التكرار نوع من الإطناب، يأتي لغرض بلاغي، وقد يكون التكرار للفظة في سياق جملة، وقد يكون للجملة في سياق النص، وقد يكون للنص كله خاصة إذا كان قصيرًا، ويكون بالعطف وبغيره.

وقد تأتي بعض الروايات بالتكرار وبعضها بدونه، ومن ذلك حديث جابر ﷺ عن فترة الوحي: "فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي"[١]، وفي رواية: "زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي" بتكرار الجملة مرتين[٢].

ومن ذلك حديث عبدالله بن عمرو ﷺ قال: تخلف عنا النبي ﷺ في سفر سافرناه، فأدركنا وقد حضرت صلاة العصر، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى: "وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ"[٣]، هذه رواية مسلم، وفي روايات البخاري أنه قال ذلك مرتين أو ثلاثًا[٤].

وفي كتاب النبي ﷺ إلى هرقل جاءت بعض الروايات بقوله ﷺ: "أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ"[٥]، وفي رواية أخرى بتكرار (أسلم): "أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ"[٦].

١١- الحقيقة والمجاز:

ومن التنوع بين الروايات في الأساليب البلاغية أن تأتي رواية على الحقيقة والأخرى على المجاز، ومن ذلك حديث ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال حينما غلبه الوجع قبيل وفاته: "ائْتُونِي بِكَتِفٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لا تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا"[٧]، وفي رواية: "ائْتُونِي بِالْكَتِفِ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٣٢٣٨، ٤٩٢٥، ٤٩٢٦)، ومسلم في صحيحه: برقم (١٦١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (٢٤١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٦٠، ٩٦، ١٦٣).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٧).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٢٩٤١، ٤٥٥٣)، ومسلم في صحيحه: برقم (١٧٧٣).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٣١٦٨).

والدَّوَاةِ. أو: اللَّوْحِ والدَّوَاةِ"[1]. وكلا الروايتين جاء التعبير عن المكتوب فيه على الحقيقة. وفي رواية جاء التعبير عنه بالمجاز: "ائْتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا"[2]. فقوله: "بِكِتَابٍ" أي: بما يكتب فيه. فهو من التعبير عن الشيء باعتبار ما سيؤول إليه، وعده بعض الشراح من مجاز الحذف. أي: بأدوات الكتاب[3]. ورواية المجاز يحصل بها أسلوب الجناس بين (كتاب) و(كتابًا)[4].

١٢- الاختلاف في غالب نظم الحديث:

لا يقف الاختلاف بين روايات الحديث عند إبدال لفظة محل لفظة أو أسلوب محل أسلوب آخر في جملة محدودة، ضمن سياق تتفق الروايات في جملته على نظمه، وعلى أغلب ألفاظه وتراكيبه وأساليبه. بل يتعدى الاختلاف إلى تغيير غالب في نظم الحديث. بل إن بعض الأحاديث يقل في رواياتها الاتفاق في الألفاظ، حتى إنك لتظن أن الروايات ليست لحديث واحد، وإنما كل رواية هي حديث قائم بنفسه. وخاصة إذا كانت الروايات مختلفة إيجازًا وإطنابًا. وهذا النوع من الاختلاف قليل جدًا.

ومن ذلك حديث عمران بن حصين ﷺ في الصحيحين أن رجلاً عضّ ذراع رجل، فجذبه، فسقطت ثنيته، فرفع إلى النبي ﷺ، فأبطله، وقال: "أَرَدْتَ أَنْ تَأْكُلَ لَحْمَهُ" هذه رواية لمسلم[5]، وفي رواية للبخاري: فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقال: "يَعَضُّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ كَمَا يَعَضُّ الْفَحْلُ، لا دِيَةَ لَكَ"[6]. وفي رواية عند مسلم: فسقطت ثنيته أو ثناياه، فاستعدى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: "مَا تَأْمُرُنِي؟ تَأْمُرُنِي أَنْ آمُرَهُ أَنْ يَدَعَ يَدَهُ فِي

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (١٦٣٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (١١٤).

(٣) ينظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر: ٢٠٨/١.

(٤) ينظر: المرجع السابق.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (١٦٧٣).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٦٨٩٢).

فِيكَ، تَقْضَمُهَا، كَمَا يَقْضَمُ الْفَحْلُ، ادْفَعْ يَدَكَ حَتَّى يَعَضَّهَا، ثُمَّ انْتَزِعْهَا"[1]. فالاختلاف ظاهر بين الروايات في نظم الكلام.

ومن ذلك حديث أبي بكرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ"[2]، وفي رواية: "إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فالقَاتِلُ والمقتُولُ في النَّارِ"[3]، وفي رواية: "إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَكِلاهُمَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ"[4]. والاختلاف بين هذه الروايات محدود بين (التقى، تواجه) و(فالقاتل والمقتول، فكلاهما) و(في النار، من أهل النار). لكن الرواية الآتية تختلف عن هذه الروايات كثيرًا في اختيار اللفظ وصياغة التركيب: "إِذَا الْمُسْلِمَانِ حَمَلَ أَحَدُهُما عَلَى أَخِيهِ السِّلاحَ فَهُما عَلَى جُرُفِ جَهَنَّمَ، فإِذَا قَتَلَ أَحَدُهما صَاحِبَه دَخَلاها جَمِيعًا"[5]. لكن هذه الروايات كلها قائمة على أسلوب الشرط، مما يجعل الاختلاف بينها في النظم أقل من حديث عمران بن حصين ﷺ.

ومن ذلك حديث أنس بن مالك ﷺ في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: "ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ"[6]. وهذا لفظ البخاري، وجاءت هذه الرواية وغيرها مبنيًا نظمها على أسلوب التفصيل بعد الإجمال. وفي رواية جاء النظم مبنيًا على القصر: "لا يَجِدُ أَحَدٌ حَلاوَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ، وَحَتَّى أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (١٦٧٣).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٣١، ٦٨٧٥).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (٢٨٨٨).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٧٠٨٣).
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (٢٨٨٨).
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (١٦، ٦٩٤١)، ومسلم في صحيحه: برقم (٤٣).

وَحَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا"[1]. كما نلحظ بين الروايتين اختلافًا في التقديم والتأخير بين الجمل، وفي جملة كراهة العود في الكفر بنيت في الرواية الأولى على التشبيه، وفي الثانية على التفضيل، مع تقديم وتأخير بين طرفي التشبيه والتفضيل.

هذه جملة من الأساليب البلاغية التي تنوعت إليها الروايات المتعددة في أحاديث قليلة من صحيح البخاري، فكيف إذا جمعنا روايات الصحيح كله؟!

وفي دراسة علمية عن (الاتفاق والاختلاف في متون ما أخرجه الشيخان من طريق واحد) توصل الباحث إلى أن عدد الأحاديث التي أخرجها الشيخان بسند واحد عن طريق شيخ واحد ثلاث مئة حديث وحديث واحد، كان عدد الأحاديث التي تطابقت متونها تطابقًا تامًا ثمانية وستين حديثًا، وعدد الأحاديث التي لم تتطابق سبعة وسبعين ومئة حديث، والباقي ست وخمسون حديثًا لا يحكم عليها بالتطابق أو عدمه؛ لعدم ذكر متونها في أحد الصحيحين أو كليهما[2].

وإذا كان الاختلاف بين الروايات أكثر من الاتفاق فيما بينها في الأحاديث التي أخرجها الشيخان بسند واحد عن طريق شيخ واحد، فكيف بما أخرجاه بغير هذه الصورة؟!، ثم كيف بما أخرجه غيرهما؟!

وهذا التنوع في الأساليب له دلالات في الدرس البلاغي:

أولها: تعدد الروايات له أثر إيجابي في البلاغة العربية، إذ يغني هذا التعدد الدرس البلاغي، ويمده بشواهد على أساليب بلاغية من الطبقة العالية من الكلام البليغ، سواء كانت الرواية من تعبير النبي ﷺ أو من تعبير الرواة، وهذا أثر مفيد ووجه حسن لاختلاف الروايات.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٦٠٤١).

(2) الاتفاق والاختلاف في متون ما أخرجه الشيخان من طريق واحد، لحسن محمد عبه جي، مجلة جامعة الملك سعود، م١٦، العلوم التربوية والدراسات الإسلامية (٢): د١٠٢٥.

ثانيها: تعدد الروايات له أثر في بيان بعضها لدلالة بعض. فقد تأتي رواية على أسلوب، ويتبين المعنى البلاغي لهذا الأسلوب من رواية أخرى، ومن أمثلة ذلك حديث عبادة بن الصامت ﷺ السابق ذكره في الاختلاف بين الروايات خبرًا وإنشاءً، ففي رواية جاء الكلام بأسلوب الخبر: "أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا..."، وفي رواية ثانية جاء الكلام بأسلوب الأمر: "بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا"، وفي رواية ثالثة جاء بأسلوب الاستفهام: "أَتُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا". وتدل رواية الأمر على أن الخبر في الرواية الأولى والاستفهام في الرواية الثالثة يراد بهما الطلب.

ثالثها: لا تتفق روايات بعض الأحاديث على أسلوب واحد يقوم عليه نظم الحديث. مما يعني أن الظاهرة الأسلوبية قد تتخلف بين الروايات على مستوى الحديث كله، كما تتخلف بين الروايات على مستوى جزء من الحديث. وأما الاختلاف بين روايات جملة أو أكثر من الحديث في أساليب بلاغية مع بقاء الظاهرة الأسلوبية فهذا كثير، وخاصة في الأحاديث القصيرة.

رابعها: إشكالية نسبة البلاغة إلى النبي ﷺ في الأحاديث متعددة الروايات، التي اختلف فيها نظم الكلام وأساليبه البلاغية، وصار الكلام يتردد بين أن يكون بلاغة النبي ﷺ أو بلاغة الرواة الذين رووه بالمعنى. وهنا يقف الدارس للبلاغة النبوية أمام هذه الروايات متسائلاً: أي هذه الأساليب المختلفة هو الأسلوب الذي تكلم به النبي ﷺ؟ وأي تلك التراكيب المختلفة هو الذي يمكن من خلاله أن نتلمس جماليات التراكيب في البلاغة النبوية؟ وأي تلك الألفاظ المترادفة هو الذي ينبئ عن جماليات اختيار المفردة في البلاغة النبوية؟ هل يمكن أن نتبين الرواية التي تعبر عن البلاغة النبوية؟ وهل سيؤثر تعدد الروايات في معرفة الخصائص البلاغية في الخطاب النبوي؟ وهنا يأتي السؤال المنهجي المهم الذي يجيب على تلك التساؤلات: ما المنهجية البلاغية في تحليل الحديث النبوي الذي اختلفت رواياته؟ وهذا بيت القصيد من هذا البحث، وسأتناوله في المبحث القادم.

* * *



المبحث الثاني: المنهجية البلاغية في تحليل الحديث النبوي الذي اختلفت رواياته

تقدم هذه المنهجية جملة من الإجراءات التي تسعى بمجموعها إلى معالجة إشكالات دراسة البلاغة النبوية في ظل تعدد روايات الحديث، سواء منها ما يتعلق بالأساليب أم بالألفاظ.

وأذكر بأن الدراسة تتناول الحديث الذي رواه صحابي واحد، أو الذي اتحدت فيه القصة ولو تعددت رواته من الصحابة. أما الأحاديث التي اختلفت ألفاظها مع اختلاف مخارجها ولم تتحد فيها القصة فإن كل حديث منها مستقل بذاته، ولا يعد ذلك من اختلاف الروايات وإنما هو من التشابه اللفظي بين الأحاديث، وليست هذه من مجال البحث.

أولاً: الجمع بين الروايات الصحيحة.

من الأهمية حينما يريد الدارس تحليل الحديث النبوي تحليلاً بلاغيًا أن يجمع بين روايات الحديث الصحيحة.

وتقييد الروايات بـ(الصحيحة) أمر ينبغي التنبه إليه، حتى لا يثبت الدارس للنبي ﷺ ما لم يقله، وقد حصل عند البلاغيين التمثيل بالحديث الضعيف، كما عند الشريف الرضي في "المجازات النبوية"، وابن الأثير في "المثل السائر"، وابن أبي الإصبع في "تحرير التحبير"، والعلوي في "الطراز"، ومن أخذ عنهم من غير تمييز وقع في مثل ما وقعوا فيه، على أنه يحمد لهم عنايتهم ببلاغة الحديث النبوي، واستشهادهم به، واستكثار بعضهم له، كما يحمد لبعض المتأخرين من المعاصرين العناية بدراسة البلاغة النبوية من الأحاديث الصحيحة، وفي دواوينها الصحيحة[1].

---

(١) ينظر على سبيل المثال: "شرح أحاديث من صحيح البخاري" للدكتور محمد محمد أبو موسى، و"البلاغة النبوية في أحاديث الترغيب والترهيب في الصحيحين" لعبد الله المسعود، و"أساليب التعبير في الحديث النبوي من خلال صحيح البخاري" لجمال محمد، و"بلاغة التراكيب في القصص النبوي في الصحيحين" لمحمد الطباخ، و"أساليب القصر في الصحيحين" لعامر الثبيتي، و"أثر التشبيه في تصوير المعنى: قراءة في صحيح مسلم" لعبد الباري طه سعيد، و"المحسنات البديعية في الصحيحين" لهكزيمان ناصر.

ولا يلزم من صحة الحديث، أو كونه في الصحيحين، صحة سائر رواياته خارج الصحيحين، فقد تأتي رواية أخرى بزيادة على الرواية الصحيحة، لكن سندها لم يصح، بل قد يصح السند ولا تصح الزيادة، كحديث ابن عمر ﷺ في الصحيحين أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن صلاة الليل؟ فقال رسول الله ﷺ: "صَلَاةُ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى، فَإِذَا خَشِيَ أَحَدُكُمُ الصُّبحَ صَلَّى رَكْعَةً وَاحِدَةً، تُوتِرُ لَهُ مَا قَدْ صَلَّى"[1]. وفي رواية في غير الصحيحين: "صَلَاةُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مَثْنَى مَثْنَى" بزيادة (النهار). قال ابن الملقن في تخريج هذه الرواية: ((هذا الحديث أصله في الصحيحين بدون ذكر (النهار)، ورواه بذكره أحمد في "مسنده"، وأبو داود والنسائي وابن ماجه في "سننهم"، والترمذي في "جامعه"، وابن خزيمة وابن حبان في "صحيحيهما"، بأسانيد صحيحة. قال الترمذي: اختلف أصحاب شعبة في هذا الحديث، فرفعه بعضهم ووقفه بعضهم. قال: والصحيح ما روي عن ابن عمر أنه عليه السلام قال: "صَلَاةُ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى". وروى الثقات عن ابن عمر عن النبي ﷺ فلم يذكروا فيه صلاة النهار. وقال أبو داود: هذه سنة تفرد بها أهل مكة. وقال النسائي: هذا الحديث عندي خطأ، يعني الذي فيه ذكر (النهار). وكذا قال الحاكم في "علوم الحديث": هذا حديث ليس في إسناده إلا ثقة ثبت، وذكر (النهار) فيه وهم. وكذا قال الدارقطني في "علله": إن ذكر (النهار) وهم...))[2]. وأنكر ابن تيمية هذه الزيادة من جهة سياق الحديث، بعد أن أعلها من جهة الرواية، قال: ((معلوم أنه لو قال: صلاة الليل والنهار مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بواحدة، لم يجز ذلك، وإنما يجوز إذا ذكر صلاة الليل منفردة، كما ثبت في الصحيحين، والسائل إنما سأله عن صلاة الليل، والنبي ﷺ وإن كان قد يجيب عن أعم مما سئل عنه، كما في حديث البحر لما قيل له: إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ من ماء البحر؟ فقال: "هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ". لكن يكون الجواب منتظمًا، كما في هذا الحديث، وهناك إذا ذكر (النهار) لم يكن الجواب

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٩٩٠)، ومسلم في صحيحه: برقم (٧٤٩).

(٢) البدر المنير، لابن الملقن: ٣/٢٣٧-٢٣٨.

منتظمًا؛ لأنه ذكر فيه قوله: "فَإِذَا خِفْتَ الصُّبحَ فَأَوتِرْ بِوَاحِدَةٍ" وهذا ثابت في الحديث لا ريب فيه))[1].

ومعرفة الصحيح من غيره يرجع فيها إلى أهل الحديث، وكتبهم في تخريج الأحاديث وتمييز صحيحها من سقيمها كثيرة متنوعة[2].

وتأتي أهمية جمع الروايات لأمور:

١- تكامل النص النبوي.

فثمة اختلاف بين روايات الحديث الواحد من حيث الزيادة والنقصان، وبعض المحدثين ربما اختصر الحديث في موضع من كتابه وأتمه في موضع آخر، وربما قطّع الحديث الواحد في أكثر من موضع، ويصنع مثل هذا أصحاب المدونات التي تصنف الأحاديث على الأبواب والموضوعات، كالصحاح والسنن، أما المدونات التي تصنف

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢١/٢٨٩-٢٩٠، وقد أخرج البيهقي في السنن الكبرى: ٢/٤٨٧ أن البخاري سئل عن هذه الرواية فصححها.

(٢) ينظر على سبيل المثال: في كتب الموضوعات: "الموضوعات من الأحاديث المرفوعات" و"العلل المتناهية في الأحاديث الواهية" كلاهما لابن الجوزي، و"الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة" للشوكاني (ت ١٢٥٠هـ). وفي الأحاديث المشتهرة: "المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة" للسخاوي، و"كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس" للعجلوني (ت ١١٦٢هـ)، وجمع علي حسن الحلبي وآخرون الأحاديث الضعيفة والموضوعة والمشتهرة في موسوعة باسم: "موسوعة الأحاديث والآثار الضعيفة والموضوعة". ومن مؤلفات الحافظ ابن حجر في التخريج: "الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف"، و"التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير"، و"الدراية في تخريج أحاديث الهداية"، و"نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار"، وجمع وليد الحسين وآخرون أحكام الحافظ ابن حجر وتعليقاته على الأحاديث في كتبه المطبوعة في موسوعة باسم: "موسوعة الحافظ ابن حجر الحديثية". ومن مؤلفات العلامة الألباني ما كتبه في تمييز صحيح "السنن الأربعة" من ضعيفها، وكذلك "الأدب المفرد" للبخاري، و"التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان"، و"الترغيب والترهيب" للمنذري، و"الجامع الصغير" للسيوطي، و"سلسلة الأحاديث الصحيحة"، و"سلسلة الأحاديث الضعيفة"، و"إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل"، وتخريج أحاديث "مشكاة المصابيح"، وغيرها كثير. ودواوين الحديث الكبار قد خدمت تحقيقًا وتخريجًا.

الأحاديث على الرواة من الصحابة أو الشيوخ كالمسانيد والمعاجم فإنهم لا يفعلون ذلك، لاهتمامهم بإيراد الحديث بسياقه كما سمعوه، ولهذا يحسن الرجوع إلى هذه المدونات لإيراد السياق الكامل للحديث الصحيح[1].

ومثال ذلك رسالة النبي ﷺ إلى هرقل، رواها أحمد والشيخان بروايات عديدة، لم يكتمل في واحدة منها نص الرسالة، وبالجمع بين الروايات فإن تمام الرسالة هو:

"بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

مِنْ مُحَمَّدٍ [عَبْدِاللهِ] وَرَسُولِهِ.

إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ.

سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، [وَأَسْلِمْ] يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَـ[إِنَّ] عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ، وَيَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ"[2]، وما بين المعقوفتين مزيد على روايات أخرى.

ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: تخلف عنا النبي ﷺ في سفر سافرناه، فأدركنا وقد حضرت صلاة العصر، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى: "وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ" وفي بعض روايات الحديث نادى مرتين أو ثلاثًا، وفي بعضها قال: "وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ، أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ"[3]، وبتكامل النص النبوي يجد الدارس البلاغي أمامه أساليب

---

(١) أفادني بهذا الشيخ عبدالعزيز الطريفي في تعليقه على مسودة البحث، وفي لقائي به عصر يوم الإثنين ٩/٦/١٤٣٣هـ في مسجد حارته بحي الملقا في الرياض.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٢٠١/٤، والبخاري في صحيحه: برقم (٧، ٢٩٤١، ٤٥٥٣، ٦٢٦٠)، ومسلم في صحيحه: برقم (١٧٧٣).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: ٤١٢/١١، ٨٥٥، ٦٧٢، والبخاري في صحيحه: برقم (٦٠، ٩٦)، ومسلم في صحيحه: برقم (٢٤١).

متنوعة لا يجدها في رواية واحدة. ففي هذا الحديث مثلاً سيتناول التكرار لجملة (وَيلٌ لِلأعْقَابِ مِن النَّار)، والفصل والوصل بين جملتي الحديث، وتأكيد الأمر بالإسباغ للتعريض في الجملة السابقة، وملاءمة الأمر بالإسباغ للمقام، والتقديم والتأخير بين المعاني. وهذه أمور بلاغية لن يتناولها في الرواية الأولى لو اقتصر عليها.

فينبغي لدارس البلاغة النبوية أن يضع بين يديه نصًّا متكاملاً، يجمع الروايات الصحيحة للحديث، حتى يكون قابلاً للدراسة من جميع وجوهه.

والجمع بين الروايات في نص واحد بما يسمى: التلفيق بين الروايات، أو: جمع المفترق، يصنعه بعض المحدثين، وهو كثير في صحيح مسلم، ويصنعه البخاري أحيانًا، ورخص فيه جمهور المحدثين، وكثيرًا ما يصنعه أصحاب المغازي والسير[1]. ومن أمثلته ما رواه الشيخان بسندهما عن الزهري في قصة الإفك قال: حدثني عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب، وعلقمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، وكلهم حدثني طائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض، وأثبت له اقتصاصًا، وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة، وبعض حديثهم يصدق بعضًا، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض. قالوا: قالت عائشة.... وذكر القصة[2].

قال ابن كثير: ((إذا روَى الحديث عن شيخين فأكثر، وبين ألفاظهم تباين، فإن ركب السياق من الجميع، كما فعل الزهري في حديث الإفك، حين رواه عن سعيد بن المسيب وعروة وغيرهما عن عائشة، وقال: كُلٌّ حدثني طائفة من الحديث، فدخل حديث بعضهم في بعض، وساقه بتمامه– فهذا سائغ، فإن الأئمة قد تلقوه عنه بالقبول،

---

(1) ينظر: فتح المغيث، للسخاوي: ٣/ ٢٠٨–٢١١، وجمع المفترق من الحديث النبوي، للشمالي: ١٩–٢٨، والاتفاق والاختلاف في متون ما أخرجه الشيخان من طريق واحد، لحسن محمد عبه جي، مجلة جامعة الملك سعود، م١٦، العلوم التربوية والدراسات الإسلامية (٢): ١٠٥٢.

(2) ينظر: صحيح البخاري: برقم (٢٦٣٧، ٢٦٦١)، وصحيح مسلم: برقم (٢٧٧٠).

وخرجوه في كتبهم الصحاح وغيرها. وللراوي أن يبين كل واحدة منها عن الأخرى، ويذكر ما فيها من زيادة ونقصان، وتحديث وإخبار وإنباء. وهذا مما يعنى به مسلم في صحيحه، ويبالغ فيه. وأما البخاري فلا يعرج على ذلك ولا يلتفت إليه، وربما تعاطاه في بعض الأحايين، والله أعلم. وهو نادر))[١]. وزعم العيني عند صنيع الزهري في حديث الإفك أن المسلمين أجمعوا على قبوله منه والاحتجاج به[٢]، وفي حكاية الإجماع نظر؛ فقد نقل القاضي عياض انتقاد بعض العلماء للزهري، قال: ((هو مما قد انتقد قديمًا على الزهري؛ لجمعه الحديث عنهم، وإنما عند كل واحد منهم بعضه. وقيل: كان الأولى أن يذكر حديث كل واحد منهم بجهته. ولا دَرَك على الزهري في شيء منه؛ لأنه قد بين ذلك في حديثه، والكل ثقات أئمة لا مطعن فيهم، فقد علم صحة الحديث، ووثق كل لفظة منه، إذ هي عن أحدها ولا الأربعة الأقطاب عن عائشة))[٣].

وقد تتبع بعض العلماء روايات صحيح البخاري، وصاغوا كل حديث برواياته في نص واحد، كما صنع الألباني في "مختصر صحيح البخاري".

وهو عمل يحتاج في كثير من الأحاديث إلى دقة في معرفة موضع النقص، وترتيب النظم، والصناعة الحديثية، والذوق البلاغي، فيُتنبه. وعلى البلاغي أن يرجع في ذلك إلى عمل المحدثين، وضوابطهم، وأن يستعين بأهل الحديث في تحكيم عمله وتصويبه.

٢- معرفة مقام الخطاب.

قد يرد الخطاب النبوي في رواية دون ذكر لمقامه، خاصة فيما يتعلق بسبب وروده، وتأتي رواية أخرى مبينة له، والدارس لبلاغة النص -أيًا كان النص- يهمه معرفة المقام ليحلل النص في ضوئه، فإن المقام يكشف أسرار اختيار الألفاظ والتراكيب والأساليب، والعدول من لفظ إلى لفظ ومن أسلوب إلى آخر.

---

(١) اختصار علوم الحديث، لابن كثير: ١٤٢.

(٢) ينظر: عمدة القاري، للعيني: ٣٣٢/١٣.

(٣) إكمال المعلم، للقاضي عياض: ٢٨٦/٨.

وقد نبه الشافعي إلى أهمية معرفة السبب في وضوح الدلالة، قال في حديثه عن العلل في الأحاديث: ((فأمّا المختلفة التي لا دلالة على أيها ناسخ ولا أيها منسوخ فكل أمره موتفق صحيح، لا اختلاف فيه ورسول الله عربي اللسان والدار؛ فقد يقول القول عامًّا يريد به العام، وعامًّا يريد به الخاص... ويُسأل عن الشيء فيجيب على قدر المسألة، ويؤدي عنه المخبر عنه الخبر متقصًّى، والخبر مختصرًا، والخبر فيأتي ببعض معناه دون بعض، ويحدث عنه الرجل الحديث قد أدرك جوابه، ولم يدرك المسألة، فيدله على حقيقة الجواب بمعرفته السبب الذي يَخرُج عليه الجواب))[1].

ومعرفة آسباب ورود الحديث لفهم سياق الحديث وتحليل بلاغته كمعرفة أسباب نزول القرآن، قال الشاطبي: ((معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن، والدليل على ذلك أمران:

أحدهما: أن علم المعاني والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن، فضلاً عن معرفة مقاصد كلام العرب، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال: حال الخطاب، من جهة نفس الخطاب، أو المخاطِب، أو المخاطَب، أو الجميع، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، وبحسب غير ذلك، كالاستفهام، لفظه واحد ويدخله معان أخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك، وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها، ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة، وعمدتها مقتضيات الأحوال، وليس كل حال ينقل، ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملة، أو فهم شيء منه، ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط؛ فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بد، ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال، وينشأ عن هذا الوجه:

---

(١) الرسالة، للشافعي: ٢١٣.

الوجه الثاني: وهو أن الجهل بأسباب التنزيل موقع في الشبه والإشكالات. ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف، وذلك مظنة وقوع النزاع))[1]. ثم قال: ((وقد يشارك القرآن في هذا المعنى السنة، إذ كثير من الأحاديث وقعت على أسباب. ولا يحصل فهمها إلا بمعرفة ذلك))[2].

ومن أمثلة ذلك ما أخرجه البخاري بسنده عن عامر بن سعد بن أبي وقاص أن أباه ﷺ أخبره أن رسول الله ﷺ قال: "إِنَّكَ لَنْ تُنفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلا أُجِرتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ"[3]. وهذه الرواية جاءت بلا سبب للقول، لكن وردت روايات أخرى في الصحيحين تبين سببه ومقامه، ومن هذه الروايات ما أخرجه البخاري عن سعد ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع، من وجع اشتد بي، فقلت: إني قد بلغ بي من الوجع، وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: "لا" قلت: بالشطر؟ فقال: "لا" ثم قال: "الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَبِيرٌ -أو: كَثِيرٌ-. إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً. يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلا أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ"[4].

ومن الأمثلة التي لا تتبين بعض وجوه البلاغة في الحديث إلا بمعرفة سبب وروده ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال في ماء البحر: "هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ"[5]، وفي رواية أن النبي ﷺ قال ذلك جوابًا لسؤال رجل سأل النبي ﷺ فقال: يا

---

(١) الموافقات، للشاطبي: ٤/١٤٦.

(٢) المرجع السابق: ٤/١٥٥.

(٣) أخرج هذه الرواية البخاري في صحيحه: برقم (٥٦).

(٤) أخرج هذه الرواية البخاري في صحيحه: برقم (١٢٩٥). والحديث برواياته أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٥٦، ١٢٩٥، ٢٧٤٢، ٢٧٤٤، ٣٩٣٦، ٤٤٠٩، ٥٣٥٤، ٥٦٥٩، ٥٦٦٨، ٦٣٧٣، ٦٧٣٣). ومسلم في صحيحه: برقم (١٦٢٨).

(٥) مسند أحمد: ١٢/١٧١، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيقه المسند: ٧/٧٢.

رسول الله، إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضآنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فأجابه النبي ﷺ. وفي رواية أن السائل ناس صيادون في البحر[1].

والروايات التي بينت سبب ورود الحديث لها أثر في توجيه بلاغته، وعلى سبيل المثال فإنه يتوجه على هذه الروايات السؤال عن سبب عدول النبي ﷺ عن مطابقة الجواب للسؤال، حينما زاد في جوابه بيان حل ميتة البحر، وهو لم يسأل إلا عن طهورية مائه، فأفاد السائل غير ما سأل عنه؛ لأنه مما يحتاج إليه، ويتعلق هذا بالفن البلاغي (الأسلوب الحكيم)[2]. قال العظيم أبادي: ((المفتي إذا سئل عن شيء وعلم أن للسائل حاجة إلى ذكر ما يتصل بمسألته استحب تعليمه إياه؛ لأن الزيادة في الجواب بقوله: "الحِلُّ مَيْتَتُهُ" لتتميم الفائدة وهي زيادة تنفع لأهل الصيد، وكأن السائل منهم[3]. وهذا من محاسن الفتوى))[4].

ومن ذلك حديث عمر بن أبي سلمة ﷺ في الصحيحين، قال: كنت غلامًا في حَجْر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: "يَا غُلامُ، سَمِّ

---

(1) ينظر الحديث برواياته في: مسند أحمد: ٣٤٩/١٤ و٤٨٦ و٤٩/١٥. وسنن أبي داود: كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر، برقم (٨٣). وسنن الترمذي: أبواب الطهارة، باب ما جاء في ماء البحر انه طهور، برقم (٦٩). وسنن النسائي: كتاب الطهارة، باب ماء البحر، برقم (٥٩). وسنن ابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب الوضوء بماء البحر، برقم (٣٨٦، ٣٨٧). وصححه جمع من المحدثين، منهم البخاري، والترمذي، وابن خزيمة، وابن حبان، وابن المنذر، والخطابي، والطحاوي، وابن مندة، والحاكم، وابن حزم، والبيهقي، وعبد الحق الإشبيلي، وابن عبد البر، والنووي، وغيرهم. نقل ذلك عن جمع منهم ابن حجر في تهذيب التهذيب في ترجمة المغيرة بن أبي بردة: ١٣١/٤. والتلخيص الحبير: ٩/١-١٠. وشعيب الارناؤوط وصاحبه في تحقيق المسند بإشراف التركي: ١٧١/١٢.

(2) هو: تلقي المخاطب بغير ما يترقب، أو السائل بغير ما يتطلب. وينظر: مفتاح العلوم: ٣٢٧. وشروح التلخيص: ٤٧٩/١. ومعجم المصطلحات البلاغية: ١٩٩/١.

(3) بل هو منهم كما ورد في الروايات الأخرى، ولعل اللفظة (كان) على التحقيق، وليس (كأن) المهموزة على الظن.

(4) عون المعبود: ١٠٧/١.

اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ" فما زالت تلك طِعمتي بعد[1]. وفي رواية للإمام أحمد عن عمر بن أبي سلمة ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: "سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ"[2]. فلم يذكر سبب الحديث، وكذا رواه الدارمي عن عمر بن أبي سلمة ﷺ أن النبي ﷺ قال له: "سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ"[3]. ومعرفة سبب الحديث كان له أثر في صرف بعض العلماء دلالة الأمر من الوجوب إلى التأديب والندب؛ لكون المأمور صغيراً لم يبلغ بعد[4]. كما أن الرواية التي بينت سبب الورود يرد عليها فن (الأسلوب الحكيم)؛ لأن الخطأ الذي حصل من الصحابي وذكرته الروايات يتعلق بأمره بالأكل مما يليه. لكن النبي ﷺ زاد الأمر بالتسمية، والأكل باليمين. إلا أن ثمة رواية أخرى رواها الإمام أحمد وغيره عن عمر بن أبي سلمة ﷺ قال: دعاني رسول الله ﷺ لطعام يأكله، فقال: "ادْنُ، فَسَمِّ اللَّهَ ﷻ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ"[5]. وهذه الرواية تفيد أن الأوامر جاءت قبل الأكل، أي قبل أن يحصل الخطأ.

فهل يقال: إنهما حديثان يرويان حالين مختلفين، وليسا روايتين لحديث واحد، خاصة أنني لم أجدهما مجتمعين في رواية واحدة؟ كما أن عمر ﷺ كان غلاماً في حجر النبي ﷺ، فلا يبعد تكرر ذلك منه فيتكرر إرشاده، فتختلف الروايات حسب المقامات، لكن مجيئهما من مخرج واحد وتعامل المحدثين معهما على أنهما روايتان لحديث واحد يضعف هذا الاحتمال إن لم يرده.

أو يقال: إن النبي ﷺ أمر عمر ﷺ بهذه التوجيهات الثلاثة حينما دعاه إلى الأكل، ولما وقع منه الخطأ أمره بالأكل مما يليه، لكن عمر جمع هذه التوجيهات في سياق واحد، من غير تفريق بين ما جاء قبل أو بعد؟ وقد يقوي هذا الاحتمال أن الحديث لم يرو

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٥٣٧٦)، ومسلم في صحيحه: برقم (٢٠٢٢).

(٢) مسند أحمد: ٢٦/٢٥٤، وصححه محققه شعيب الأرناؤوط.

(٣) سنن الدارمي: ٢٠٨٥، وقال محققه حسين سليم أسد الداراني: ((إسناده قوي)).

(٤) ينظر: علم أسباب ورود الحديث، لطارق الأسعد: ١٩٠-١٩١.

(٥) مسند أحمد: ٢٦/٢٥٧، وصحح إسنادها محققه شعيب الأرناؤوط.

بالحالين مجتمعين، فكان الهم منصرفًا لسياق الأوامر كلها بغض النظر عن محل كل منها. كما يقويه رواية في الصحيحين عن عمر بن أبي سلمة ﷺ قال: آكلت يومًا مع رسول الله ﷺ طعامًا، فجعلت آكل من نواحي الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: "كُلْ مِمَّا يَلِيكَ"[1]. فهذه الرواية تفيد اقتصار النبي ﷺ على الأمر المتعلق بالخطأ، وأما التسمية والأكل باليمين فكان الأمر بهما حين الدعوة إلى الطعام. ولا يرد على هذا الاحتمال التوجيه بالأسلوب الحكيم. لكن قد يقال: إن راوي الحديث من جهة الصحابي أو غيره اقتصر على بعض لفظ الحديث دون بعض مراعاة لمقام ما. وهذا يفعله بعض المحدثين، كما هو عند البخاري.

أو يقال: إن النبي ﷺ كرر أوامره لعمر ﷺ قبل الأكل، وبعد الخطأ، فيرد التوجيه بالأسلوب الحكيم؟ وهذا متوجه عملاً بظاهر الروايات، والله أعلم.

وللعلماء عناية بأسباب ورود الحديث، وعدوه نوعًا من أنواع علومه[2]، وألفوا فيه، ومن المؤلفات المطبوعة: "اللمع في أسباب ورود الحديث" للسيوطي، و"البيان والتعريف في أسباب الحديث الشريف" لابن حمزة الحسيني. ومن المعاصرين: "علم أسباب ورود الحديث" للدكتور طارق الأسعد.

٣- الحذر من أن يثبت الدارس للنبي ﷺ بلاغة في الحديث تنفيها رواية أخرى صحيحة، أو ينفي عن النبي ﷺ بلاغة أثبتتها رواية أخرى صحيحة.

ووقع مثل ذلك لبعض شراح الحديث، ومن ذلك قول النووي في شرحه لحديث: "مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، لا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ"[3]. قال: ((إنما قال ﷺ: "نَحْوَ وُضُوئِي" ولم يقل: مثل؛ لأن حقيقة مماثلته ﷺ لا يقدر

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٥٣٧٧)، ومسلم في صحيحه: برقم (٢٠٢٢).

(٢) ينظر مثلاً: محاسن الاصطلاح، للبلقيني: ٦٩٨، وتدريب الراوي: ٩٢٨/٢، وينظر: أسباب ورود الحديث، لرأفت سعيد: ٩٤، وعلم أسباب ورود الحديث، لطارق الأسعد: ١٧٥-١٩٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (١٥٩)، ومسلم في صحيحه: برقم (٢٢٦)، عن عثمان بن عفان ﷺ.

عليها غيره))[1]. وتعقبه ابن حجر في شرح صحيح البخاري قائلاً: ((لكن ثبت التعبير بها في رواية المصنف [يعني البخاري] في الرقاق، من طريق معاذ بن عبدالرحمن عن حمران عن عثمان، ولفظه: "مَنْ تَوَضَّأَ مِثْلَ هَذَا الْوُضُوءِ". وله في الصيام من رواية معمر: "مَنْ تَوَضَّأَ وُضُوئِي هَذَا". ولمسلم من طريق زيد بن أسلم عن حمران: "تَوَضَّأَ مِثْلَ وُضُوئِي هَذَا". وعلى هذا فالتعبير بـ(نحو) من تصرف الرواة؛ لأنها تطلق على المثلية مجازًا، ولأن (مثل) وإن كانت تقتضي المساواة ظاهرًا لكنها تطلق على الغالب. فبهذا تلتئم الروايتان. ويكون المتروك بحيث لا يخل بالمقصود. والله تعالى أعلم))[2].

وتناول أحد الباحثين في البلاغة النبوية (دقة استخدام الكلمة في الحديث النبوي الشريف)، وقد أحسن فيما ذكره من أمثلة تبين دقة النبي ﷺ في اختيار الكلمة الملائمة للسياق. ومما تناوله كلمتي (الفاه، والجوف) في حديثين مرفوعين رواهما أنس بن مالك ؓ، هما:

١- "لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنَّ لَهُ وَادِيًا آخَرَ. وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إِلاَّ التُّرَابُ، وَاللَّهُ يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ"[3].

٢- "لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا، وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ. وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ"[4].

وتناول الباحث الفرق بين التعبير بـ(فاه) في الحديث الأول، والتعبير بـ(جوف) في الثاني، ورأى أن من أسرار الاختلاف في التعبير: اختلاف الحديثين في سعة الأودية؛ فالحديث الأول عبر بواديين وهما أقل سعة من الثلاثة. فناسب ذكر الفم وهو أقل سعة من الجوف الذي جاء التعبير به مع الثلاثة[5].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: ٣/١٠٨.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر: ١/٢٦٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٦٤٣٩)، ومسلم في صحيحه: برقم (١٠٤٨).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (١٠٤٨).

(٥) ينظر: البلاغة النبوية بين التنظير والتطبيق، للدكتور غالب الشاويش: ٣٥٢.

وقد فات الباحث أن الحديثين وردا عن أنس ﷺ، روى الأول عنه الزهري، والثاني قتادة، فهل هما روايتان لحديث واحد؟ أو هما حديثان؟

فإذا كانا روايتين لحديث واحد فالاختلاف من تصرف الرواة.

وإن كانا حديثين فيشكل على التحليل وجود رواية أخرى لرواية الزهري تذكر الفم مع الأودية الثلاثة، كما روى أحمد والترمذي بسندهما عن ابن شهاب الزهري قال: حدثني أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: "لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِن ذَهَبٍ لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَالِثٌ، وَلا يَمْلَأُ فَاهُ إِلا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ"[1]. فهل مع هذه الرواية سيبقى توجيه سر التعبير بين الكلمتين؟ إلا أن يكون التفريق الذي ذكره الباحث يرجح رواية الواديين على الثلاثة، خاصة أنها رواية الأكثرين، والله أعلم.

ويدخل في هذه الفائدة تمييز المدرج في متن الحديث، فربما تناول البلاغي المدرج على أنه من لفظ النبي ﷺ، فأثبت له بلاغة، وهو ليس منه، والإدراج في المتن عند المحدثين: أن يقع في متن الحديث لفظ لأحد الرواة، متصل بلفظ النبي ﷺ، وكأنه منه، وليس في ظاهر السياق ما يدل على أنه لفظ الراوي، لكن تدل الروايات الأخرى على أنها من لفظه لا من لفظ النبي ﷺ[2]، وقد يكون الإدراج في أول المتن، أو وسطه، أو آخره، وأكثر ما يقع في آخره كما ذكر ابن حجر[3]، وأسباب الإدراج متنوعة، وذكر السخاوي أن أكثر ما يقع الإدراج بسببه: تفسير لفظ غريب في الحديث[4]، ويعرف المدرج في متن الحديث من وجوه، ذكرها الحافظ ابن حجر:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: (١٣٤٧٦)، والترمذي في سننه: (٢٣٣٧) واللفظ له، وقال: ((حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه))، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي: ٥٤٠/٢.

(٢) ينظر: النكت على كتاب ابن الصلاح، لابن حجر: ٨١١/١، ومقدمة محقق "الفصل للوصل المدرج في النقل" للخطيب البغدادي: ٦٦/١-٦٧.

(٣) ينظر: النكت على كتاب ابن الصلاح، لابن حجر: ٨١٢/١، ومقدمة محقق "الفصل للوصل المدرج في النقل" للخطيب البغدادي: ٦٨/١-٧١.

(٤) ينظر: فتح المغيث، للسخاوي: ٨١/٢، وينظر: مقدمة محقق "الفصل للوصل المدرج في النقل" للخطيب البغدادي: ٧٥/١.

الأول: أن يستحيل إضافته إلى النبي ﷺ.

الثاني: أن يصرح الصحابي بأنه لم يسمعه من النبي ﷺ.

الثالث: أن يصرح بعض الرواة بتفصيل المدرج عن قول النبي ﷺ؛ بأن يضيف الكلام إلى قائله[1]. وذكر السخاوي أن هذا الوجه هو أكثر الوجوه[2].

ومن أمثلة الإدراج حديث أبي هريرة ﷺ في الصحيحين. قال: قال رسول الله ﷺ: "لِلْعَبْدِ الْمَمْلُوكِ الصَّالِحِ أَجْرَانِ" والذي نفسي بيده، لولا الجهاد في سبيل الله والحج وبر أمي لأحببت أن أموت وأنا مملوك[3]. هذه رواية البخاري. وظاهرها أن قوله: ((والذي نفسي بيده. لولا الجهاد في سبيل الله...)) مرفوع إلى النبي ﷺ. ولذا استشكل بعض الشراح قوله: ((وبر أمي)) فإن النبي ﷺ لا أمّ له حينئذ. ووجهه الكرماني بأنه لتعليم الأمة. أو على تقدير فرض حياتها، أو المراد بها أمه من الرضاعة، وهي حليمة السعدية[4]. وفي جملة القسم هذه مباحث بلاغية يتناولها دارس البلاغة النبوية، على أنها من لفظ النبي ﷺ. لكن رواية مسلم بينت أن هذا القول من لفظ أبي هريرة ﷺ. حيث قال: ((والذي نفس أبي هريرة بيده...)). ولذا نص المحدثون على أن هذا القول مدرج. وليس هو من لفظ النبي ﷺ[5]. وقد عد هذا الإدراج مثالاً على ما يستحيل إضافته إلى النبي ﷺ. قال ابن حجر: ((هذا الفصل الذي في آخر الحديث لا يجوز أن يكون من قول النبي ﷺ. إذ يمتنع عليه أن يتمنى أن يصير مملوكًا، وأيضًا فلم يكن له أم يبرها. بل هذا من قول أبي هريرة ﷺ. أُدرج في المتن))[6].

---

(1) ينظر: النكت على كتاب ابن الصلاح. لابن حجر: ١/٨١٢، وفتح المغيث. للسخاوي: ٢/٨٧-٨٨.

(2) ينظر: فتح المغيث. للسخاوي: ٢/٨٨.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٢٥٤٨). ومسلم في صحيحه: برقم (١٦٦٥).

(4) ينظر: صحيح البخاري بشرح الكرماني (الكواكب الدراري): ١١/٩٦. وفتح الباري بشرح صحيح البخاري. لابن حجر: ٥/١٧٦.

(5) ينظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري. لابن حجر: ٥/١٧٦.

(6) النكت على كتاب ابن الصلاح. لابن حجر: ١/٨١٣.

ثانيًا: دراسة اللفظ المتفق عليه وترك المختلف فيه.

وهذا يشمل نوعين:

الأول: دراسة الأحاديث متفقة الروايات على لفظ واحد.

فثمة أحاديث تتفق على لفظ واحد ورواياتها متعددة. وقد يكون اللفظ المتفق عليه مرويًا من طريق أكثر من صحابي. وذكر بعض العلماء أن الخلاف في الرواية بالمعنى لا يجري فيما تعبد بلفظه، كالأذان والإقامة والتشهد وأذكار الصلاة ونحوها[1].

ومن الأمثلة على هذه الأحاديث التي لم يختلف فيها لفظ النبي ﷺ مع تعدد رواياتها في الصحيحين وغيرهما: حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أي الإسلام أفضل؟ قال: "مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ"[2]. وحديث جابر بن عبدالله ﷺ قال: قال النبي ﷺ: "الحَرْبُ خَدعَةٌ"[3].

وهذه الأحاديث وإن كانت غير كثيرة تُعد مصدرًا يُطمأن إليه في دراسة الخصائص البلاغية في الخطاب النبوي، وفي نسبتها إلى البلاغة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم.

على أنه ينبغي التنبه إلى أن هذه الأحاديث قد تتفق رواياتها على لفظ الخطاب النبوي، لكنها تختلف في لفظ المخاطَب. وقد يكون لهذا أثر في دراسة البلاغة النبوية. ومن ذلك حديث أبي موسى الأشعري ﷺ المذكور آنفًا، فإن لفظ السائل جاء على روايتين: الأولى: (أي الإسلام أفضل؟) والثانية: (أي المسلمين أفضل؟)، وقد تناول شراح الحديث إشكالية مطابقة الجواب للسؤال في الرواية الأولى، بخلاف الرواية الثانية فإنها مطابقة، وقد أفادوا من الرواية الثانية في توجيه الرواية الأولى[4].

---

(١) ينظر: الرواية بالمعنى في الحديث النبوي، لعبدالمجيد بيرم: ٤٣، ومناهج المحدثين في رواية الحديث بالمعنى، للشايجي ونوح: ٧٦، ٧٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (١١)، ومسلم في صحيحه: برقم (٤٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٣٠٣٠)، ومسلم في صحيحه: برقم (١٧٣٩).

(٤) ينظر: فتح الباري، لابن حجر: ١/٥٥، وعمدة القاري، للعيني: ١/٢٢٣.

الثاني: دراسة اللفظ المتفق عليه بين الروايات المختلفة.

وهذا النوع كثير في الأحاديث مختلفة الروايات، فإنها تتفق على ألفاظ وتراكيب، وتختلف في أخرى، وبالرجوع إلى ما ذكرته في المبحث الأول من الروايات المختلفة يجد القارئ الأمثلة الكثيرة على هذا النوع، فيتناول الدارس للبلاغة النبوية ما اتفقت الروايات فيه على اللفظ؛ لأنه سيكون حينئذ هو لفظ النبي ﷺ، لا لفظ الرواة، ويكون الدارس بذلك مطمئنًا إلى نسبة البلاغة إلى النبي ﷺ، وأما ما اختلفت فيه الروايات ولم يتحقق من لفظ النبي ﷺ فإن الأسلم أن يدع البحث في بلاغته من جهة نسبتها إلى النبي ﷺ، وقد أشار إلى ذلك ابن حجر عند شرح حديث أبي هريرة ﷺ قال: سئل النبي ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: "إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ" قيل: ثم ماذا؟ قال: "الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" وفي رواية: "جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" قيل: ثم ماذا؟ قال: "حَجٌّ مَبْرُورٌ"[(١)]، فعند شرح الحديث بالرواية التي ذكرت (الجهاد) معرفة أثار الكرماني سؤالاً: ((لم عرّف الجهاد، ونكّر الإيمان والحج؟)) وأجاب بجوابين أحدهما نحوي، والآخر بلاغي، وقال في توجيه التعريف بلاغة: ((أما من جهة المعاني فهو أن الإيمان والحج لا يتكرر وجوبه، بخلاف الجهاد، فإنه قد يتكرر، فالتنوين للإفراد الشخصي، والتعريف للكمال، إذ الجهاد لو أتى به مرة مع الاحتياج إلى التكرار لما كان أفضل))[(٢)]. قال ابن حجر بعد أن أشار إلى رواية التنكير وأورد كلام الكرماني: ((وتُعقب عليه بأن التنكير من جملة وجوهه التعظيم، وهو يعطي الكمال، وبأن التعريف من جملة وجوهه العهد، وهو يعطي الإفراد الشخصي، فلا يسلم الفرق)) ثم قال: ((وقد ظهر من رواية الحارث التي ذكرتها أن التنكير والتعريف فيه من تصرف الرواة؛ لأن مخرجه واحد، فالإطالة في طلب الفرق في مثل هذا غير طائلة، والله الموفق))[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٢٦)، ومسلم في صحيحه: برقم (٨٣).

(٢) الكواكب الدراري، للكرماني: ١٢٧/١.

(٣) فتح الباري، لابن حجر: ٧٨/١.

وقد يقول قائل: إن الروايات وإن اتفقت على لفظ واحد، فإنه محتمل -ما دامت الأحاديث تروى بالمعنى- أن يكون من لفظ الراوي الذي عليه مدار الحديث، لا من لفظ النبي ﷺ. وقد أشار إلى ذلك أبو حيان فقال: ((إن الرواة جوزوا النقل بالمعنى، فتجد قصة واحدة قد جرت في زمانه ﷺ لم تقل بتلك الألفاظ جميعها. فنعلم يقينًا أنه ﷺ لم يلفظ بجميع هذه الألفاظ، بل لا نجزم أنه قال بعضها، إذ يحتمل أنه قال لفظًا مرادفًا لهذه الألفاظ غيرها، فأتت الرواة بالمرادف، ولم تأت بلفظه ﷺ))[1]. وهذا الاحتمال جعل كثيراً من النحويين يزهد في الاحتجاج بالحديث النبوي، ونقل أبو حيان عن بعضهم قوله: ((إنما ترك العلماء ذلك لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول ﷺ، إذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى القرآن في إثبات القواعد الكلية))[2].

وهو احتمال ضعيف؛ فإن الأصل عند المحدثين هو الرواية باللفظ، لا الرواية بالمعنى، وحرص الصحابة ﷺ ومن تبعهم على أداء حديث النبي ﷺ بلفظه أمر معلوم مشهور[3]. فإذا اتفقت الروايات على لفظ واحد فإنه يحصل الجزم بأنه لفظ النبي ﷺ، وأقل أحواله غلبة الظن، وهو كاف في الاحتجاج وتقرير الأحكام. وذكر ابن حجر أن الطريق إلى معرفة الرواية بلفظ النبي ﷺ ((أن تقل مخارج الحديث وتتفق ألفاظه)) قال: ((وإلا فإن مخارج الحديث إذا كثرت قل أن تتفق ألفاظه؛ لتوارد أكثر الرواة على الاقتصار على الرواية بالمعنى))[4]، وقد ناقش مجمع اللغة العربية بالقاهرة مسألة الاحتجاج بالحديث النبوي في اللغة، واتخذ قرارًا ذكر فيه أن من الأحاديث ما لا ينبغي الاختلاف في الاحتجاج

---

(١) التذييل والتكميل في شرح التسهيل، لأبي حيان، عن: عقود الزبرجد في إعراب الحديث النبوي، للسيوطي: ٦٩/١، وينظر: الاقتراح في أصول النحو، للسيوطي: ٩٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ينظر: الكفاية في معرفة أصول علم الرواية، للخطيب البغدادي: ٢٠٣/١د-٩دد.

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر: ٢٤٨/١٣.

به. وذكر منها: الأحاديث التي وردت من طرق متعددة، واتحدت ألفاظها؛ فإن اتحاد الألفاظ مع تعدد الطرق دليل على أن الرواة لم يتصرفوا في ألفاظها[1].

وثمة أحاديث تدل على أن الرواية إنما هو بلفظ النبي ﷺ لا بمعناه، ومن ذلك حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: "إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إِلا إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ" قال: فرددتها على النبي ﷺ، فلما بلغت: اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، قلت: ورسولك، قال: "لا، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ"[2]. وبين أهل العلم أن الألفاظ التي يتعبد بها أو أمر بالتعبد بها، كالأذان وأذكار الصلاة وغيرها، إنما هي مروية باللفظ لا بالمعنى، فيصح الاحتجاج بها، ودراستها على أنها من لفظ النبي ﷺ. قال ابن حجر: ((الأقوال المنصوصة إذا تعبد بلفظها لا يجوز تغييرها ولو وافق المعنى))[3].

وقد قامت دراسات تناقش القول بعدم الاحتجاج بالحديث النبوي في اللغة، وترد عليه، فيرجع إليها لمن أراد الاستزادة[4].

ثالثًا: دراسة الظواهر البلاغية المتفق عليها بين الروايات.

رأينا فيما سبق أن تعدد الروايات لا يمنع من إدراك الخصائص البلاغية للخطاب النبوي، فثمة أحاديث لم تختلف رواياتها، وثمة أحاديث اتفقت رواياتها على كثير من

---

(1) ينظر: القرارات النحوية والتصريفية لمجمع اللغة العربية بالقاهرة: ٦٨٠.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٢٤٧).

(3) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر: ٨/ ٣٠٤.

(4) ينظر: موقف النحويين من الاستشهاد بالحديث النبوي، للدكتور خديجة الحديثي، والحديث النبوي الشريف وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية، للدكتور محمد ضاري حمادي، والحديث النبوي في النحو العربي، والسير الحثيث إلى الاستشهاد بالحديث النبوي في النحو العربي، كلاهما للدكتور محمود فجال.

الألفاظ والتراكيب، ونسبة البلاغة إلى النبي ﷺ في هذه الأحاديث صحيحة. لا يمنع منها تعدد الروايات واختلافها ما دامت متفقة على اللفظ.

وحتى لو تغيرت الألفاظ بين الروايات في بعض الأحاديث فإن ثمة مجال لدراسة الخصائص البلاغية النبوية من خلال رصد الظواهر الأسلوبية التي اتفقت عليها الروايات ((لأن تغير الألفاظ لا يعني بحال من الأحوال تغير الأساليب والظواهر البلاغية))[1]، ولا يمنع تعدد الروايات من نسبة الظاهرة البلاغية إلى النبي ﷺ ما دامت الروايات قد اتفقت عليها.

وقد أشار إلى هذا الدكتور عبدالمجيد بيرم في كتابه "الرواية بالمعنى في الحديث النبوي وآثرها في الفقه الإسلامي". فقد تناول من ضمن ما تناوله في الفصل الأول من كتابه (الشبهات الواردة على الرواية بالمعنى والرد عليها)، وكان مما ذكره ((توهم بعض الكاتبين في تاريخ الأدب العربي أن أسلوب الحديث النبوي طاله التبديل والتغيير بسبب الرواية بالمعنى. وأن كثيراً من الألفاظ والعبارات والتراكيب في الأحاديث هي من عند الرواة الذين تناقلوا المعاني، وعبّر كل منهم بأسلوبه))[2]. وتساءل المؤلف: هل كان للرواية بالمعنى في الحديث آثر على الأسلوب النبوي وبلاغته؟ وفي جواب السؤال والرد على الشبهة قرّر أن رواة الحديث النبوي حافظوا على خصائص الأسلوب النبوي وبلاغته. فلم تؤثر الرواية بالمعنى في طمس معالم الأسلوب النبوي[3]. وذكر ((أن الراوي إذا روى بالمعنى فإنه يحافظ على المعنى الأصلي للحديث وأسلوبه، لأن الرواية بالمعنى إنما أجيزت للعالم بدلالة الألفاظ ومقاصدها العارف بما يحيل المعنى. بحيث لا يزيد على المعنى ولا ينقص. وهذا لا يخل بالأسلوب النبوي))[4].

---

(١) السياق وتوجيه دلالة النص. لعيد بلبع: ٧٥.
(٢) الرواية بالمعنى في الحديث النبوي. لعبدالمجيد بيرم: ١٠٤.
(٣) ينظر: المرجع السابق: ١٠٥.
(٤) المرجع السابق: ١٠٦.

ومن الأمثلة على تعدد ألفاظ الحديث الواحد مع بقاء الظواهر الأسلوبية للحديث النبوي دون تغيير حديث "إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ..."[١].

وهذا الحديث برواياته في الصحيحين وغيرهما يتكون من أربع جمل:

الجملة الأولى: جملة النداء "يَا أَيُّها النَّاس".

ولم تأت في الصحيحين إلا في رواية عند البخاري عن علقمة بن وقاص قال: سمعت عمر بن الخطاب ﷺ يخطب، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "يَا أَيُّها النَّاس، إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ" الحديث[٢]. وهذه الرواية فيها إضافة مهمة إلى النص، فصيغة النداء هذه تومئ إلى أن المقام مقام خطبة، كما ذكر ابن حجر[٣]، وقد يقويه أن عمر ﷺ خطب بالحديث. وفرق في الدراسة البلاغية للنص بين أن يكون في مقام الخطبة أو غيره. وإذا ترجح هذا المقام فإن له أثرًا في اختيار الرواية الملائمة له في الجمل الأخرى.

الجملة الثانية، وجاءت رواياتها كالآتي:

١- "إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ"[٤]، بإثبات أداة الحصر (إنما)، وجمع (الأعمال، النيات).

٢- "الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ"[٥]، بحذف أداة الحصر (إنما)، وجمع (الأعمال، النيات).

٣- "إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ"[٦]، بإثبات أداة الحصر (إنما)، وجمع (الأعمال) وإفراد (النية).

٤- "إِنَّ الأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ"[٧]، بمجيء (إنّ) بدلاً من أداة الحصر (إنما)، وجمع (الأعمال) وإفراد (النية).

٥- "الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ"[٨]، بحذف أداة الحصر (إنما)، وجمع (الأعمال) وإفراد (النية).

---

(١) ينظر: عمدة القاري، للعيني: ١/٤٩-٥٥، والرواية بالمعنى في الحديث النبوي، لعبدالمجيد بيرم: ١٠٨-١١٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٦٩٥٣).

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر: ١/١٠.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (١).

(٥) صحيح ابن حبان: ٢/١١٣، و١١/٢١٠، برقم (٣٨٨، ٤٨٦٨)، وقال محققه شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٦٦٨٩، ٦٩٥٣)، ومسلم في صحيحه: برقم (١٩٠٧).

(٧) منتقى ابن الجارود: برقم (٦٤)، وصحح إسناده محققه أبو إسحاق الحويني في: غوث المكدود: ١/٦٥.

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٥٤، ٢٥٢٩، ٣٨٩٨).

٦- "إِنَّمَا الْعَمَلُ بِالنِّيَّةِ"[١]. بإثبات أداة الحصر (إنما)، وإفراد (العمل) و(النية).

٧- "الْعَمَلُ بِالنِّيَّةِ"[٢]. بحذف أداة الحصر (إنما)، وإفراد (العمل) و(النية).

الجملة الثالثة. وجاءت رواياتها كالآتي:

١- "وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى"[٣]. بإثبات أداة الحصر (إنما)، ولفظة (كل).

٢- "وَإِنَّمَا لامْرِئٍ مَا نَوَى"[٤]. بإثبات أداة الحصر (إنما)، وحذف لفظة (كل).

٣- "وَإِنَّ لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى"[٥]. بمجيء (إنّ) بدلاً من أداة الحصر (إنما)، واثبات لفظة (كل).

٤- "وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى"[٦]. بحذف أداة الحصر (إنما)، وإثبات لفظة (كل).

٥- "وَلامْرِئٍ مَا نَوَى"[٧]. بحذف أداة الحصر (إنما)، وحذف لفظة (كل).

الجملة الرابعة، وجاءت رواياتها كالآتي:

١- "فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ. فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا. فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ". وفي رواية: "يَنْكِحُهَا" بدلاً من "يَتَزَوَّجُهَا"[٨].

٢- "فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ. فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ هَاجَرَ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا. فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ"[٩].

---

(١) مسند أحمد: ٣٩٢/١. برقم (٣٠٠)، وقال محققاه شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيقه المسند: ٢٩٢/١. برقم (٣٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٥٠٧٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٥٠٧٠، ٦٦٨٩، ٦٩٥٣)، ومسلم في صحيحه: برقم (١٩٠٧).

(٥) منتقى ابن الجارود: برقم (٦٤)، وصحح إسناده محققه أبو إسحاق الحويني في: غوث المكدود: ٦٥/١.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٥٤).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٢٥٢٩).

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٥٤، ٢٥٢٩، ٥٠٧٠، ٦٦٨٩)، ومسلم في صحيحه: برقم (١٩٠٧).

(٩) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٦٩٥٣).

٣- "فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أو امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ"[1].

٤- "فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أو إلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ"[2].

٥- "فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ، وَمَنْ هاجَرَ إلى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أو امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ"[3].

وحينما نتأمل في هذه الروايات المتعددة لكل جملة، نجد أنها تختلف في بعض ألفاظها، وأساليبها، لكنها تتفق على ظواهر بلاغية مهما اختلفت الروايات. فالجملة الثانية اتفقت رواياتها على أسلوب القصر، على اختلاف بينها في طريق القصر. ففي بعضها جاء القصر بـ"إنما"، وفي بعضها جاء بتعريف الطرفين. كما اتفقت الروايات على التعبير بمادة "عمل"، مما يصح معه تساؤل بعض الشراح عن نكتة التعبير بهذه المادة دون مادة "فعل"[4]. واتفقت على مجيء المقصور عليه مجروراً بالباء دون غيره. وكذلك الجملة الثالثة تنوع القصر بين "إنما" وتقديم المسند وحقه التأخير. وفي الجملة الرابعة اتفقت الروايات على أسلوب الشرط، مع اختلافها في ألفاظ وأساليب أخر. كما أن جل الروايات اتفقت على أسلوب التفصيل بعد الإجمال.

وقد تعامل مع هذه المنهجية بعض شراح الحديث المتقدمين. قال ابن الملقن في شرح جملة "إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ": ((في الحديث صيغتا حصر، وهما: إنما، والمبتدأ والخبر الواقع بعده. وقد ورد بإسقاط (إنما) في رواية صحيحة.... فكل منهما إذا انفرد يفيد ما أفاده الآخر. واجتماعهما آكد))[5].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٣٨٩٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (١).

(٣) منتقى ابن الجارود: برقم (٦٤). وصحح إسناده محققه أبو إسحاق الحويني في: غوث المكدود: ١/ ٦٥.

(٤) ينظر: إرشاد الساري، للقسطلاني: ١/ ٥٤، والإعلام بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملقن: ١/ ١٧٤.

(٥) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملقن: ١/ ١٧٣.

فالدارس للبلاغة النبوية في هذا الحديث سيقف عند هذه الظواهر المشتركة، التي يطمئن إلى نسبتها إلى البلاغة النبوية. أما الأساليب الأخرى التي وقع فيها اختلاف فلا يطمأن إلى نسبتها إلى البلاغة النبوية، إلا أن يرجح الدارس رواية على غيرها من الروايات بما حصل له من المرجحات.

رابعًا: دراسة سياق الحديث.

ويقصد بالسياق غالبًا البنية الداخلية للنص، ويقوم على نظم الكلام وعلاقة ألفاظه وجمله ببعضها، حيث تقود اللفظة إلى ما يشاكلها، ويدل السابق على اللاحق واللاحق على السابق. وكثيرًا ما يعبر عنه بـ"سياق المقال".

وربما استعمل السياق في البيئة الخارجية للنص، التي تحيط بالخطاب وتؤثر في نظمه وتكشف عن دلالاته، وكثيرًا ما يعبر عنه بـ"سياق الحال، سياق المقام". ويتعلق بحال المتكلم والمخاطَب والزمان والمكان والغرض وسبب نزول الآية أو ورود الحديث، وغير ذلك من السياقات المحيطة بالنص[1].

والبلاغة قائمة على مراعاة هذه السياقات، تحقيقًا للأصل البلاغي: لكل مقام مقال، ولهذا عرفت البلاغة بأنها: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته[2]. وفي هذا يقول السكاكي (٦٢٦هـ): ((لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع

---

(١) ينظر في مفهوم السياق: نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، لخليل: ٣١، ٧٩، والوحدة السياقية للسورة، للعجلان: ٢٧-٧٤، وهو من أحسن من تتبع لفظ "السياق" في التراث العربي.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم، للسكاكي: ١٦٨ و٤١د و٤٣٢، والإيضاح، للقزويني، مع شروح التلخيص: ١/١٢٢، والبلاغة والفصاحة، لفياض: ٨د-٩د، ومعجم المصطلحات البلاغية: ١/٤٠٢.

الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر. ثم إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام))[1].

وقد عني العلماء بالسياق، واعتبروه مرجعًا مهمًا في الدلالة على المعنى المراد من كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ، وحذروا من إغفاله وإهماله، وقد سبق الشافعي إلى ذلك حينما عقد في كتابه "الرسالة" بابًا بعنوان: ((الصنف الذي يبين سياقه معناه))، وذكر أمثلة من القرآن الكريم على ذلك[2]، وقال الطبري (٣١٠هـ): ((غير جائز صرف الكلام عما هو في سياقه إلى غيره، إلا بحجة يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل، أو خبر عن الرسول تقوم به حجّة، فأما الدّعاوى فلا تتعذر على أحد))[3]، وقال الشاطبي (ت٧٩٠): ((كلام العرب على الإطلاق لا بد فيه من اعتبار معنى المساق في دلالة الصيغ، وإلا صار ضُحكة وهُزءة، ألا ترى إلى قولهم: فلان أسد أو حمار، أو عظيم الرماد، أو جبان الكلب، وفلانة بعيدة مهوى القرط، وما لا ينحصر من الأمثلة، لو اعتبر اللفظ بمجرده لم يكن له معنى معقول، فما ظنك بكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم؟!))[4]، ويؤكد ذلك أيضًا رابطًا بين اعتبار السياق وعلم البلاغة: ((المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل، وهذا معلوم في علم المعاني والبيان؛ فالذي يكون على بال من المستمع المتفهم: الالتفات إلى أول الكلام وآخره، بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها، لا ينظر في أولها دون آخرها، ولا في آخرها دون أولها، فإن القضية وإن اشتملت على جمل، فبعضها متعلق بالبعض؛ لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد، فلا محيص

---

(١) مفتاح العلوم: ١٦٨.

(٢) الرسالة، للشافعي: ٦٢.

(٣) جامع البيان عن تأويل أي القرآن، للطبري: ٧/٦٧٥.

(٤) الموافقات، للشاطبي: ٣/٤١٩–٤٢٠.

للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف))[1].

وقال ابن القيم (ت ٧٥١هـ) مبينًا وظائف السياق: ((السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته))[2]. وعلى هذا فإن السياق لا يتوقف عند حدود التبيين والتفسير، بل يتعداه إلى الترجيح بين المعاني المحتملة، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وغير ذلك من الوظائف، وقد قال العز بن عبدالسلام (ت ٦٦٠هـ) مبينًا وظيفة السياق في الترجيح بين المعاني المحتملة: ((وإذا احتمل الكلام معنيين، وكان حمله على أحدهما أوضح وأشد موافقة للسياق، كان الحمل عليه أولى))[3].

وهذه الوظيفة الترجيحية بين المعاني المحتملة للكلام، هل يصح تطبيقها على تعدد الروايات؟ بحيث إذا كانت إحدى الروايات أوضح وأشد موافقة للسياق فهل ترجح على غيرها؟

وقد ظهر لي من صنيع بعض المحدثين أن السياق معتبر في الترجيح بين الروايات، ومن ذلك ما أخرجه مسلم عن أنس بن مالك قال: ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ، قال: كان إبراهيم مسترضعًا له في عوالي المدينة، فكان ينطلق، ونحن معه، فيدخل البيت، وإنه لَيُدَّخَن، وكان ظئره قينًا، فيأخذه، فيقبله، ثم يرجع[4]. قال القاضي عياض: ((كذا رواية الأكثر: أرحم بالعيال، وهو ظاهر سياق الحديث، وفي بعض

---

(١) المرجع السابق: ٤/ ٢٦٦.

(٢) بدائع الفوائد، لابن القيم: ٤/ ١٣١٤.

(٣) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، لابن عبدالسلام: ٢٢٠.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (٢٣١٦)، والظئر: يطلق على المرضعة ولد غيرها، وعلى زوجها، والمقصود هنا الزوج، والقين: الحدّاد، وينظر: شرح النووي على صحيح مسلم: ١٥/ ٧٥، ٧٦، ولسان العرب، لابن منظور: مادتا (ظأر، قين).

الروايات: بالعباد))[1]. والقاضي عياض ممن يعنى بالسياق في توجيه دلالة الحديث، والترجيح بين رواياته، ومن ذلك ما ذكره في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله، وفيه: "وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ" هذه رواية البخاري[2]، وجاء في رواية مسلم مقلوبًا: "حَتَّى لا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ"[3]. قال: ((المعروف الصحيح: "حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ" وكذا وقع في الموطأ والبخاري، وهو وجه الكلام؛ لأن النفقة المعهود فيها باليمين))[4].

وفي حديث عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ أن أصحاب الصفة كانوا أناسًا فقراء، وأن النبي ﷺ قال: "مَنْ كَانَ عِنْده طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ، وَإِنْ أَرْبَعٍ فَخَامِسٍ أَوْ سَادِسٍ..." الحديث، هذه رواية البخاري، ولمسلم: "مَنْ كَانَ عِنْده طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَلاثَةٍ، وَمَنْ كَانَ عِنْده طَعَامُ أَرْبَعَةٍ فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ، بِسَادِسٍ..."[5]، قال أبو العباس القرطبي (ت٦٥٦هـ): ((هكذا صحّت الرواية فيه عن جميع رواة مسلم، والصواب: بثالث؛ لأن البخاري ذكره: بثالث، ولأن بقية الحديث تدل عليه، إذ قال: "وَمَنْ كَانَ عِنْده طَعَامُ أَرْبَعَةٍ فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ، بِسَادِسٍ...")) [6].

وفي حديث الذي وقع على امرأته في نهار رمضان، أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هلكت، قال: "وَيْحَكَ" وفي رواية زيادة: "مَا لَكَ؟!" أو "مَا شَأْنُكَ؟" قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم...[7]، وفي رواية معلقة عند البخاري: "وَيْلَكَ"[8]. رجح ابن حجر

---

(١) إكمال المعلم، للقاضي عياض: ٧/ ٢٨١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (١٤٢٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم (١٠٣١).

(٤) إكمال المعلم، للقاضي عياض: ٣/ ٥٦٢.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٦٠٢)، ومسلم في صحيحه: برقم (٢٠٥٧).

(٦) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي: ٥/ ٣٢٦.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (٦١٦٤)، ومسلم في صحيحه: برقم (١١١١).

(٨) أخرج الرواية البخاري في صحيحه: برقم (٦١٦٤)، والحديث المعلق هو: الذي حذف من مبتدأ إسناده راو أو أكثر. وينظر: علوم الحديث، لابن الصلاح: ٢٤.

(ت٨٥٢هـ) رواية "وَيْحَكَ" لكثرة رواتها، ولكون المقام يقتضيها، قال: ((تابع ابنَ خالد في قوله: "وَيْلَكَ" صالحُ بن أبي الأخضر، وتابع الأوزاعيَّ في قوله: "وَيْحَكَ" عقيلٌ وابنُ إسحاق وحجاجُ بن أرطاة، فهو أرجح، وهو اللائق بالمقام، فإن (ويح) كلمة رحمة، و(ويل) كلمة عذاب، والمقام يقتضي الأول))[1]. ومما يدل على أن المقام يقتضيها ما جاء في رواية مسند أحمد قال أبو هريرة ﷺ: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل ينتف شعره، ويدعو ويله...[2]. وهذه الحال في أول الأمر تقتضي الرأفة والرحمة بالمخاطب[3].

وفي حديث أم عطية رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ لهن في غسل ابنته: "ابدَأْنَ بِمَيَامِنِهَا وَمَوَاضِعِ الْوُضُوءِ مِنْهَا". لفظ هذه الرواية: "ابْدَأْنَ" بنون النسوة. وفي رواية: "ابْدَءُوا" بواو الجماعة[4]. ورجح ابن حجر رواية الخطاب بنون النسوة، مع أن الأكثر الرواية بالواو، مراعاة للسياق. قال: ((قوله: "ابْدَءُوا" كذا للأكثر. وللكشميهني: "ابْدَأْنَ". وهو الوجه لأنه خطاب للنسوة))[5].

وفي حديث المرأة التي أتت فوهبت نفسها للنبي ﷺ فقال: "مَا لِي فِي النِّسَاءِ مِن حَاجَةٍ". فقال رجل: زوجنيها... وفيه: قال النبي ﷺ: "زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ". وفي رواية قال: "مَلَّكْتُكَهَا". وفي رواية: "أَنكَحْتُكَهَا"[6]. وقد رجح بعض المحدثين رواية التزويج، لكون رواتها أكثر وأحفظ، كما نقل ذلك عن الدارقطني[7]. ورجحها بعضهم بناء على سياق القصة، قال البغوي: ((اختلفت الرواية فيه. فالظاهر أنه كان بلفظ التزويج على وفاق قول الخاطب: زوجنيها، إذ هو الغالب من أمر العقود أنه قلما يختلف فيه لفظ

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر: ٤/١٦٥. وابن خالد والأوزاعي اللذان توبعا هما الراويان عن الزهري، والزهري روى الحديث عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرج الرواية أحمد في مسنده: ٢/٢٠٨.

(٣) ينظر: رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين، للعليوي: ٢٧٩-٢٨٠.

(٤) ينظر: صحيح البخاري: برقم (١٦٧، ١٢٥٤، ١٢٥٥، ١٢٥٦). وصحيح مسلم: برقم (٩٣٩).

(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر: ٣/١٣١.

(٦) ينظر: صحيح البخاري: (٢٣١٠، ٥٠٢٩، ٥٠٣٠، ٥١٤٩)، وصحيح مسلم: (١٤٢٥).

(٧) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر: ٩/٢١٤.

المتعاقدين))[1]. ونقل ابن حجر عن الحافظ العلائي أنه قال: ((من المعلوم أن النبي ﷺ لم يقل هذه الألفاظ كلها تلك الساعة، فلم يبق إلا أن يكون قال لفظة منها، وعبر عنه بقية الرواة بالمعنى... ولكن القلب إلى ترجيح رواية التزويج أميل؛ لكونها رواية الأكثرين، ولقرينة قول الرجل الخاطب: زوجنيها، يا رسول الله))[2]، ويشكل على هذا الترجيح أن رواية "أَنكَحتُكَهَا" جاءت موافقة لقول الخاطب: أنكحنيها، والشاهد من هذا المثال أن المحدثين يعتبرون السياق في الترجيح بين الروايات.

ومن الأمثلة على الترجيح بسياقات خارج النص الترجيح بين روايتي (بيتي، قبري) في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ، وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي" هذا لفظ الصحيحين[3]، وفي رواية: "مَا بَيْنَ قَبْرِي وَمِنْبَرِي"[4]. قال ابن تيمية في رواية "بَيْتِي": ((هذا هو الثابت في الصحيح، ولكن بعضهم رواه بالمعنى، فقال: قبري، وهو ﷺ حين قال هذا القول لم يكن قد قُبر بعدُ صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا لم يحتج بهذا أحد من الصحابة، لما تنازعوا في موضع دفنه، ولو كان هذا عندهم لكان نصًا في محل النزاع، ولكن دفن في حجرة عائشة في الموضع الذي مات فيه، بأبي هو وأمي صلوات الله عليه وسلامه))[5].

خامسًا: موافقة الرواية للبلاغة النبوية.

وهذه منهجية دقيقة في اختيار الرواية التي يصح نسبة البلاغة النبوية إليها، فإن بلاغته وفصاحته ﷺ في الطبقة العالية من كلام البشر، فقد كان ﷺ أبلغ العرب، وأفصح من نطق بالضاد، وقد أبان عن ذلك العلماء باللغة وأفانينها، قال يونس بن حبيب (١٨٢هـ):

---

(١) شرح السنة، للبغوي: ٩/١٢٢.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر: ٩/٢١٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم (١١٩٦، ١٨٨٨، ٦٥٨٨، ٧٣٣٥)، ومسلم في صحيحه: برقم (١٣٩١).

(٤) أخرجها ابن أبي شيبة في مصنفه: ١٦/٣٩٩، وقال محققه محمد عوامة: ((إسناد المصنف صحيح، بل رجاله ممن احتج بهم الشيخان)).

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/٢٣٦.

((ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله ﷺ))[1]. وقال الجاحظ (٢٥٥هـ): ((لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا، ولا أقصد لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح معنًى، ولا أبين في فحوى من كلامه ﷺ))[2]. وقال القاضي عياض (٥٤٤ هـ): ((وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان ﷺ في ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم))[3]. وقال ابن دحية (٦٣٣هـ) في خصائص فمه ﷺ: ((أعظمها الفصاحة، التي فاق بها جميع العرب، وأتى بنظام غير نظام الشعراء والمترسلين وذوي الخطب))[4]. وقال الماوردي (٤٥٠هـ): ((في كلام رسول الله ﷺ من الفصاحة ما لا يوجد في كلام غيره))[5].

وإذا كان ﷺ بهذا المحل من الفصاحة والبلاغة فإنه لا ينطق إلا بما هو أفصح وأبلغ. قال أبو حيان: ((نعلم قطعًا غير شك أن رسول الله ﷺ كان أفصح الناس، فلم يكن ليتكلم إلا بأفصح اللغات، وأحسن التراكيب، وأشهرها، وأجزلها، وإذا تكلم بلغة غير لغته فإنما يتكلم بذلك مع أهل تلك اللغة على طريق الإعجاز، وتعليم الله ذلك له من غير معلم))[6].

وقد قرر أهل العلم أن لفظ النبي ﷺ لا يأتي على غير الفصيح، وإذا جاءت رواية به فإنما هي رواية بالمعنى من لفظ الراوي، قال السيوطي: ((اعلم أن كثيراً من الأحاديث

---

(١) البيان والتبيين: ٢/ ١٨.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ١٧.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ: ٣٨٥.

(٤) الآيات البينات في ذكر ما في أعضاء رسول الله ﷺ من المعجزات، لابن دحية: ٢٥٨.

(٥) الحاوي الكبير، للماوردي: ١٦/ ٩٧.

(٦) التذييل والتكميل في شرح التسهيل، لأبي حيان، عن: عقود الزبرجد في إعراب الحديث النبوي، للسيوطي: ١/ ٧٠، وينظر: الاقتراح في أصول النحو، للسيوطي: ٩٣.

روتها الرواة بالمعنى، فزادوا فيها ونقصوا، ولحنوا، وأبدلوا الفصيح بغيره، ولهذا تجد الحديث الواحد يروى بألفاظ متعددة، منها ما يوافق الإعراب والفصيح، ومنها ما يخالف ذلك، وقد قال الحافظ فتح الدين بن سيد الناس: إذا ورد الحديث على وجهين: ما يوافق الفصيح وما يخالفه، فالموافق للفصيح هو لفظ النبي ﷺ لأنه لم يكن ينطق إلا بالفصيح. وقد نُقل هذا الكلام عن المزني، قال أبو عاصم العبادي –من متقدمي أصحابنا– في طبقاته: قال المزني: لا يروى في الحديث خطأ؛ فإن النبي ﷺ أفصح العرب، فلا يجوز أن يروى خطأ))[1].

وباب الفصاحة أمره ظاهر، والتفريق بين الفصيح وغيره معلوم لدى أهل اللغة من خلال استقرائهم لكلام العرب، وما بنوا عليه من قواعد، ويمكن للدارس أن يطبق ما قرروه على الروايات المختلفة، لكن أمر البلاغة دقيق، والتفريق بين بلاغة النبي ﷺ وبلاغة غيره لا يخضع لمعايير أسلوبية محددة يدركها كل أحد، لكن أهل الحديث والمشتغلين به يدركونها بذوقهم الذي اكتسبوه بطول ممارستهم ومعايشتهم لكلام رسول الله ﷺ، فصار لديهم ملكة في معرفة أسلوب الحديث النبوي، وما هو من كلام رسول الله ﷺ مما ليس من كلامه. قال ابن دقيق العيد في الحديث الموضوع: ((أهل الحديث كثيراً ما يحكمون بذلك باعتبار أمور ترجع إلى المروي وألفاظ الحديث، وحاصله يرجع إلى أنه حصلت لهم لكثرة محاولة ألفاظ الرسول ﷺ هيئة نفسانية أو ملكة، يعرفون بها ما يجوز أن يكون من ألفاظ الرسول ﷺ، وما لا يجوز أن يكون من ألفاظه))[2]، وسئل ابن القيم: هل يمكن معرفة الحديث الموضوع بضابط من غير أن ينظر في سنده؟ فقال: ((إنما يعلم ذلك من تضلع في معرفة السنن الصحيحة، وخلطت بدمه ولحمه، وصار له فيها ملكة، وصار له اختصاص شديد بمعرفة السنن والآثار، ومعرفة سيرة رسول الله ﷺ

---

(1) عقود الزبرجد في إعراب الحديث النبوي، للسيوطي: ٦٨/١، وينظر: معالم البيان في الحديث النبوي، للعسكر: ٧٦.

(2) الاقتراح في فن الاصطلاح، لابن دقيق: ٣١١.

وهديه، فيما يأمر به وينهى عنه، ويخبر عنه ويدعو إليه، ويحبه ويكرهه، ويشرعه للأمة، بحيث كأنه مخالط للرسول ﷺ بين أصحابه. ومثل هذا يَعرف من أحوال الرسول ﷺ وهديه وكلامه، وما يجوز أن يخبر به ولا يجوز ما لا يعرفه غيره. وهذا شأن كل متبع مع متبوعه؛ فللأخص به الحريص على تتبع أقواله وأفعاله في العلم بها، والتمييز بين ما يصح أن ينسب إليه وما لا يصح، ما ليس لمن لا يكون كذلك))[1]. ونقل القاسمي عن ابن عروة الحنبلي قال: ((لقد رأيت رجلاً إذا سمع حديثًا مرويًا عن النبي ﷺ، وكان ليس مما قاله، يرده، ويقول: هذا موضوع أو ضعيف أو غريب، من غير أن يسمع في ذلك بشيء، فيُكشف عنه فإذا هو كما قال. وكان قلَّ أن يخطئ في هذا الباب، فإذا قيل له: من أين لك هذا؟ يقول: كلام الرسول ﷺ عليه جلالة، وفيه فحولة ليست لغيره من الناس، وكذلك كلام أصحابه، وكنت أكشف عما يقول، فأجده غالبًا كما قال. وكان من أتبع الناس للسنة وأقلاهم للبدع والأهواء))[2].

* * *

(1) المنار المنيف، لابن القيم: ٢٦.

(2) قواعد التحديث، للقاسمي: ٢٧٦.



المبحث الثالث: أنموذج للدراسة

أخرج الإمام أحمد في مسنده والشيخان في صحيحيهما عن أبي مسعود الأنصاري ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان؛ مما يطيل بنا. فما رأيت النبي ﷺ غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ، فقال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ. فَأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيُوجِزْ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِ الْكَبِيرَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ".

وهذا الحديث روي في المسند والصحيحين بثمان روايات. وهذه رواية مسلم[1].

ولأحمد روايتان، هما:

١- "أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ؛ فَإِنَّ فِيهِم الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ".

٢- "إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَمَنْ أَمَّ قَوْمًا فَلْيُخَفِّفْ بِهِم الصَّلاةَ؛ فَإِنَّ وَرَاءَهُ الْكَبِيرَ وَالْمَرِيضَ وَذَا الْحَاجَةِ"[2].

وللبخاري خمس روايات، هي:

١- "أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مُنَفِّرُونَ، فَمَنْ صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ؛ فَإِنَّ فِيهِم الْمَرِيضَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ".

٢- "إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ؛ فَإِنَّ فِيهِم الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ".

٣- "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَمَنْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيَتَجَوَّزْ؛ فَإِنَّ خَلْفَهُ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ".

٤- "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ؛ فَإِنَّ فِيهِم الْمَرِيضَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ".

---

(١) هذا لفظ مسلم: برقم (٤٦٦).

(٢) أخرج الروايتين أحمد في مسنده: ٢٨/٢٩٨، ٣٠٩، على ترتيب الروايتين.

د- "أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنكُمْ مُنَفِّرِينَ. فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُوجِزْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الكَبِيرَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ"[1].

وخطاب النبي ﷺ في هذا الحديث يتكون من أربع جمل:

الجملة الأولى: جملة النداء، ذكرت في ست روايات: ثلاث منها بياء النداء "يَا أَيُّهَا النَّاسُ". وفي ثلاث من غير ياء النداء "أَيُّهَا النَّاسُ". ولم تذكر جملة النداء في روايتين.

الجملة الثانية: رويت بلفظين: "إِنَّ مِنكُمْ مُنَفِّرِينَ" في سبع روايات. ورويت في رواية واحدة: "إِنَّكُمْ مُنَفِّرُونَ".

الجملة الثالثة: رويت بسبعة ألفاظ: "فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ". "فَمَنْ أَمَّ قَوْمًا فَلْيُخَفِّفْ بِهِمُ الصَّلَاةَ". "فَأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيُوجِزْ". "فَمَنْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيَتَجَوَّزْ". "فَمَن صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ". "فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُوجِزْ". "فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ" وهذه الرواية رويت مرتين.

الجملة الرابعة: رويت بسبعة ألفاظ: "فَإِنَّ وَرَاءَهُ الْكَبِيرَ وَالْمَرِيضَ وَذَا الْحَاجَةِ". "فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِ الْكَبِيرَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ". "فَإِنَّ خَلْفَهُ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ". "فَإِنَّ فِيهِمُ الْكَبِيرَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ". "فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ". "فَإِنَّ فِيهِمُ الْمَرِيضَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ". "فَإِنَّ فِيهِمُ الْمَرِيضَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ".

وقد حاول بعض من اختصر صحيح البخاري أن يجمع من روايات الحديث سياقًا واحدًا، فجاء في مختصر صحيح البخاري للألباني بهذا السياق:

"[يَا أَيُّهَا النَّاسُ]، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ. فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ. فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ (وفي رواية: الْمَرِيضَ) وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ"[2].

وفي مختصر صحيح البخاري للشثري بهذا السياق:

---

(1) أخرج هذه الروايات البخاري في صحيحه: برقم (٩٠ و٧٠٢ و٧٠٤ و٦١٥٩ و٧١٥٩) على ترتيب الروايات.

(2) مختصر صحيح البخاري، للألباني: ١/٢٢٧.

"أيُّهَا النَّاسُ، إنَّكُمْ مُنَفِّرونَ، فَمَن صلَّى بالنَّاسَ فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ خَلْفَه الْمَرِيضَ وَالضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الحَاجَةِ"[1].

أما الألباني فمن منهجه في الجمع بين الروايات أن الزيادة إذا كانت تقبل الانضمام إلى مكانها منسجمة مع السباق والسياق وضعها بين معقوفتين، وإذا كانت لا تنسجم وضعها بين هلالين[2]. وقد اعتمد الرواية الثانية عند البخاري، وزاد عليها رواية جملة النداء بين معقوفتين في أول الحديث كما وردت في الروايات الأخرى، ثم زاد بين هلالين لفظ "المريض" كما جاء في بعض الروايات، وجعلها بين الضعيف والكبير، مع أن الروايتين اللتين ورد فيهما لفظ "المريض" كان فيهما أولاً مقدمًا على الضعيف والكبير، ووضع لفظ "المريض" بين هلالين يثير التساؤل عن سبب عدم انسجامه في السياق، مع أن النبي ﷺ ذكره مع من يراعى في تخفيف الصلاة، إلا إذا كان الألباني أراد أن الترتيب غير مقصود.

وأما الشثري فمنهجه أن يجمع أطراف الحديث في الموطن الأول، ويشير إلى الروايات المتخالفة في الهامش[3]، وعند الرواية الأولى في البخاري زاد عليها لفظ "الكبير" بعد "الضعيف" كما ورد في روايتين، مع أنه ورد قبل "الضعيف" في رواية عند البخاري وفي رواية مسلم، كما أنه لم يزد (ياء) النداء كما وردت في الروايات الثلاث الأخيرة، واختار لفظ (فإن خلفه) بدلاً من (فإن فيهم).

والمتأمل لروايات الحديث المختلفة يجد ما يأتي:

١- اتفقت الروايات على ذكر المقام الذي استدعى وعظ النبي ﷺ لأصحابه من خلال خطبة.

---

(١) مختصر صحيح البخاري، للشثري: ٥١.

(٢) ينظر: مختصر صحيح البخاري، للألباني: ١١.

(٣) ينظر: مختصر صحيح البخاري، للشثري: ٦.

٢- يتكون خطاب النبي ﷺ من أربع جمل. وحذف جملة النداء في الرواية الثانية من مسند أحمد ومن صحيح البخاري لا يؤثر في عدد الجمل؛ لأنها مذكورة في الروايات الأخرى، ولم يرد عليها الشذوذ، وموضعها محدد في أول الخطاب.

٣- اتفقت الروايات على ترتيب الجمل.

٤- لم تتفق الروايات على صيغة واحدة لأي جملة من كلام النبي ﷺ.

٥- اتفقت الروايات على المعنى، وليس بينها أي اختلاف تضاد.

٦- اتفقت الروايات على الخطاب بصيغة الجمع.

٧- اتفقت الروايات في الجملة الأولى على نداء الصحابة بلفظ "الناس" مسبوقًا بـ"أيها". وفي الجملة الثانية على الأسلوب الخبري، والتأكيد بإنّ، والتعبير بمادة "نفر". وفي الجملة الثالثة على أسلوب الشرط، واتصاله بالفاء، وفعل الشرط ماضيًا، وجواب الشرط أمرًا بصيغة المضارع المسبوق بلام الأمر، مخاطبًا به الغائب، واتصال الجواب بالفاء. وفي الجملة الرابعة على الأسلوب الخبري، والتأكيد بإنّ، متصلة بالفاء، وتقديم الخبر، ولفظ "ذي الحاجة" مع تأخيره في الترتيب، والعطف بين المفردات بالواو. واختلفت الروايات فيما سوى ذلك، وهو اختلاف ألفاظ لا اختلاف أساليب، إلا في التقديم والتأخير بين المعطوفات في الجملة الرابعة.

ومع الاختلاف الظاهر بين ألفاظ الروايات فإنه قد يصعب على دارس البلاغة النبوية أن يختار لفظ رواية دون غيرها يرى أنها هي لفظ النبي ﷺ، ويقوم عليها التحليل البلاغي للحديث بمنهج نظمي يراعي دقة اختيار كل مفردة دون غيرها مما يسد مسدها، ووضعها في الموضع الملائم من النظم، إلا ما كان من زيادة النداء أو حرفه، وهو في الحقيقة ليس بزيادة، وإنما هو محذوف من بعض الروايات، فالأصل وجوده، كما أن موضعه من الروايات محدد، كذلك زيادة لفظ المريض أو الضعيف أو الكبير، فإنها ما

دامت مذكورة في بعض الروايات فهي زيادة صحيحة، ولم يذكر فيها شذوذ. وإن كان يشكل موضعها من النظم تقديمًا وتأخيرًا. وليس ثمة ما يقطع بتحديده.

ولذا فإن الأولى لدارس البلاغة النبوية في هذا الحديث أن يدرس الظواهر الأسلوبية، والألفاظ المتفق عليها بين الروايات، والتي تنبئ عن بلاغة النبي ﷺ. ولا مانع من تلمس الفروق بين الألفاظ المختلفة للنظر فيما هو أقرب إلى مراعاة مقتضى الحال.

وباتباع هذه المنهجية سأتناول النص كالآتي:

أولاً: أحوال الخطاب.

١- سبب ورود الحديث: ذكرت جميع الروايات السبب الذي جعل النبي ﷺ يخاطب أصحابه بهذه الموعظة، حيث شكى رجل تطويل الإمام في صلاة الفجر؛ مما جعله يتخلف عن الصلاة معه. ولم تبين روايات حديث أبي مسعود ﷺ وفي غيرهما من الإمام المشكو، وفي أي مسجد يؤم. لكن ذكر ابن حجر أن الإمام هو أُبيّ بن كعب ﷺ في مسجد قباء؛ بناء على حديث لجابر بن عبدالله ﷺ عند أبي يعلى. قال ابن حجر: ((وهم من فسّر الإمام المبهم هنا بمعاذ، بل المراد به أُبيّ بن كعب كما أخرجه أبو يعلى، بإسناد حسن، من رواية عيسى بن جارية -وهو بالجيم- عن جابر قال: كان أُبي بن كعب يصلي بأهل قباء، فاستفتح سورة طويلة، فدخل معه غلام من الأنصار في الصلاة، فلما سمعه استفتحها انفتل من صلاته، فغضب أُبي، فأتى النبيَّ ﷺ يشكو الغلامَ، وأتى الغلامُ يشكو أُبيًّا، فغضب النبي ﷺ حتى عُرِف الغضب في وجهه، ثم قال: "إنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَأَوْجِزُوا، فَإِنَّ خَلْفَكُمُ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَالْمَرِيضَ وَذَا الْحَاجَةِ". فأبان هذا الحديث أن المراد بقوله في حديث الباب: مما يطيل بنا فلان، أي في القراءة، واستفيد منه أيضًا تسمية الإمام، وبأي موضع كان))[1]. وابن حجر في هذا الموضع جزم بأن الإمام أُبَي ﷺ، وفي موضع آخر احتمل. قال: ((ولأبي يعلى

(١) فتح الباري، لابن حجر: ٢/ ١٩٨.

في مسنده: كان أبي بن كعب يصلي بأهل قباء، فاستفتح بسورة طويلة، فذكر نحو هذا الحديث. فيحتمل أن يكون هو الإمام في حديث أبي مسعود))[1]. والحديثان مخرجهما مختلف، ولم أر فيهما ما يؤكد أنهما واقعة واحدة، بل إن سياقهما يشعر أنهما واقعتان، ومن وجوه الاختلاف بين الحديثين كون الشاكي في حديث أبي مسعود رجلاً، وفي حديث جابر غلاماً.

٢- حال الشاكي: لم تنص الروايات من حال الشاكي إلا أنه رجل. وقد تلمس بعض المحدثين حاله من خلال سياق الحديث، فذكر ابن بطال عن أبي الزناد أن الشاكي قد يكون مريضًا أو ضعيفاً، بدلالة قوله: لا أكاد أدرك الصلاة مما يطوّل بنا فلان. قال أبو الزناد: ((فكان إذا طوَّل به الإمام في القيام لا يكاد يبلغ الركوع والسجود، إلا وقد زاد ضعفاً عن اتباعه، فلا يكاد يركع معه ولا يسجد))[2]. وهذا فهم قد يصح لو لم يكن إلا هذه الرواية، لكن بقية الروايات بينت مقصود الشاكي من قوله بما لا يدل على ما ذهب إليه أبو الزناد من كون الشاكي مريضًا أو ضعيفاً، قال ابن حجر: ((وهو معنى حسن، لكن رواه المصنف عن الفريابي عن سفيان بهذا الإسناد بلفظ: إني لأتأخر عن الصلاة، فعلى هذا فمراده بقوله: إني لا أكاد أدرك الصلاة، أي: لا أقرب من الصلاة في الجماعة، بل أتأخر عنها أحيانًا من أجل التطويل))[3].

٣- حال النبي ﷺ: بينت الروايات أن النبي ﷺ كان في موعظته غاضبًا غضبًا شديدًا من فعل الإمام. قال ابن حجر: ((وسببه إما لمخالفة الموعظة، أو للتقصير في تعلم ما ينبغي تعلمه، كذا قاله ابن دقيق العيد، وتعقبه تلميذه أبو الفتح اليعمري بأنه يتوقف على تقدم الإعلام بذلك، قال: ويحتمل أن يكون ما ظهر من

---

(١) مقدمة فتح الباري (هدي الساري)، لابن حجر: ٢٦٣.

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال: ١/ ١٧٠.

(٣) فتح الباري، لابن حجر: ١/ ١٨٦، وينظر: عمدة القاري، للعيني: ٢/ ١٥٩.

الغضب لإرادة الاهتمام بما يلقيه لأصحابه، ليكونوا من سماعه على بال، لئلا يعود من فعل ذلك إلى مثله، وأقول: هذا أحسن في الباعث على أصل إظهار الغضب، أما كونه أشد فالاحتمال الثاني أوجه، ولا يرد عليه التعقب المذكور))[1].

وقد ظهر أثر حال النبي ﷺ في نظم خطابه، واختيار أساليبه وألفاظه، على ما سيأتي بيانه بإذن الله.

٤- جنس الخطاب وغرضه: وصفت الروايات خطاب النبي ﷺ بأنه موعظة، والخطاب لعموم الصحابة، وليس للمشكو، وهذا يدل على أنها خطبة، وقد ورد في صحيح ابن حبان: فقام رسول الله ﷺ فما رأيته في موعظة أشد غضبًا منه يومئذ[2]، وجاء النص على الخطبة في رواية عند الطبراني: فغضب رسول الله ﷺ فخطب الناس[3].

والغرض من الخطبة هو الإنكار على الأئمة تطويلهم في الصلاة، وتوجيههم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه.

وقد صحب الخطبة قيام كما في رواية ابن حبان، وهذا أدعى لأن يتفاعل الخطيب مع خطبته، ومع جمهوره، يرى الناس ويرونه، فيتحمس لإيصال كلامه إليهم، ويشدهم لاستماعه[4].

ولماذا عدل النبي ﷺ إلى الخطبة في الناس، ولم يوجه الخطاب إلى الإمام وحده؟

---

(١) فتح الباري، لابن حجر: ٢/١٩٩، وينظر: عمدة القاري، للعيني: ٥/٣٥٢.

(٢) صحيح ابن حبان: ٥/٥٠٨، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرطهما.

(٣) المعجم الكبير، للطبراني: ٢٠/٢١٨، وقال: لم يرو هذا الحديث عن أبي إسحاق السبيعي إلا عمار بن زريق، ولا عن عمار إلا أبو الجواب، وتفرد به: إدريس بن الحكم، والمشهور من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس.

(٤) ينظر: رعاية حال المخاطب في الصحيحين، للعليوي: ١٨٧.

لعل السبب في ذلك أن الخطأ من الأمور التي قد تحد من تأثير الدين وانتشاره، ويكون له أثر في الردة عنه. فلعل النبي ﷺ خشي أن ينتشر بين أصحابه. فأراد أن يبلغهم الإنكار لئلا يقعوا في الخطأ.

وقد ورد عن معاذ ﷺ أنه صلى ليلة مع النبي ﷺ العشاء، ثم أتى قومه فأمهم، فافتتح بسورة البقرة فانحرف رجل فسلم، ثم صلى وحده صلاة خفيفة، فبلغ ذلك معاذًا فقال: إنه منافق، فبلغ ذلك الرجل فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنا قوم نعمل بأيدينا، ونسقي بنواضحنا، وإن معاذًا صلى بنا البارحة، فقرأ البقرة، فتجوزت، فزعم أني منافق، فأقبل رسول الله ﷺ على معاذ فقال: "يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟ -أَوْ: "أَفَاتِنٌ؟"- ثَلاثَ مِرَارٍ، فَلَوْلا صَلَّيْتَ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى"[1].

وإذا صح أن قصة معاذ ﷺ قبل هذه القصة كما أشار إلى ذلك بعض الشراح[2]، فإن هذا يؤكد السبب المذكور للخطبة، والله أعلم.

ثانيًا: نظم الخطاب.

هذه خطبة موجزة تكونت من أربع جمل، لم يختلف ترتيبها في جميع الروايات التي ذكرتها.

الجملة الأولى: جملة النداء.

بدأت الخطبة بالنداء "يَا أَيُّهَا النَّاسُ" ومقام الخطبة يناسبه البدء به؛ طلبًا لإقبال المخاطبين وتنبيهًا لهم إلى عظم ما سيأتي من القول، قال سيبويه (١٨٠هـ): ((أول الكلام أبدًا النداء، إلا أن تدعه استغناء بإقبال المخاطب عليك، فهو أول كل كلام لك، به تعطف المكلَّم عليك))[3]. وقال الزمخشري (٥٣٨هـ): ((كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم

---

(١) أخرجه البخاري: (٧٠٥ و٦١٠٦)، ومسلم: (٤٦٥).

(٢) ينظر: فتح الباري، لابن حجر: ٢/١٩٩، وعمدة القاري، للعيني: ٥/٣٥٢.

(٣) كتاب سيبويه: ٢/٢٠٨، وينظر: أساليب الطلب، للقيسي: ٢١٨، وعلم المعاني، لفيود: ٢/١٤٤.

وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمورٌ عظام، وخطوب جسام، ومعان عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها))[١].

وحينما يتعلق النداء بمقام الإنكار فإنه غالبًا ما يتقدم في خطاب النبي ﷺ في هذا المقام، ولعل في ذلك قوة في تنبيه المخاطب إلى خطئه، وإشعارًا له بأهمية الأمر، وعظم التوجيه.

وجاء النداء بالياء لتساعد الخطيب في مد صوته، خاصة في مثل هذا المقام، وكان النبي ﷺ ينادي بـ(يا) ولا ينادي بغيرها كأيِ في مقام الإنكار على المخاطب، سواء كان الإنكار في خطبة أم في غيرها[٢].

ووّجه الخطاب للناس وليس لشخص معين، هو الذي وقع منه الخطأ، وأشار بعض شراح الحديث إلى سبب العدول عن خطاب الواحد وهو الإمام، إلى خطاب الجميع، قال العيني: ((فإن قلت: كان المقتضى أن يخاطب المطوّل، قلت: إنما خاطب الكل، ولم يعين المطوّل؛ كرمًا ولطفًا عليه، وكانت هذه عادته، حيث ما كان يخصص العتاب والتأديب بمن يستحقه، حتى لا يحصل له الخجل ونحوه على رؤوس الأشهاد))[٣]، وأضاف النووي (٦٧٦هـ) أمرًا آخر وهو أن الخطاب مقصود به الجميع، مع الشخص الذي كان سبب الخطاب، قال: ((إذا كره شيئًا فخطب له ذكر كراهيته، ولا يعين فاعله، وهذا من عظيم خلقه ﷺ، فإن المقصود من ذلك الشخصَ وجميعَ الحاضرين وغيرَهم ممن يبلغه ذلك، ولا يحصل توبيخ صاحبه في الملا))[٤].

الجملة الثانية: على روايتين: "إنَّ مِنكُمْ مُنَفِّرِينَ" "إنَّكُمْ مُنَفِّرُونَ".

---

(١) الكشاف: ٩٦/١.

(٢) ينظر: رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين، للعليوي: ٣٧٩.

(٣) عمدة القاري، للعيني: ١٦٠/٢.

(٤) شرح صحيح مسلم: ١٧٦/٩، وينظر: ١٠٧/١٥.

وفي كلتا الروايتين جاءت الجملة خبرية تصف المخاطبين بأنهم منفّرون، من: نَفَّر. أي: يَلقون الناس بما يحملهم على النفور عن الدين. ويأتي هذا المعنى من أنْفَر فهو مُنْفِر[1]. واختيار اللفظ المضعف يتلاءم مع مقام الإنكار. وينبئ عن شدة الغضب. كما أنه يحمل مزيداً من التنفير عن التنفير.

والجملة مؤكدة بإنّ، وخطب النبي ﷺ يكثر فيها التأكيد، ومقام الإنكار يقتضيه، والجملة تحمل وصفاً ينفر عنه المخاطب ولا يحب أن يوصف به. فكان ذلك أيضاً مما يقتضيه؛ لتأكيد الوصف من أول الأمر وتحقيقه، وليكون ممهداً لتقبل الأمر بعده وتمكينه في النفس.

وجاءت الجملة الخبرية مفصولة عن جملة النداء الإنشائية؛ وليس ذلك لمجرد كمال الانقطاع بينهما. حينما اختلفت الجملتان خبراً وإنشاءً، كما يذكر البلاغيون. والعطف بين الإنشاء والخبر وارد في كلام الله ﷻ. وقال ابن عاشور (١٣٩٢هـ): ((وهو كثير في الكلام البليغ))[2]، ولكن لكون المقام يقتضيه، فإني رأيت أن خطاب النبي ﷺ في مقام الإنكار يبرز فيه الفصل بين الجمل. ولعل ذلك لأن الجملة المفصولة تبدو في النطق أقوى. خاصة إذا كان المتكلم بحال من الغضب وغليان النفس. وكأنه يقف عند كل جملة ليسترد نفَسه ويعود مرة أخرى ليلقي بالجملة التي تليها. أو ليستوعب المخاطب مضمون الجملة الأولى ليتلقى بعدها الثانية، وكأن المتكلم يستأنف جملة أخرى تحمل مضامين جديدة في الإنكار والعتاب. وكلما كانت الجمل المفصولة أكثر كان ذلك أقوى وأشد تقريعاً. كما أنها تنبئ أكثر عن مدى الانفعال والغضب الحاصل في المتكلم. إلا إذا

---

(١) ينظر: لسان العرب. لابن منظور: ٥ / ٢٢٤. مادة (نفر).

(٢) موجز البلاغة: ٢٥. وينظر: مغني اللبيب: ٦٢٨، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم: ٣٢٨-٥٤٠. وعلم المعاني. لفيود: ٢ / ١٩٧. ورسالة (مسالك العطف بين الإنشاء والخبر).

أريد تعداد الأفعال المنكرة، أو تعداد آثارها السيئة فيحسن الوصل، كما حسن في تعداد النعم[1].

الجملة الثالثة: رويت بسبعة ألفاظ: "فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ". "فَمَنْ أَمَّ قَوْمًا فَلْيُخَفِّفْ بِهِمِ الصَّلَاةَ". "فَأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيُوجِزْ". "فَمَنْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيَتَجَوَّزْ". "فَمَنْ صَلَّى بِالنَّاسَ فَلْيُخَفِّفْ". "فَأَيُّكُم مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُوجِزْ". "فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ" وهذه الرواية رويت مرتين.

وكل هذه الروايات جاءت الجملة فيها بأسلوب الشرط، موصولة بالفاء، التي فيها معنى التسبب، أي: بما أنكم بهذا الوصف من التطويل المنفر فإني آمركم بالتخفيف. كما أن في الفاء معنى التعقيب، الذي يشعر المخاطب بأهمية الأمر وسرعة الاستجابة له.

وفعل الشرط في جميع الروايات فعل ماض، إشارة إلى أن تحقق الجواب مترتب على تحقق وقوع الفعل في المستقبل.

وجاء جواب الشرط موصولاً بالفاء، وفيه معنى التعقيب، حثًّا على المسارعة إلى تحقيق التخفيف إذا أمّ الرجل الناس. قال الرضي في شرح الكافية: ((إن كان الجزاء مما يصلح أن يقع شرطًا، فلا حاجة إلى رابطة بينه وبين الشرط، لأن بينهما مناسبة لفظية من حيث صلاحية وقوعه موقعه، وإن لم يصلح له فلابد من رابط بينهما، وأولى الأشياء به الفاء، لمناسبته للجزاء معنى، لأن معناه التعقيب بلا فصل، والجزاء متعقب للشرط كذلك، هذا إلى خفتها لفظًا))[2].

وكان جواب الشرط أمرًا لبيان الجزم في تخفيف الصلاة على المأمومين.

ووقع الأمر بصيغة الفعل المضارع المقرون بلام الأمر، للدلالة على استمرار التخفيف كلما تحققت إمامة الناس.

---

(١) ينظر: رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين، للعليوي: ٣د ٤، ٤٦٧.

(٢) شرح الرضي على الكافية: ٤ / ١١٠.

وجاء المضارع بصيغة خطاب الغائب. وهذا يقتضيه صياغة أسلوب الشرط في الحديث، وهو غالب في خطاب النبي ﷺ، ولعل في هذه بيانًا بأن الحكم عام للإمام والصحابة وكل من تحقق فيه الشرط ممن يأتي بعدهم. وقد تكون هذه الصيغة جاءت في مقام الإنكار للتخفيف من حدته على المخاطب. أو لكليهما، والله أعلم.

وقيدت الإمامة بالناس أو بالقوم في رواية، تمهيدًا لعلة التخفيف في الجملة بعدها، فإن المساجد يصلي فيها أجناس الناس من صغير وكبير وصحيح ومريض وقوي وضعيف وغيرهم. وفي هذا إشارة إلى أن الإمام إذا لم يكن يصلي معه إلا من يقوى على التطويل من غير أن يكون له حاجة فله أن يطيل. والله أعلم.

الجملة الرابعة: رويت بسبعة ألفاظ: "فَإِنَّ وَرَاءَه الْكَبِيرَ وَالْمَرِيضَ وَذَا الْحَاجَةِ". "فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِ الْكَبِيرَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ". "فَإِنَّ خَلْفَه الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ". "فَإِنَّ فِيهم الْكَبِيرَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ". "فَإِنَّ فِيهم الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ". "فَإِنَّ فِيهم الْمَرِيضَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ". "فَإِنَّ فِيهم الْمَرِيضَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ".

وهي جملة تعليلية، تبين سبب الأمر بالتخفيف على المأمومين، والفاء للتعليل، والحكم المعلل أخف على النفس من غير المعلل، كما أن غير المعلل فيه اختبار وابتلاء للنفوس. والتعليل غير ملزم، لكن المقام هنا يقتضيه؛ فإن الأمر بالتخفيف مما يدعو إلى التساؤل عن سببه، والتطويل زيادة في الطاعة والتقرب إلى الله، فبيّن النبي ﷺ أن هؤلاء لا يقوون على التطويل مما قد يكون صادًا لهم عن الطاعة ومنفرًا لهم عن الدين، ولهذا جاءت الجملة مؤكدة بإنّ، لتزيل أي تساؤل، ولتقرر مضمون الخبر، وتؤكد على الاهتمام بمن يحتاج إلى مراعاته من المأمومين.

وقد فصل النبي ﷺ في أحوال الناس الذين يحتاجون إلى تخفيف الصلاة، فهم بين مريض مشغول بوجعه، وكبير لا يقوى على طول القيام، وضعيف يضعف جسده أو تضعف نفسه عن طول الصلاة، وذي حاجة تنازعه رغبته، ولو طالت الصلاة لأخذت همه وفكره. ويمكن للنبي ﷺ أن يعبر عنهم بلفظ يعمهم دون تفصيل، كأن يقال: إن فيهم

من لا يستطيع الإطالة أو لا يقوى عليها، ونحو ذلك. إلا أن في التفصيل والتخصيص عناية بهؤلاء، واستدرارًا لعطف الأئمة عليهم. مما يؤكد أهمية التخفيف في الصلاة. وقال العيني: ((فإن قيل: لم ذكر هذا لثلاثة؟ قلت: لأنه متناول لجميع الأنواع المقتضية للتخفيف؛ فإن المقتضي له إما في نفسه، أو لا. والأول إما بحسب ذاته، وهو الضعف. أو بحسب العارض، وهو المرض))[1].

ووصل بين الأربعة (المريض، الضعيف، الكبير، ذو الحاجة) بـ"الواو"، مع أنه لا يلزم وجودهم جميعًا في وقت واحد بين المأمومين، ويمكن أن يعبر بـ"أو" للدلالة على وجود بعضهم دون بعض. إلا أن "أو" لا تعطي من الدلالة في هذا المقام ما تعطيه "الواو". فإنها تشعر المخاطب بأن الذين يتأثرون سلبًا بطول صلاته كثيرون، فكل هؤلاء ممن يصلون خلفه.

ولم تتفق الروايات على ترتيب المذكورين إلا أن "ذا الحاجة" فيها جميعًا جاء في الأخير. ولعل ذلك من باب التدلي، بدءًا بالأشد حاجة إلى التخفيف فالأدنى، فالمريض والكبير والضعيف أولى بالمراعاة من ذي الحاجة، وذكرهم أولاً أكثر تأثيرًا في نفوس الأئمة. مما يزيد في تأكيد الحكم وتقريره في النفوس.

ومع أن الروايات لم تتفق على ترتيب الثلاثة غير "ذي الحاجة" إلا أنه لو تلمسنا الترتيب الذي قد يقتضيه المقام فلعله يكون على سبيل التدلي، كما ذكر آنفًا، والتدلي يكون بالبدء بالمريض، فالكبير، فالضعيف؛ فإن المريض أشد مراعاة من غيره. والروايتان اللتان ذكرته بدأت به. ويأتي بعده في المراعاة الكبير. فإن حاجته ظاهرة لكن ليست كالمريض، والكبار يتفاوتون في القدرة على طول الصلاة، ومنهم من يقوى على التطويل، بخلاف المريض فإن مرضه يشغله عن الصلاة القصيرة فكيف إذا طالت. وأما الضعيف فيأتي بعدهما، فهو أعم من المريض والكبير، لكنه أقل عمومية من ذي الحاجة. والضعف قد يكون في البدن وقد يكون في العقل والنفس، وهو نسبي، ولذلك يتفاوت

---

(1) عمدة القاري، للعيني: ٢/ ١٦٠.

الضعفاء في طول الصلاة. ثم يأتي ذو الحاجة ليعم كل من لم يذكر قبله، والحوائج مختلفة لا يمكن تعدادها وحصرها، والله أعلم.

ولم أرد استقصاء النكات البلاغية في كل أسلوب من أساليب الحديث. وإنما أردت أن أعرض للمنهجية التي تلائم الحديث إذا تعددت رواياته واختلفت ألفاظه، لكنها مع ذلك اتفقت على ألفاظ وأساليب بلاغية، كما رأيناها في هذا الحديث، مما يمكن معها أن نطمئن إلى أن تلك الألفاظ والأساليب هي أساليب النبي ﷺ وألفاظه. وليست أساليب الرواة وألفاظهم، والله أعلم.

* * *

الخاتمة:

تناول البحث إشكالية مهمة تعترض دارس البلاغة النبوية. حينما يتناول حديثًا تعددت رواياته، فيقف بينها لا يدري أيها لفظ النبي ﷺ، ليدرسه دراسة بلاغية يتلمس من خلالها خصائص بيان النبي ﷺ وأساليبه البلاغية.

وقد توصل البحث بعد أن أكد هذه الإشكالية إلى عدد من الآليات المنهجية لدراسة البلاغة النبوية في ضوء تعدد الروايات، هي:

أولاً: الجمع بين الروايات الصحيحة. ولذلك أهمية كبيرة في دراسة البلاغة النبوية، فبالجمع بين الروايات يتكامل النص. ويعرف مقام الخطاب، ويتبين ما هو من لفظ النبي ﷺ مما ليس من لفظه، وما يمكن أن يثبته الدارس بلاغة للنبي ﷺ مما لا يمكن. فربما يثبت الدارس بلاغة للنبي ﷺ في الحديث تنفيها رواية أخرى، أو ينفي عن النبي ﷺ بلاغة أثبتتها رواية أخرى.

ثانيًا: دراسة اللفظ المتفق عليه وترك المختلف فيه. وهذا كثير في الأحاديث مختلفة الروايات، فإنها تتفق على ألفاظ وتراكيب، وتختلف في أخرى. فيتناول الدارس للبلاغة النبوية ما اتفقت الروايات فيه على اللفظ؛ لأنه سيكون حينئذ هو لفظ النبي ﷺ. لا لفظ الرواة. ويكون الدارس بذلك مطمئنًا إلى نسبة البلاغة إلى النبي ﷺ. وأما ما اختلفت فيه الروايات ولم يتحقق من لفظ النبي ﷺ فإن الأسلم أن يدع البحث في بلاغته من جهة نسبتها إلى النبي ﷺ.

ثالثًا: دراسة الظواهر البلاغية المتفق عليها بين الروايات. فإن ثمة مجال لدراسة الخصائص البلاغية النبوية، حتى لو تغيرت الألفاظ بين الروايات في بعض الأحاديث، من خلال رصد الظواهر الأسلوبية التي اتفقت عليها الروايات. لأن اختلاف الألفاظ لا يلزم منه اختلاف الأساليب البلاغية. ولا يمنع تعدد الروايات من نسبة الظاهرة البلاغية إلى النبي ﷺ ما دامت الروايات قد اتفقت عليها.

رابعًا: دراسة سياق الحديث. وهذه لها أكثر من وظيفة، لكنها من حيث تعدد الروايات تؤدي وظيفة ترجيحية بينها، حسب موافقة الرواية لسياق الحديث الداخلي أو الخارجي، والسياق معتبر في الترجيح بين الروايات كما هو صنيع بعض المحدثين.

خامسًا: موافقة الرواية للبلاغة النبوية. والتفريق بين بلاغة النبي ﷺ وبلاغة غيره لا يخضع لمعايير أسلوبية محددة يدركها كل أحد، لكن أهل الحديث والمشتغلين به يدركونها بذوقهم الذي اكتسبوه بطول ممارستهم ومعايشتهم لكلام رسول الله ﷺ. فصار لديهم ملكة في معرفة أسلوب الحديث النبوي، وما هو من كلام رسول الله ﷺ مما ليس من كلامه.

وإني لأحسب أن ما قدمته يعد لبنة من لبنات البحث عن منهج ملائم لدراسة البلاغة النبوية، يراعي قدسية الحديث النبوي، وخصوصيته عن غيره. ويأخذ في الاعتبار تعدد رواياته. وأوصي الباحثين في البلاغة عمومًا والبلاغة النبوية خصوصًا بإشباع البحث في هذا. والله ولي التوفيق. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

* * *

ثبت المراجع

١- الاتفاق والاختلاف في متون ما أخرجه الشيخان من طريق واحد. لحسن محمد عبه جي، مجلة جامعة الملك سعود. م١٦. العلوم التربوية والدراسات الإسلامية (٢).

٢- اختصار علوم الحديث. للحافظ ابن كثير. مطبوع مع الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث. لأحمد شاكر. دار الكتب العلمية، بيروت. د.ط. د.ت.

٣- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري. للقسطلاني، المطبعة الأميرية ببولاق مصر. الطبعة السادسة. ١٣٠٥هـ.

٤- أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين. للدكتور قيس إسماعيل القيسي. نشر بيت الحكمة بجامعة بغداد.

٥- أسباب تعدد الروايات في الحديث النبوي الشريف. للدكتور شرف القضاة وصاحبه. دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمّان الأردن. ١٤١٩هـ.

٦- أسباب ورود الحديث. للدكتور محمد رأفت سعيد. الإصدار (٣٧) من كتاب الأمة. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. قطر. ١٤١٤هـ.

٧- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز. لعز الدين بن عبد السلام. المطبعة العامرة. ١٣١٣هـ.

٨- الإعلام بفوائد عمدة الأحكام. لابن الملقن. تحقيق: عبدالعزيز المشيقح. دار العاصمة. الرياض. الطبعة الأولى. ١٤١٧هـ.

٩- الاقتراح في أصول النحو. للسيوطي. تعليق: محمود سليمان ياقوت. دار المعرفة الجامعية. مصر. ١٤٢٦هـ.

١٠- الاقتراح في فن الاصطلاح. لابن دقيق العيد. تحقيق: قحطان الدوري. دار العلوم. عمّان الأردن. الطبعة الأولى. ١٤٢٧هـ.

١١- إكمال المعلم بفوائد مسلم. للقاضي عياض. تحقيق: يحيى إسماعيل. دار الوفاء. المنصورة. الطبعة الأولى. ١٤١٩هـ.

١٢- الآيات البينات في ذكر ما في أعضاء رسول الله ﷺ من المعجزات، لابن دحية، تحقيق: جمال عزون، مكتبة العمرين العلمية، الشارقة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

١٣- الإيضاح، للقزويني، مع شروح التلخيص، دار السرور، بيروت.

١٤- البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي، تحرير: عبدالقادر العاني وآخرين، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

١٥- بدائع الفوائد، لابن القيم، تحقيق: علي العمران، دار عالم الفوائد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

١٦- البدر المنير، لابن الملقن، تحقيق: مصطفى أبو الغيظ وآخرين، دار الهجرة، الثقبة بالسعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

١٧- البلاغة النبوية بين التنظير والتطبيق، للدكتور غالب الشاويش، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.

١٨- البلاغة والفصاحة، للدكتور: محمد جابر فياض، دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

١٩- بيان إعجاز القرآن، للخطابي، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد سلام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، د.ت.

٢٠- البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ.

٢١- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: نظر الفاريابي، مكتبة الكوثر، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.

٢٢- التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح، لزين الدين العراقي، دار الحديث، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.

٢٣- التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، لابن حجر العسقلاني، تصحيح وتعليق: عبدالله هاشم المدني، ١٣٨٤هـ.

٢٤- تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، عناية: إبراهيم الزيبق وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢٥- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، تحقيق: عبدالله التركي، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٦- سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ.

٢٧- جمع المفترق من الحديث النبوي، للدكتور ياسر الشمالي، دار الفرقان، عمّان الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٢٨- الحاوي الكبير، للماوردي، تحقيق: علي معوض وعادل عبدالموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٢٩- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، لمحمد عبد الخالق عظيمة، دار الحديث، القاهرة.

٣٠- دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.

٣١- رسالة في اختلاف ألفاظ الحديث النبوي، للصنعاني، عناية: صبري المحمودي، دار التوحيد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.

٣٢- الرسالة، للشافعي، تحقيق: أحمد شاكر، د.ط.

٣٣- رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين، ليوسف العليوي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.

٣٤- الرواية بالمعنى في الحديث النبوي وأثرها في الفقه الإسلامي، للدكتور عبدالمجيد بيرم، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.

٣٥- سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية، بيروت، د.ط.

٣٦- سنن أبي داود، تحقيق: عزت الدعاس وعادل السيد، دار الحديث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ.

٣٧- سنن الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٣٨- السنن الكبرى، للبيهقي، مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد بالهند، الطبعة الأولى، ١٣٤٤هـ.

٣٩- سنن النسائي، عناية: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٤٠٦هـ.

٤٠- السياق وتوجيه دلالة النص، للدكتور عيد بلبع، بلنسية للنشر، شبين الكوم بمصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

٤١- شرح الرضي على كافية ابن الحاجب، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٤٢- شرح السنة، للبغوي، تحقيق: زهير الشاويش وشعيب الأرناؤط، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٤٣- شرح صحيح مسلم، للنووي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

٤٤- شرح صحيح البخاري، لابن بطال، تحقيق: ياسر إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.

٤٥- شروح التلخيص، دار السرور، بيروت، د.ط.

٤٦- الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، للقاضي عياض، عناية: هيثم الطعيمي ونجيب ماجدي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٤٧- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٤٨- صحيح البخاري مع فتح الباري = فتح الباري.

٤٩- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، تركيا، الطبعة الأولى، ١٣٧٤هـ.

٥٠- عقود الزبرجد في إعراب الحديث النبوي، للسيوطي، تحقيق: سلمان القضاة، دار الجيل، بيروت، ١٤١٤هـ.

٥١- علم أسباب ورود الحديث، لطارق الأسعد، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٥٢- علم المعاني، للدكتور بسيوني فيود، مكتبة وهبة، القاهرة، د.ط.

٥٣- علوم الحديث، لابن الصلاح، تحقيق: نور الدين عتر، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٦هـ.

٥٤- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني، ضبط وتصحيح: عبدالله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٥٥- عون المعبود شرح سنن أبي داود. للعظيم أبادي، دار الكتب العلمية. بيروت، الطبعة الثانية. ١٤١٥هـ.

٥٦- غريب الحديث. للخطابي. تحقيق: عبدالكريم العزباوي. نشر جامعة أم القرى، مكة المكرمة. الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ.

٥٧- فتح الباري. لابن حجر العسقلاني. تحقيق: ابن باز. وترقيم عبد الباقي، دار المعرفة، يروت. د.ط.

٥٨- فتح المغيث بشرح ألفية الحديث. للسخاوي. تحقيق: عبدالكريم الخضير ومحمد آل فهيد. دار المنهاج. الرياض. الطبعة الأولى. ١٤٢٦هـ.

٥٩- الفصل للوصل المدرج في النقل. للخطيب البغدادي. تحقيق: عبدالسميع الأنيس. دار ابن الجوزي. الدمام.

٦٠- القرارات النحوية والتصريفية لمجمع اللغة العربية بالقاهرة. للدكتور خالد العصيمي. دار التدمرية. الرياض. الطبعة الأولى. ١٤٢٣هـ.

٦١- قواعد التحديث. للقاسمي. تحقيق: مصطفى شيخ مصطفى. مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤٢٥هـ.

٦٢- كتاب سيبويه. تحقيق: عبد السلام هارون. عالم الكتب. بيروت. الطبعة الثالثة. ١٤٠٣هـ.

٦٣- الكشاف. للزمخشري. وبحاشيته: الانتصاف لابن المنير. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤١٥هـ.

٦٤- الكفاية في معرفة أصول علم الرواية. للخطيب البغدادي. تحقيق: إبراهيم الدمياطي. دار الهدى. مصر. الطبعة الأولى. ١٤٢٣هـ.

٦٥- شرح الكرماني على صحيح البخاري (الكواكب الدراري). دار إحياء التراث العربي. بيروت. الطبعة الثانية. ١٤٠١هـ.

٦٦- لسان العرب. لابن منظور. دار صادر. بيروت. د.ت.

٦٧- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. جمع: عبد الرحمن بن قاسم. طبعة مجمع الملك فهد للمصحف الشريف. المدينة النبوية. ١٤١٦هـ.

- محاسن الاصطلاح= مقدمة ابن الصلاح. ومحاسن الاصطلاح.

٦٨- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي. للرامهرمزي. تحقيق: محمد عجاج الخطيب. دار الفكر. بيروت. الطبعة الأولى. ١٣٩١هـ.

٦٩- مختصر صحيح البخاري. للألباني. مكتبة المعارف. الرياض. الطبعة الأولى. ١٤٢٢هـ.

٧٠- مختصر صحيح البخاري. للدكتور سعد الشثري. دار إشبيليا. الرياض. الطبعة الأولى. ١٤٢٣هـ.

٧١- مختلف الحديث بين المحدثين والأصوليين الفقهاء. للدكتور أسامة بن عبدالله خياط. دار الفضيلة. الرياض. الطبعة الأولى. ١٤٢١هـ.

٧٢- مسند الإمام أحمد بن حنبل. تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين. وإشراف الدكتور عبد الله التركي. مؤسسة الرسالة. بيروت. وطبعة أخرى بتحقيق: أحمد شاكر. دار المعارف. مصر. د.ط.

٧٣- مصنف ابن أبي شيبة. تحقيق: محمد عوامة. دار القبلة. جدة. الطبعة الأولى. ١٤٢٧هـ.

٧٤- معالم البيان في الحديث النبوي. للدكتور عبدالمحسن العسكر. بحث منشور في مجلة العلوم العربية. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. العدد السابع عشر. شوال ١٤٣١هـ.

٧٥- معجم المصطلحات البلاغية. للدكتور أحمد مطلوب. مطبوعات المجمع العلمي العراقي. ١٤٠٣هـ.

٧٦- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. لابن هشام. تحقيق: مازن المبارك وحمد الله. دار الفكر. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤١٢هـ.

٧٧- مفتاح العلوم. لسراج الدين السكاكي. تحقيق: نعيم زرزور. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الثانية. ١٤٠٧هـ.

٧٨- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم. لأبي العباس القرطبي. تحقيق: محيي الدين مستو وآخرين. دار ابن كثير. دمشق. الطبعة الثانية. ١٤٢٠هـ.

٧٩- مقدمة ابن الصلاح. ومحاسن الاصطلاح للبلقيني. تحقيق: عائشة عبدالرحمن. دار المعارف. القاهرة. ١٤١١هـ.

٨٠- المنار المنيف في الصحيح والضعيف. لابن القيم. تحقيق: يحيى الثمالي. دار عالم الفوائد. الرياض. الطبعة الأولى. ١٤٢٨هـ.

٨١- مناهج المحدثين في رواية الحديث بالمعنى، للدكتور عبدالرزاق الشايجي والدكتور السيد نوح، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٨٢- منتقى ابن الجارود، ومعه غوث المكدود بتخريج منتقى ابن الجارود، لأبي إسحاق الحويني، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٨٣- منهج النقد في علوم الحديث، للدكتور نور الدين عتر، دار الفكر، دمشق، طبعة ١٤٠٨هـ.

٨٤- الموافقات، للشاطبي، تحقيق: مشهور آل سلمان، دار ابن عفان، الخبر، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٨٥- موجز البلاغة، لمحمد الطاهر ابن عاشور، دار أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

٨٦- نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، للدكتور: عبدالنعيم خليل، دار الوفاء، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

٨٧- النكت على كتاب ابن الصلاح، لابن حجر، تحقيق: ربيع بن هادي عمير، دار الراية، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ.

٨٨- الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية، لسامي العجلان، نشر عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.

* * *

(حب الكتاب) في الشعر العربي إلى نهاية القرن السابع
دراسة موضوعاتية

د.إبراهيم بن محمد أبانمي
قسم الأدب - كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



(حب الكتاب) في الشعر العربي إلى نهاية القرن السابع
دراسة موضوعاتية

د.إبراهيم بن محمد أبانمي
قسم الأدب – كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

تميّز الشعر في العصر العباسي بكثرة موضوعاته، وابتعاد كثير منها عن الأغراض المرتبطة بالبلاط، ذات المقاصد المادية. ومن هنا اتسع، وتشعّبت معانيه، وصار يتناول الحياة بتفاصيلها مهما دقّت أو جلّت. ولقد كان لحركة الكتابة الضخمة والتدوين وجمع المجاميع الأدبية ولتطور الإحساس بالحياة المدنية أثرٌ مهم في استنبات تلك النصوص وحفظها. وإننا إذا قرنّا هذه الحركة الشعرية الكبرى مع الحركة التأليفية التي رعت ذلك الشعر وأنمته ووعته، لم نستبعد أن يقال الشعر في الكتاب!.

ولقد عمدت في هذا البحث إلى موضِع شعري هو (الكتاب) الذي قيلت فيه نصوص متباينة الأغراض والمعاني، وصببتُ جهدي خاصة على تتبّع (ثيمة theme) حب الكتاب، المنسربة داخل النصوص المتنوّعة، متبعا في ذلك المنهج الموضوعاتي، لافتاً النظر إلى أهمية (الكتاب) الوجدانية عند العرب، وما يدل عليه هذا من رفعة حضارية. وختمت البحث مصدّقاً ما افترضته قبل البحث من أن عامة الشعر المقول في الكتاب على اختلاف موضوعاته إنما انبعث من عاطفة الحب، ففشت فيه ثيمة (الحب)، وظهرت لأداء معانٍ لا يتوقّع ظهورها فيها.

تميّز الشعر في العصر العباسي بكثرة موضوعاته، وابتعاد كثير منها عن الأغراض المرتبطة بالبلاط، ذات المقاصد المادية، ومن هنا اتسع، وتشعّبت معانيه، وصار يتناول الحياة بتفاصيلها مهما دقّت أو جلّت، ولقد كان لحركة الكتابة الضخمة والتدوين وجمع المجاميع الأدبية أثرٌ مهم في استنبات تلك النصوص وحفظها، وإننا إذا قرنّا هذه الحركة الشعرية الكبرى مع الحركة التأليفية التي رعت ذلك الشعر وأنمته ووعته؛ لم نستبعد أن تَبدَعِ الأشعار في الكتاب ! مصدرِ الشعر ومآلِه !، فإذا فتشنا في الأغراض المشتهرة في الشعر العربي مدحا وهجاء ورثاء وغزلا ووصفا، سنجد أن أكثر ما يقال في الكتاب ـ على اختلاف بواعثه ومعانيه ومقاصده ـ يدرجه النقاد تحت غرض الوصف، دون ضابط يميز بين البواعث المتنافرة، والمعاني المختلفة، والمقاصد المتباينة، ودون تنبّه إلى ما فطن له ابن رشيق القيرواني من أن" الشعر ـ إلا أقله ـ راجع إلى باب الوصف"[1]، وسنجد أيضا أن الاهتمام النقدي بالشعر المقول في الكتب وما شابهها من مواضع القول ليس كبيرا، إذ هي في هامش الشعر العربي وفق النظرية الأغراضية للشعر، التي تصب اهتمامها على ما يدور في البلاطِ، محافلِهِ، أو أسماره، ولا تتناول ما عداه إلا تحلّة القسم.

ومما سبق أقول: لقد عمدت في هذا البحث إلى موضع شعري هو (الكتاب) الذي قيلت فيه نصوص متباينة الأغراض والمعاني، وصببتُ جهدي خاصة على تتبّع (ثيمة theme) حب الكتاب، المنسربة داخل النصوص المتنوّعة، متبعا في ذلك المنهج الموضوعاتي، لافتاً النظر إلى أهمية (الكتاب) الوجدانية عند العرب، وما يدل عليه هذا من رفعة حضارية.

ولقد سعيت جاهدا – قبل البحث – إلى تتبّع من وقف على هذا الموضوع الشعري من المعاصرين، فخرجت من ذاك بما يبهج، إذ التفت إليه غير واحد التفاتاً يدلّ على

---

(1)ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق: د.النبوي عبدالواحد شعلان، مكتبة الخانجي ،القاهرة ، ط١، ١٤٢٠هـ ٢/١٠٦٦.

استمرار تلك الروح المتوراثة المشبوبة بحب الكتاب، التي تتنبّه إذا وقعت على ما قيل فيه، فتجمع أشباهه ونظائره، ثم تخرجه للناس مجموعاً، ومن تلك الدراسات:

١. (الكتاب في الحضارة الإسلامية لعبدالله الحبشي)[١].

٢. (الكتاب في الحضارة الإسلامية للدكتور يحيى وهيب الجبوري)[٢].

٣ . (قالوا في الكتاب للدكتور هاشم فرحات والدكتور محمود سيد محمود يوسف)[٣].

٤. (عشاق الكتب لعبدالرحمن يوسف الفرحان)[٤].

٥ . (آداب إعارة الكتب في التراث الإسلامي لمحمد خير رمضان يوسف)[٥].

كما أُلِّفت في الكتاب كتب لا تمس موضوع هذا البحث مباشرة، مثل: (الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة للدكتور محمد كمال الدين عز الدين)[٦] و(حرق الكتب في التراث العربي لناصر الحزيمي)[٧] و(بيت الحكمة ودور العلم في الحضارة الإسلامية للدكتور يحيى وهيب الجبوري)[٨]، و(تصوير وتجميل الكتب العربية في الإسلام لمحمد عبدالجواد الأصمعي)[٩]، و(علماء احترقت كتبهم أو دفنت أو غرقت

---

(١) عبدالله الحبشي، الكتاب في الحضارة الإسلامية، شركة الربيعان للنشر، الكويت، ط١، ١٩٨٢م.

(٢) د.يحيى وهيب الجبوري، الكتاب في الحضارة الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

(٣) د. هاشم فرحات و د.محمود سيد محمود يوسف، قالوا في الكتاب، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض، ١٤٢٣هـ.

(٤) عبدالرحمن يوسف الفرحان، عشاق الكتب، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ

(٥) محمد خير رمضان يوسف، آداب إعارة الكتب في التراث الإسلامي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ.

(٦) د.محمد كمال الدين عز الدين، الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة، دار عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

(٧) ناصر الحزيمي، حرق الكتب في التراث العربي، دار الجمل، ألمانيا، ط١، ٢٠٠٣م.

(٨) د.يحيى وهيب الجبوري، بيت الحكمة ودور العلم في الحضارة الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ.

(٩) محمد عبدالجواد الأصمعي، تصوير وتجميل الكتب العربية في الإسلام ونوابغ المصورين والرسامين من العرب في العصور الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م.

أو محيت لأحمد الباتلي)[1]، و(مكانة الكتب وأحكامها في الفقه الإسلامي لخالد الشنو)[2].

وبعدُ، فإن أبرز ما يتميز به هذا الجهد الذي بين يديك عن كل تلك الجهود السابقة أنني أخلصت في جمع النصوص المقولة على الشعر دون النثر، وعلى المقول في (الكتاب) فحسب دون أدوات الكتابة والعلم ؛ إذ إني رأيت القول في الكتاب مختلفا عن القول في أدوات العلم بعامة اختلافا جعل الكتاب عند بعضهم ذاتاً معشوقةً متخلقةً خلقاً شعرياً. فالشاعر يحب الكتاب كما هو بورقه وجلده ورائحته، بله ما فيه من علم، وأنه وسيلة العلم، ولعل قصر النظر على الكتاب وحده أنجع عند استخلاص النتائج. وبناء الصورة الشعرية المتخيلة آنذاك للكتاب، ولو توسّعت في الدرس إلى أدوات العلم كلها (الورق والمحبرة والقلم...) لتحوّل البحث إلى العلم وأدواته وصناعته. وإنما أردت الكتاب بخاصة. واختلّ الهدف الذي سعيت إليه.

كما أنني اقتصرت على القرون الأولى إلى نهاية القرن السابع دون ما بعدها من القرون ؛ إذ إن هدفي هو النظر إلى المكانة الروحية للكتاب في أوج الحضارة الإسلامية، وأوج التأليف فيها، وذروة الإجادة الشعريّة قديما، ولم أقف عند سقوط الدولة العباسية (٦٥٦هـ) لأني أرى أن هذا التحديد لا يكاد ينضبط أدبيا لأمور عدة ليس هذا محل بسطها[3]، على أني في استشهادي فيما يليك لم أكد أخرج عن هذا التاريخ (٦٥٦هـ). ولكني أرى أن تحديد بداية الدراسة ونهايتها برؤوس القرون أضبط في الدرس الأدبي.

---

(١) د.أحمد بن عبدالله الباتلي، علماء احترقت كتبهم أو دفنت أو غرقت أو محيت: لطائف وأخبار، دار طويق، الرياض، ط١، ١٤٢٣هـ.

(٢) خالد بن عبدالرحمن الشنو، مكانة الكتب وأحكامها في الفقه الإسلامي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٣١هـ.

(٣) أوجزها إيجازا شديدا بقولي: إن هذا البحث ليس مرتبطا بشعراء الدولة العباسية، ولا برقعتها الجغرافية غير الثابتة على مدى القرون، التي تقلّصت في شطرها الثاني حتى صارت في العراق فحسب، بل في اجزاء منه.

كما أنني استقصيت في الجمع استقصاء لم أُسبَق إليه ـ فيما أعلم ـ إذ إن أوسع تلك الكتب التي سبقتني جمعاً هو (قالوا في الكتاب)، ووجدت أنني أشترك معه في نحو ثلاثمئة بيت[1]، وأفوقه بنحو الثمانمئة بيت، وهذه الأبيات المئة والألف قيلت كلها في القرن السابع وما قبله، وإن أثر ذلك الفارق سيظهر في الدراسة وإن لم أستطع إيراد كل تلك الأبيات في هذا البحث، وعلى سبيل المثال: لم أجد أحدا ممن سبقني – فيما اطلعت عليه – يشير إلى الشعر المقول في (أعيان الكتب)، وقد وقعت من ذلك على ثلاثة وسبعين ومئة بيت ! وهي مادة أدبية أفدت منها وأوردت بعضها فيما يليك، وإن سعة المجموع يظهر آثرها في البحث وإن لم يثبت المجموع كله، وسأجتهد في التحشية أن أثبت بعض مواضع الأشباه والنظائر للأبيات الممتّنة ؛ ليسهل على طلبة العلم الرجوع إليها، وسوف أثبت هذا المجموع كاملا بإذن الله حال تحويل هذا البحث الموجز إلى كتاب، ولست أنكر أنني أفدت من كل من سبقني نصوصاً لم أحط بها أول مرة، فكان جهدي ـ في الجمع ـ متمّما لجهودهم، وأثني عليهم وأشكرهم هنا.

كما يختلف جهدي أيضا باتباعي منهجا نقديا أدبيا في دراسة الموضوعات والأغراض، على خلاف من سبقني ممن اعتنوا بجمع الآثار والأخبار والأشعار جمعا دون دراسة.

وتبيّن لي بعدما أنهيت الجمع، وأعدت قراءة المجموع مرة بعد أخرى اشتراك عامة النصوص –مهما اختلفت أغراضها وموضوعاتها– في موضوع / ثيمة (الحب)، فينسرب فيها تبعا لذلك معجمان شعريان، وفضاءان تصويريان مرتبطان بذلك الموضوع هما: (العشق) و(الصداقة والمنادمة)، وعليه فإني أقمت العمل فيما يليك على مستويين:

---

(1) أشير إلى أنني نبذت مئات الأبيات مما أورده ؛ لعدم دخولها في الفترة المدروسة، أو الموضوع الذي اقتصرت عليه.

أولهما: تصنيف الموضوعات الشعرية المقولة في الكتاب. وقد بلغ ما صنفته من آبيات نحو مئة وألف بيت أغلبها من النتف والمقطوعات، واخترت منها نماذج للاستشهاد، ونظائر في الحاشية.

وثانيهما: تحليل الأبيات المستشهد بها تحليلا معجمياً وتخييليّاً؛ يكشف دلالاتها المحيلة على فضاءي (العشق) و(الصداقة والمنادمة). وهما فضاءان عائدان إلى موضوع /ثيمة (الحب). وقد ارتبطا بعامة موضوعات القول في الكتاب.

وسأقسم موضوعات الشعر فيما يليك قسمين: الموضوعات العامة التي يشترك فيها الكتاب مع غيره مصوغة في قالب غرضي كالمدح والرثاء. والموضوعات الخاصة بالكتاب التي ينفرد الكتاب بالشعر فيها كالإعارة. ووصف المكتبات.

وأشير إلى أنني أعد هذه الدراسة (موضوعاتية) لا لأجل تصنيف الموضوعات الشعرية فيها. فذلك التصنيف لا يصيّر الدراسة (موضوعاتية)!. بل لأنني تتبعت موضوعا واحدا يشكّل ثيمة (theme) مشتركة بين عامة النصوص المقولة في الكتاب. تظهر جليّة أحيانا، وتضمر أحيانا، ونادرا ما تختفي، هي ثيمة (حب الكتاب).

ويعتني النقد الموضوعاتي (thematique) بالكشف عن الثيمات المطّردة؛ ويرصد اطرادها؛ لأنه هو المقياس والضابط في تحديد الموضوعات. فمتى ما تواترت ثيمةٌ في النص أو في النصوص بغزارة استثنائية عُدّت موضوعا[1]. مهما كان الغرض الشعري الذي وردت فيه. فـ"الموضوع الرئيسي هو الموضوع الذي تتردد مفردات عائلته اللغوية بشكل يفوق مفردات العائلات اللغوية الأخرى"[2].

---

(١) انظر: د.عبدالكريم حسن. المنهج الموضوعي: نظرية وتطبيق. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر. بيروت. ط١. ١٤١١هـ. ٤١.

(٢) د.عبدالكريم حسن. الموضوعية البنيوية: دراسة في شعر السياب. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر. بيروت. ط١. ١٤٠٢هـ. ٣٤. وانظر له:

وإن رصد الثيمة/الموضوع لا يقتصر على الجذور الرئيسة للكلمات، أو الكلمات ذات الدلالات الأولى، بل يشمل الحقول الدلالية العامّة، ويعتني بالألفاظ التي تظهر في فلتات الاختيار المعجمي، أو في مضايق بناء الأخيلة، بين البدائل اللفظية المتكاثرة.

وعليه: فإننا قد نجد في نصوص الرثاء أو الهجاء ألفاظاً من معجم الغزل!، ويحق أن نتساءل، ما الذي جعل الشاعر يختار هذا الألفاظ بين بدائل لا تحصى كثرة، ولماذا ركّبها هذا التركيب دون غيره، وصاغها هذه الصيغة التخييلية دون سواها ؟، هل اختارها واعياً ؟ أم دفعها إلى سطح النص عقلُه اللاواعي؟، وما دلالة ترديد هذه الثيمات الساكنة في غير محلها المتوقّع ؟

ولا بد من الإشارة إلى أن "كثيرا من الباحثين يخلطون بين الدراسة الموضوعاتية، والنقد الأغراضي. يخلطون بين الدراسات التي تتناول الأدب في موضوعاته، مثل: (الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام لعبدالإله الصائغ)، أو (الإحساس بالزمان في الشعر العربي من الأصول حتى نهاية القرن الثالث لعلي الغيضاوي)، والدراسات الأغراضية وهي التي تحمل في عناوينها أسماء الأغراض، كالمدح أو الهجاء أو الغزل أو الاعتذار"[1]، وإن خير ما يلخّص فهم (الموضوع/الثيمة) قول ريشار (Richard): "الموضوع إحدى مقولات المعنى، وبشكل أدق: فإن الموضوع مقولة من مقولات الحضور المشهود بأهمية نشاطها في العمل الأدبي"[2]، فليس الموضوع في الدراسات الموضوعاتية الغرض، وليس هو المعنى العام للنص، بل هو قراءة دلالية واعية متأنية، تسبر النص أو النصوص، وتحلل

---

(١) أ.د. صالح بن الهادي رمضان، الخطاب الأدبي وتحديات المنهج، نادي أبها الأدبي، أبها، ط١، ١٤٣١هـ، ٢٢٤.

(٢) ج. ب. ريشار (G.B.Richar)، قراءة موضوعية (LECTURE THEMATIGUE)، محاضرة ألقاها في جامعة VINCENNE بتاريخ ٢٥/٢/١٩٧٦م. نقلا عن: د.عبدالكريم حسن، الموضوعية البنيوية: دراسة في شعر السياب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ، ٣٤.

وانظر هذه الكلمة أو نحوا منها بترجمة مختلفة:

ج. ب. ريشار، من محاضرة ألقيت في البندقية عام ١٩٧٤م، نقلا عن: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تأليف مجموعة من الكتاب، ترجمة: د. رضوان ظاظا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٤١٧هـ، ١٣٨، ١٣٩.

الوحدات المعنوية، لتصل من وراء ذلك إلى ثيمة متكررة تعدّ موضوعاً. وينفتح المنهج الموضوعاتي في سبيل الوصول إلى تلك الثيمة على كل ما يحتاجه من أدوات المناهج النقدية الأخرى، كدراسة المعجم، والتخييل، وهما الأداتان اللتان استخدمتهما في هذا البحث.

وإنني إذ أفترض أن عامة النصوص المقولة في الكتب منبعثة من حب الكتاب، وأن هذا الموضوع /الثيمة: (حب الكتاب) مندرج فيها، ثم أفحص تلك النصوص، وألتقط هذه الثيمات المتواترة معجماً وأخيلةً، من سياقاتها المتباينة، وأصدّق ما افترضته من خلال الكشف عن حقيقة ذلك التواتر الموضوعاتي ؛ أعدّني قد أنجزت الغاية التي سعيت وراءها.

والذي يدفعني إلى التشديد هنا على التفريق بين المنهج (الموضوعاتي) وما يسمّى بالمنهج (الموضوعي) أنك ستجد فيما يليك تصنيفاً للموضوعات، (المدح والهجاء...) ثم ستجدني سميتها موضوعات ولم أسمها أغراضاً !، وهذا سيوقع في الخلط بينها، وبين منهج البحث (الموضوعاتي)، وقد يظنّ ظانّ أنني أعد هذا التصنيف درساً موضوعاتياً، وما هو بذاك !، فما الذي دفعني إلى تصنيف تلك الموضوعات ؟ ثم لماذا أسميتها موضوعاتٍ ولم أسمها أغراضاً، لأخرج من الإلباس ؟!

أما الشق الأول من السؤال فإنني صنفت تلك الموضوعات لأثبت أن ثيمة (الحب) منسربة في كل الشعر المقول في الكتب على اختلاف معانيه وأغراضه، وليست منحصرة في المقول مدحا أو حبا للكتاب، ولو اقتصرت على هذا الموضوع الصريح لخرجت الدراسة عن المنهج الموضوعاتي، ولما صار للتتبعي الثيمة معنى !، لأنها لم تعد ثيمةً فحسب!، بل غرضا أو موضوعا هدف إليه الشاعر، وإن الثيمة لتأتي في موضع لا يتوقع ورودها فيه، وقد تبلغ من الخفاء مبلغا.

ثم إن بيان تنوّع تلك الأغراض /الموضوعات فيه دلالة على قيمة الكتاب في ضمير الشاعر، حتى إنه ليقول الشعر فيه على اختلاف حالاته العاطفية، ما يعود بنا إلى فهم علّة

انبثاث ثيمة (الحب) في النصوص. فلولا الحب لما كثر المقول وتنوّعت أغراضه/ موضوعاته.

أما الشق الآخر من السؤال فإنني صنّفتها موضوعاتٍ ولم أصنّفها أغراضاً لأنها لا تمثّل تمام التمثّل مقوّمات الغرض كما عُرِف واشتهر للإنسان مدحاً ورثاءً... كما أن بعض تلك الموضوعات ليس من الأغراض المشهورة المعترف بها أغراضاً من أغراض الشعر العربي. مثل القول في الاستعارة. وأنا مؤمنٌ أن أي تصنيف غرضي أو موضوعيّ لنصٍّ ما إنما هو تصنيف على التقريب. إذ من العسير أن يحقق نصٌّ واحدٌ . بكلّ ما فيه من بواعث ومقاصد ومعانٍ . غرضاً واحداً ؛ وبخاصة أن التصنيف نشاط قرائي. وتجربة دلالية يتلوان عملية الإبداع. ويستمران ما استمرت القراءة. ويتطوران معها.

ومهما يكن من أمر فإنني أرجو أنني فرقت بين المنهج الموضوعاتي الذي قصدت إليه. وهذه الموضوعات التي صنفتها. وأنني أبنت المراد من الدرس الموضوعاتي المتعلّق بثيمة الحب في كل النصوص المدروسة. واختلافه عن التصنيف الموضوعي للنصوص فيما يليك:

١. الموضوعات العامة:

١.١. المدح:

١.١.١. مدح الكتب بعامة:

تنتمي أغلب النصوص الشعرية الواصفة للكتب إلى غرض المدح . إذا سلّمنا بالمدح عنوانا عاما يندرج تحته كل نص منبعث من عاطفة إيجابيّة . ونمثّل لجملة تلك النصوص بقول السري الرفاء (ت ٣٦٦هـ): (من المتقارب)

وأدهَمَ يَسفِرُ عَنْ ضِدِّهِ ... كما سَفَرَ اللّيلُ إذا وَدّعا

بعثتُ إليكَ بهِ أخرساً ... يناغي العيونَ بما استودعا

صَمُوتٌ إذا زُرَّ جِلبابُهُ   أريبٌ فإنْ حَلَّهُ أمتَعا[1]

إن هذه الأبيات وصف مادح للكتاب. ولكنّك إذا فتّشتها وجدتها متّكئة في التخييل وفي المعجم على فضاء الغزل، فالكتاب يسفر سواده عن بياض، كما تسفر الحسناء بعد حجاب، وهذا الكتاب / المحبوب أخرس في حضرة الحبيب يتناجيان بالعيون، ويمتع إذا حَلَّت أزرار جلبابه!. إنها استعارات متكاملة تحيل إلى مشبّه به واحد هو المحبوب، وتستخدم ألفاظا تنتمي إلى معجم العشق. وإن هذه الأبيات بهذا الفضاء التصويري، وهذا المعجم الشعري تمثّل - أو تكاد - عامّة المقول في الكتاب على اختلاف الموضوعات كما سيتبيّن في درج الحديث.

وبعد التأمل في النصوص الواصفة مدحاً للكتاب رأيت أنها تخضع لمعنى مسيطر، هو تفضيل الكتاب على الإنسان، أو تفضيله على حاجات الإنسان الضرورية، أو متعه الروحية، فيكون الكتاب عوضا عنها. وفيما يلي بيان ذلك:

١.١.١.١. الكتاب عوض عن الإنسان:

من المعاني المدحية للكتاب الشائعة في النصوص أن أولئك الشعراء يفضلون الكتاب على الإنسان، بل يفضلونه في الغالب على الإنسان الحبيب القريب إلى القلب، كالصديق، والعروس[2]. وقد أحصيت من كل ذلك ما يربي على خمسين ومئة بيت. ومن جوامع ذلك قصيدة لأبي بكر القفال (ت ٣٣٦ أو ٣٦٥ أو ٣٦٦هـ) رُوي أنه كتبها على خزانة كتبه، منها: (من الطويل)

---

(١) السري الرفاء، ديوانه، شرح: كرم البستاني، مراجعة: ناهد جعفر، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ٢٨٦.

(٢) هذه المعاني - ومعان أخرى كثيرة غيرها فيما يستقبلك من النصوص الشعرية في هذا البحث - متناصة مع وصف الجاحظ للكتاب في الحيوان، وقد أعرضت عن التنبيه عليها في مواضعها لكثرة ذلك وظهوره.

انظر: الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١/٣٨-٤٢.

خليلـــي كتـــابي لا يعـــاف وصـــاليا	وإن قـــل لـــي مـــال وولـــى جماليـــا
وفـى لـي علـى حالّـي جمـالٍ وكبـرة	ولـــم يتجهّمنـــي لـــشيب قـــذاليا
على حين خانتني الحسان عهودها	وقطعـــن مـــن بعـــد اتـــصال حباليـــا
كتابي عشيقي حين لم يبق معشق	أغازلـــه لـــو كـــان يـــدري غزاليـــا
كتـــابي أب بـــر وأم شـــفيقة	همـــا هـــو إذ لا أم أو لا أبـــا ليـــا
كتـابي جليـسي لا أخـاف ملالـه	محـــدث صـــدق لا يخـــاف ملاليـــا[1]

اخترت هذا النص دون غيره ؛ لشموله أصناف الأحباء، أو أقرب الأقربين إلى الروح: (الخليل، والحِسان، والمعشوق، والأب البر، والأم الشفيقة، والجليس)، وإن في ذكر الكتاب بإزائهم، أو تفضيله عليهم لدلالة على محلّه من القلب ؛ ومن غير هؤلاء يأنس بهم الإنسان ؟!، ويحن إليهم، ويرتاح بحضرتهم، إلا أن يكون الكتاب وفق المنطق الشعري آنذاك، وإذا تأملت الأبيات مرة أخرى وجدتها تستمدّ من المعجم الشعري الغزلي، والأخيلة المتعلقة بذلك المعجم، ومن معجم المجالسة والمنادمة، حتى لا تكاد تخرج لفظة واحدة أو صورة واحدة في هذه الأبيات من إحدى هاتين الدائرتين.

ومن النصوص الجياد في تفضيل الكتاب على الجليس[2] قصيدة طويلة لابن يسير الرياشي (ت ٢٣٠هـ) وصف فيها اعتزاله الناس، ولجوءه إلى الكتب، منها: (من البسيط)

---

(١) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، تقييد العلم، تحقيق: يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية، ١٢٧.

(٢) انظر نصوصا أخرى: ابن طباطبا، شعر ابن طباطبا العلوي، جمع وتحقيق: جابر الخاقاني، منشورات: اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين، دار الحرية، بغداد، ٤٨، ٤٩.

البيهقي، إبراهيم بن محمد، المحاسن والمساوئ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف (سلسلة ذخائر العرب ٦١)، القاهرة، ١٩٩١م، ١/د١.

ابن قلاقس، ديوانه، تحقيق د.سهام الفريح، مكتبة المعلا، الكويت، ط١، ١٤٠٨هـ ٤٣٨.

أقبلتُ أهربُ لا آلو مباعدةً في الأرض منهم فلم يُحصِنّيَ الهربُ
لمّا رأيتُ بأني لستُ معجزَهم فوتاً ولا هَرَباً قرّبتُ أحتجِبُ
فصرتُ في البيت مسروراً بهم جَذِلاً جَارَ البراءة لا شكوَى ولا شَغَبُ
فرداً يحدّثني الموتى وتنطِقُ لي عن علمِ ما غاب عنّي منهمُ الكتبُ
هم مُؤْنِسون وألّاف غَنِيتُ بهم فليس لي في أنيسٍ غيرهم أرَبُ
لِلّهِ من جُلَساءٍ لا جَليسهمُ ولا عشيرهُمُ للسُّوءِ مرتَقِبُ
لا بادراتِ الأذَى يخشى رفيقُهمُ ولا يُلاقيه منهمْ مَنْطِقٌ ذَرِبُ[1]

نلحظ أن ابن يسير وصف نفسه قبل مجالسته الكتب بـ(الهرب، المباعدة، عدم التحصّن، الفوت) ثم بعد مجالسته الكتب دون الناس بـ(السرور، الجذل، الاحتجاب، الانفراد، الغنى) ووصف الكتب بـ(البراءة، الحديث، العلم، الأنس، الألفة، المجالسة، العشرة، الرفقة) وثمة معجم رابع انسرب في الأبيات دون ذكر للموصوف، هو معجم وصف الجلساء سوى الكتب !، وجاءت ألفاظه في سياق نفيها عن الكتب، وهذا ما يوضح الفرق بين مجالستها، ومجالسة البشر الذين يتصفون بـ(الشكوى، الشغب، السوء، الأذى، الخشية، المنطق الذرب)، وإن تداخل هذه المعاجم الأربعة، والتأمل في حقولها الدلالية يوضح أن الكتاب معادل موضوعي للمجتمع، وأن عاطفة حب الكتاب /الجليس تفوق عاطفة حب الأصدقاء الجلساء، إذ اجتهد في انتقاء ألفاظ المجالسة، وحشدها

(١) الجاحظ، الحيوان، ١/٩٤،٦-٩٦. الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٢٤. القرطبي، يوسف بن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي في روايته وحمله، إدارة الطبعة المنيرية، مصر، ٢/٢٠٣. الزمخشري، محمود بن عمر، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق: د. سليم النعيمي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، إحياء التراث الإسلامي، العراق، ١٩٧٦م، ٣/٢٨٩.

وصفاً للكتاب. ولم يكتف ببعضها، وكأنه يريد أن ينزع هذا الحقل الدلالي من البشر، ويضيفه إلى الكتاب. وانظر إلى مواضع ورود هذه الألفاظ الستة: (مؤنسون، ألاف. أنيس، جلساء، جليس. عشير) تجدها وردت في بيتين متواليين كادا يضيقان عن أي معنى أو لفظ سوى هذه الألفاظ العائدة إلى معجم واحد، وفي مقابل هذا الاجتهاد في إثبات المجالسة للكتاب نجد اجتهادا في نفيها عن الإنسان. يظهر ابتداء في معجم الهرب في مطلع الأبيات. ثم في انتقاء الألفاظ الدالة على جليس السوء من البشر ونفيها عن الكتاب. أما المعجم المتعلق بالشاعر نفسه، فهو معجم (السرور والجذل) بعد مجالسة الكتب. ويقابل معجم الهرب في الأبيات الأولى (أهرُب. مُباعدةً.لم يُحْصِنِّيَ. الهربْ، فوتاً).

ومن كل ذلك تظهر عندنا مقابلة رئيسة ابنت عليها الأبيات، معانيها وألفاظها وصورها:

نوع الجليس	وصف الجليس	وصف الشاعر
الإنسان	الشكوى والشغب	المباعدة والهرب
الكتاب	السرور والجذل	الأنس والرفقة

ويظهر التناقض بين (الوحدة والاحتجاب) و (الأنس والألفة والمجالسة...). وهذا التناقض هو الأس الذي يولّد صور الكتاب العجيبة، إذ هو جليس، وليس بجليس، محدّث ميّت، ناطق صامت. حاضر ماضٍ، فاعلٌ مفعول به، مؤثر غير مبادر. وكانت هذه الثنائيات مصدرا للمعاني والأخيلة والحلى اللفظية في هذه الأبيات، وفي كل ما شابهها من نصوص في تفضيل الكتاب على الجليس.

ويكتمل المعادل الموضوعي الاجتماعي بتفضيل الكتاب على العروس، أو الحبيبة، ومنه[1] قول أبي الحسن محمد بن معقل بن محمد الأزدي (ت؟) من قصيدة: (من الخفيف)

(١) انظر أمثلة أخرى: الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٤٤. الطرطوشي، محمد بن محمد بن الوليد الفهري، سراج الملوك، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر، ١٢٨٩هـ، ص٢٠٥-٢٠٦.

ليس شيء ألذ عندي ولا آ	نس لي من تأمل في كتاب
هو أشهى من ارتشاف رضاب	من حبيب من بعد طول اجتناب
أجتني من ثماره بارع العلـ	ـم مشوبا بلذة الآداب
ذاك أنسي من دون كل أنيس	وحبيبي من سائر الأحباب[1]

اعتمدت هذه الأبيات - في تفضيلها الكتاب على الأنثى المحبوبة - على معجم الغزل الحسي، واللذة الجسدية اعتمادا شبه مطلق. ولو حللنا ألفاظ الحقول الدلالية في الأبيات لوجدنا أن عدد الكلمات - سوى أدوات الربط - ثلاثون كلمة، منها خمس عشرة كلمة من ذلك المعجم: (ألذ، آنس، أشهى، ارتشاف، رضاب، حبيب، اجتناب، أجتني، ثمار، مشوب، لذة، آنس، أنيس، حبيب، أحباب)، وثلاث كلمات من معجم العلم: (كتاب، العلم، الآداب)، فلم تبق إلا ثنتا عشرة كلمة تستطيع إلحاقها بأحد المعجمين، وإن بلوغ الألفاظ الصريحة لمعجم واحد ما نسبته خمسون في المئة يعد سيطرةً تكاد تحيل النص من الموصوف الكتاب إلى وصف الحبيب، ولعل ما ساعد على بروز هذا المعجم وأخيلته التي تجعل الكتاب شبيها بالحبيبة أو تجعله إياها - في هذه القطعة وأمثالها - أمور منها: سهر الشاعر الليالي مع الكتاب، والليل زمن المبيت قرب الحبيب، فمن هنا تطرأ هذه العلاقة في ذهن الشاعر. وغضب النسوة من انشغال أزواجهن عنهن بالكتب، وتقع المقارنة. وعجز كثير من متلفي أموالهم على الكتب وأوقاتهم في الارتحال طلبا لها عن الزواج، فيعلّلون أنفسهم بادعاء الاستعاضة بالكتاب عن العروس.

ووجدت في تفضيل الكتب على الناس أنهم يفضلونها على مجالسة الملوك والوجهاء وأصحاب الأموال، في معنى يقابل التزام الشعراء والعلماء مجالس علية القوم طلبا للمال، من ذلك[1] قول أبي نصر الفارابي (ت ٣٣٩هـ): (من مخلع البسيط)

---

(١) الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٤٤، ١٤٤.

لمـــــا رأيــــت الزمـــــان نكـــسا	ولـــــيس فــــي الـــصحبة انتفـــاع
كــــل رئــــيس بــــه مـــلال	وكـــــــل رأس بـــــه صـــــداع
لزمـــت بيتــــي وصـــنت عرضـــا	بـــــه مـــــن العــــزة اقتنــــاع
أشــــرب ممــــا اقتنيــــت راحـــا	لهــــا علــــى راحتـــي شــــعاع
لـــــي مــــن قواريرهـــــا نـــــدامى	ومـــــــن قراقيرهـــــا ســــماع
وأجتنـــــي مـــــن حـــديث قـــوم	قــــد أقفـــرت مـــنهم البقـــاع[٢]

قدّم الفارابي أبياته بذم الصحبة، صحبةِ الأكابر بخاصة. ثم اختار الوحدة ولزوم البيت، ثم ذكر ما يستعيض به عن مخالطة الناس. وهو: الراح وقواريرها وقراقيرها والكتب !. وإن اقتران الكتب هنا بالراح ليشي باشتراكهما في حقول دلالية صرح الشاعر منها بحقل واحد هو (الصداقة والمنادمة)، إذ استخدم لفظتي (ندامى، سماع) للراح، واستخدم لفظتي (أجتني، حديث) للكتاب، ومهما يكن من أمر فإنه قد فضّل الانفراد بالكتاب والراح على مخالطة الناس. فهل يعني هذا أن حب الكتاب يساوي حب لذة الشراب وآلاته ؟ في المبحث الموالي طرف من جواب هذا السؤال.

٢.١.١.١. الكتاب عوض عن سائر الحاجات والمتع:

إذا كان في الكتاب عوض عن الإنسان كما مرّ، فإنه عوض عما دون ذلك. فقد أكثر الشعراء من القول في استغنائهم بالكتاب عن سائر ما يحتاجه الناس ويطلبونه،

---

(١) وانظر آمثلة أخرى: الثعالبي، عبدالملك بن إسماعيل، تتمة يتيمة الدهر، شرح وتحقيق: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ ١٩٩٠، ١٩١. القرطبي، جامع بيان العلم وفضله، ٢/ ٢٠٣

(٢) ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: د.نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ٦٠٧.

كالمال، والطعام، والشراب، واللهو، والنزهة في البساتين والرياض. يقول أبو هفّان (ت ٢٥٧هـ) مفضّلا الكتاب وما يجمعه على جمع المال: (من المتقارب)

إذا أنس الناس ما يجمعون ... أنست بما يجمع الدفتر

له وطري وله لذتي ... على الكأس والكأس لا تحضر[1]

تدور على الشرب محمودة ... لها المورد الخِرْق والمصدر

يغنّيهم ساحر المقلتين ... كشمس الضحى طرفه أحور

وريحانهم طيب أخلاقهم ... وعندهم الورد والعبهر [2]

انظر إلى المعجم الشعري للبيتين الأولين تجد أنه استخدم الجذر (أنس) في لفظتين: (أنس، أنست) واستخدم أيضا لفظتي (وطري، لذتي، الكأس) وتلك الألفاظ من معجم (الصداقة والمنادمة) ومن معجم (العشق) أيضا، وقد انفتح النص بأثر هذه الألفاظ على تلك المعاني في الأبيات اللاحقة ـ مع تصريحه قبلُ بأن (الكأس لا تحضر) ـ فذكر (الكأس، والشرب، والغناء، وسحر المقلتين، والحور، والريحان)! وكل ذلك مما يكون في مجالس الندامى، ومخادع العشاق، والذي يعنيني أن النص بمجمله يجعل الأنس بالكتاب ولذته معادلا موضوعيا للأنس بالشراب وكل ما يجري في مجالسه!، وما انفتح النص على هذه المعاني إلا لقوة ارتباطها بالكتاب ذاته، إذ الكتاب معادل موضوعي لها، ففيه كل المتعة واللذة اللتان فيها، وتلك إشارة إلى قوة الرابطة الروحية بين الكتاب وقارئه، تلك الرابطة تتجاوز المنفعة والعلم، إلى فضاء الحب واللذة.

ويقول أبو نواس (ت ١٩٨هـ) [1] واصفاً الفقر والجوع، والاستغناء بالكتاب عن الطعام: (من الخفيف)

---

(١) في الأصل (تحصَر)، وفي طبعة دار بيروت: (تحضر)، ورأيتها أقرب إلى الصواب.

(٢) البيهقي، المحاسن والمساوئ، ١/ ١٤.

عـــدم المؤنـــسين غيـــر كراريـــ   ـــسس يـــسلين همـــه فـــي قمطـــر

وجـــزاز فيهـــا غريـــب إذا جـــا   ع قراهـــا فمـــال بطنـــا لظهـــر

ثـــم والـى بـين الجـشاء كـأن قـد   بلـــغ الـــشبع مـــن قليّـــة جـــزر

والرقاشـــي مـــن تكرّمـــه تَجْـــ   ـــزأ[٢] أمعـــاؤه بإنـــشاد شـــعر[٣]

وانني لست غافلا عما في هذه الأبيات من المعابثة التي كانت بين أبي نواس والرقاشي (ت نحو ٢٠٠هـ) ولكن ذلك لا ينفي أنه حين أراد أن يذكر عوضا من الطعام هداه العقل التخييلي الشعري إلى الكتاب (الكراريس والجزاز) ؛ وهذا يدل على أن الكتاب راسخ في هذا المعنى، كما يحيل إلى ما كان يعرف من (حرفة الأدب) ونكد أهل العلم، وعدم استغنائهم بعلمهم، وإذا نظرنا إلى المعجم الشعري وجدنا أن معجمي (العشق) و (الصداقة) خافتان، إلا أنهما لم يغيبا في البيت الأول، إذ استخدم فيه هذه الألفاظ: (المؤنسين، يسلّين، هم) وذلك يحيل مرة أخرى إلى ما افترضناه بدءا من ارتباط كل موضوعات هذا الشعر بالحب، ومما يشير إلى هذا الارتباط في هذا المعنى قول السري الرفاء من قصيدة: (من الكامل)

وإذا خلـوت بهـن ظمـآن الحـشا   منحتـك مـن صـوب العقـول مناهلا[٤]

ولست أنظر إلى معنى الاستعاضة بالكتب عن الشراب، وأنها منهل عذب يروي الظمآن، بل أنظر إلى لفظة (خلوت) فالكتاب لا يطاوع صاحبه على ما يشتهيه حتى يختلي به !، فيهبه حينذاك ما يشاء.

---

(١) أخّرته عن أبي هفّان وهو المتقدّم ـ لأني قدّمت (المال) على (الطعام).

(٢) الجَزْء: الاستغناء بالشيء عن الشيء، انظر: لسان العرب (جزء).

(٣) أبو نواس، الحسن بن هانئ، ديوانه، تحقيق: أحمد عبدالمجيد الغزالي، دار الكتاب العربي ، بيروت، ٦٦ د.

(٤) السري الرفاء، ديوانه، ٣٦٠، الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٣٠، ١٣١.

وفي الكتاب شفاء يستعاض به عن الدواء ! وسلوى لمن أقلقه الهم والحزن. يقول أبو بكر الشيطان (ت ؟): (من البسيط)

إذا اعتللت فكتب العلم تشفيني   فيها نزاهة ألحاظي وتزييني

إذا اشتكيت إليها الهم من حزن   مالت إلي تعزيني وتسليني [1]

إن المغرمين بالكتب يجدون فيها كل حاجتهم، ليس ذلك خاصا بالحاجات الروحية فحسب، بل حتى الحاجات البدنية كالطعام والدواء[2]. كما يزعم حبهم للكتب وشعرهم فيها، كما أن الكتب تحب من يحبها وتحادث من يحادثها، وتخفف ألم الشكوى، وانظر إلى التخييل في قول الشاعر: (مالت إليّ) فهي لا ترخي سمعها له فحسب، ولا تعزيه وتسليه فحسب، بل تميل إليه بأبدانها ميلَ الصاحب المحب ! .

أما استغناؤهم بالكتاب عن النزهة في البساتين، والتريّض، وعن متعة الشراب ومجالسه، فإن النصوص في هذا كثيرة جيّدة، ومنسوبة إلى طبقة عالية من العلماء والشعراء، أختار منها قول ابن دريد (ت٣٢١هـ) ـ وقد ذكر بعض الكتب ووصفها بمتنزهات القلوب ـ: (من المتقارب)

ومن تك نزهته قينة   وكأس تحث وأخرى تصب

فنزهتنا واستراحتنا   تلاقي العيون ودرس الكتب[3]

وقول السري الرفاء من قصيدة يدعو فيها صاحباً له: (من الكامل)

---

(١) الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٤٣، ١٤٤.

(٢) انظر مثلا آخر: الثعالبي، عبدالملك بن إسماعيل، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ، ٤/ ٣٩٢.

(٣) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ٦/ ٢٤٩٨.

عنـدي إذا مـا الـروض أصبح ذابـلا ... تُحَـفٌ أغـضٌ مـن الريـاض شـمائلا

سُـقِيَتْ بـأطراف اليـراع ظهورهـا ... وبطونهـا طـلا أجـمّ ووابـلا

تلقـاك فـي حمـر الثيـاب وسـودها ... فتخـالهن عرائـسا وثـواكلا

ولهـا إذا حلّـت نِتـاج غرائـب ... يمكـثن مـا زرت بهـن حـواملا[1]

وقول القاضي الجرجاني (ت٣٩٢هـ) من أبيات: [من الخفيف]

مـا تطعّمـت لـذة العـيش حتـى ... صـرت للبيـت والكتـاب جليـسا[2]

إن هذه الأبيات وأمثالها لتدل على العلّة التي بها بزّ أولئك القوم أقرانهم، فقد اتخذوا الكتاب جدهم وهزلهم، أحبوه حباً صار به متعةً، وصارت الاستراحة من العلم بالنزهة في العلم !، وانظر إلى المعجم الشعري في هذه الأبيات تجده لا يخرج عن معجم الحب بفرعيه المتقدمين: (نزهته، قينة، كأس تحث، تصب، نزهتنا، استراحتنا، تلاقي العيون، أغض، ظهورها، وبطونها، تلقاك، عرائسا، لذة، جليسا) بل إن تأنيث الكتاب التخييلي يبلغ ذروته في بيت السري الرفاء الأخير، إذ جعل العلاقة بالكتاب تبلغ حد الإلقاح، والنتاج، ولكنه نتاج لا يبذل إلا لمن يبذل المهر، ويحلّ لباس تلك الكتب.

٢.١.١١. مدح أعيان الكتب:

من الموضوعات الشعرية التي تكاثرت نصوصها حتى بلغ ما جمعته منها ستة وستين ومئة بيت[3]: مدح أعيان الكتب، وهو مختلف عن (مدح الكتاب) الذي تقدّم،

---

(١) السري الرفاء، ديوانه، ٣٦٠، ٣٦١. الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٣٠-١٣١. المحبي، محمد أمين، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، تحقيق: عبدالفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٨٧هـ، ٢١٣/١.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ١٧٩٨/٤، ١٧٩٩.

(٣) وفي المقابل لم أجد في ذم أعيان الكتب إلا بيتين، هما إلى ذم المؤلف أقرب. انظر:

ابن دانيال، شمس الدين محمد، المختار من شعر ابن دانيال، اختيار: الإمام صلاح الدين ايبك الصفدي، تحقيق: محمد نايف الدليمي، مكتبة بسام، الموصل، ١٣٩٩هـ، ٢٤٦، ٢٤٧.

فذلك قول يقع على كل كتاب، أما هذا فيمدح كتاباً معيّناً، وغالب أشعار هذا الموضوع قصار، ذوات البيت والبيتين، ويظهر في بعضها فضاءا (العشق) و (الصداقة والمنادمة) جليين، ويتواريان في بعضها، ومن تلك النصوص نصان أوردهما ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) لقائلين مجهولين، أولهما في وصف مجموعة[١] : (من الطويل)

ومجموعةٍ فيها علوم كثيرة ... تقر بما فيها عيون الأفاضل

ألذ من النعمى وأحلى من المنى ... وأحسن من وجه الحبيب المواصل

حكت روضة حاكت يد القطر ... ومسّك رياها نسيم الأصائل

أطالعها في كل وقت فأجتلي ... عقائل يَغلي مهرها كل عاقل

وأمنعها الجهّال فهي حبيبة ... (جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي)[٢]

وثانيهما مقول في (رسائل الصابي)، منه: (من الكامل)

أصبحت مشتاقاً حليف صبابة ... برسائل الصابي أبي إسحاق

صوب البلاغة والحلاوة والحجى ... ذوب البراعة سلوة العشاق[٣]

---

(١) المجموع أو المجموعة هي ما كان المتعلقون بالأدب ينتقونه لأنفسهم في دفاتر أو كتب خاصة مما يطربهم من الأدب، وربما تحوّلت كتبا يتداولها الناس.

وقد كان وصف المجاميع الأدبية فاشياً كثيراً، وأكثر من أورد أمثلته صاحب مستوفى الدواوين، ولم أعتمد الأبيات التي أوردها لخروجها في الغالب عن الحد الزماني للموضوع.

انظر أمثلة: الأزهري، محمد بن عبدالله، مستوفى الدواوين، تحقيق: زينب القوصي و وفاء الأعصر (إشراف: د. حسين نصار)، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٤هـ ١/٦، ١/١٩٢، ١٩٣، ٢/١١٣، ١١٤.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ١/١٣.

(٣) المصدر نفسه، ١/١٣٢.

إن هذين النصين أنموذجان للنصوص التي تظهر فيها معاني عشق الكتاب والتعلّق به. وانظر إلى المعجم الشعري في النص الأول تجد فيه: (ألذ، أحلى، أحسن، الحبيب، المواصل، أطالعها، عقائل، يغلي مهرها). وأستمدّ من هذا المعجم أمرين، أحدهما أن ألفاظه تدل على حب عميق لم توفّه كلمة واحدة من هذه الكلمات (اللذة والحلاوة والحسن) فاحتاج إلى إيرادهن جميعا ليقول المعنى الذي في نفسه، وأوردهن بصيغة التفضيل (أفعل) ليبلغ من كل كلمة أقصى ما يمكنها أداؤه، وفضّل بهن الكتاب على (الحبيب المواصل). والأمر الآخر: هو أن الشاعر أراد أن ينفي كل عيب قد يحدثه تشبيه الكتاب بالحبيب المواصل، أو المعجم الغزلي الذي يكثر مثله في وصف المرأة اللعوب، فاحترس الشاعر في البيت الأخير وشبّه تلك المجموعة بعقائل النساء، ذوات المهور.

أما القطعة الثانية فتشبه الأولى في المبالغة في إظهار عاطفة الحب (مشتاقا، صبابة، سلوة، العشاق). واللذة (صوب، حلاوة، ذوب)، وهذان المعجمان الفاشيان في كثير من القطع الشعرية يبيّن أولهما صدق حب صاحب الكاتب كتابَه، ويبالغ الثاني في تلك العلاقة حتى يحيلها إلى لذة تكاد تكون حسية لا معنوية، وفي كلا المعجمين معانٍ تفضّل الكتاب على المحبوب الإنسان، فلا يعدل عندهم حبَّ الكتاب شيء.

وإن أطول ما وقعت عليه من نصوص مادحة لكتاب واحد ست قصائد في (دمية القصر) ختم بها صاحب الدمية كتابه مفتخرا به، تواطأن على تشبيه الكتاب بالحسناء، وسأورد بيتا أو بيتين من كل قصيدة منها[1]؛ تبياناً لذلك المعنى، فأولاهنّ قول البارع الزوزني (ت ٤٩٢): (من الطويل)

---

(١) رتبت هذه القصائد كما رتبها صاحب الدمية.

دمين خدود الغانيات بخجلةٍ لأنّ عليّاً قد جلا دمية القصر[1]

والثانية قوله أيضا: (من الطويل)

جلوت علينا دمية القصر غادةً فأضحت بألحاظ البريّة مأخوذه

فخفتَ عليها العين من كلّ عاشقٍ وقد عبتَها كذباً يكون لها عوذه[2]

والثالثة قول الفضل بن إسماعيل بن الفضل التّميميّ الجرجانيّ (ت٤٦٧هـ): (من البسيط)

وهي العرائس لا ترضى لبهجتها أن تستباح بلا ألف من البِدَر[3]

والرابعة قول يعقوب بن أحمد (ت ٤٧٤هـ): (من الطويل)

عقائلُ خدرٍ آنساتٌ كأنها بدور سماءٍ للنواظر تنجلي[4]

والخامسة قول أبي الفضل الخيريّ (ت؟): (من السريع)

ودمية القصر أتت كاسمها معشوقة المنظر والمخبر[5]

والسادسة قول عليّ بن أحمد الفنجكرديّ (ت٥١٣هـ): (من البسيط)

أم غادة فردةٌ في الحسن غانيةٌ فتانة أقبلت في حليها عطره

---

(١) الباخرزي، علي بن الحسن بن علي، دمية القصر وعصرة أهل العصر، تحقيق: د.محمد التونجي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ ٣/١٥٢١، ١٥٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ٣/١٥٢٢/ ١٥٢٣.

(٣)المصدر نفسه، ٣/١٥٢٣، ١٥٢٤.

(٤)المصدر نفسه، ٣/١٥٢٤.

(٥)المصدر نفسه، ٣/١٥٢٥.

فرعـــاء بهكنـــة خـــودٌ منعمـــةٌ غيـــداء خمـــصانة وهنانـــة خفـــره[1]

لم أكتف بالاستشهاد ببعض هذه القصائد لأني أعدهن أنموذجاً من وجوه، أولها: طولهن الذي يدرجهن ضمن القصائد التي صرف إليها الشعراء عنايتهم على خلاف المقطعات. وثانيها: أن صاحب هذا الكتاب قد حفظ هذه النصوص ونقلها، وربما نستدل بها على مفقود كثير في وصف الكتب - غير الدمية - لم يقيَّض له أن يثبته الكاتب في كتابه بعد تأليفه ومطيره بين أيدي الناس. وثالثها: أن هذه القصائد كانت عاملا من عوامل الحركة العلمية التأليفية وثرائها. إذ فيها تحفيز للكاتب. وفيها أيضا إشارة إلى الذات من قبل المتطلّعين إلى أن تثبت أسماؤهم على صفحات تلك الكتب. ومنهم من يصرّح بهدفه ذلك[2]!. ورابعها: أنه يظهر فيها كلها فضاء (العشق)، من خلال المعجم، ومن خلال تشبيه الكتاب بالحسناء، بأوصاف حسية لا معنوية !.

٣.١.١. مدح الكاتب كتابه:

ومن الموضوعات الشعرية في حب الكتاب: مدح الكاتب كتابه، وهو مثل سائر الشعر المقول في الكتب منبعث من عاطفة الحب. ويختلف عنه بظهور معاني الفخر والتصريح بها، إذ إن تعظيم الكتاب تعظيم لمؤلفه/الشاعر[3]. في حين لا تظهر معاني الفخر في سائر الموضوعات وتتوارى خلف ادعاء حب الكتاب، الذي يسلم إلى ادعاء حب العلم، الذي يسلم إلى أن يعد الشاعر من أهل العلم، ويرتفع بذلك.

---

(١) المصدر نفسه. ٣/١٥٢٥،١٥٢٨.

(٢) انظر مثلا: القفطي، علي بن يوسف. إنباه الرواة على أنباه النحاة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الكتاب العربي بالقاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية ببيروت. ط١، ١٤٠٦هـ ٢/١٧٤.

(٣) انظر مثلا: ياقوت الحموي. معجم الأدباء. ٤/١٧٦٩.

وتتباين تلك النصوص تباينا يسيرا بحسب موضع كتابتها. إذ تأتي في أربعة مواضع. أولها: أن تكون منقولة عن الكاتب في كتاب غير ذلك الكتاب[1]. وثانيها: أن يثبتها المؤلف على جلدة كتابه[2]. وثالثها: أن تكون في مفتتح الكتاب. ورابعها: أن تكون في خاتمته.

أما الأول والثاني فسأعرض عن ذكرهما صفحا مكتفيا بما أحلت إليه من نصوص في الحاشية ؛ إيجازا. وسأستشهد على الثالث والرابع ؛ إذ هما الأكثر ورودا. وفيهما غناء عن النوعين الأولين. فمن طريف ذلك أن ابن الحسين السراج (ت٥٠٠هـ) صاحب كتاب (مصارع العشاق) قد قسم كتابه اثنين وعشرين جزءا. افتتح كل جزء منها بثلاثة أبيات. كان حظ الجزء الأول قوله: (من الكامل)

هـذا كتاب مصارع العشاق ... صرعتهم يوما نوى وفراق

تصنيف من لدغ الفراق فؤاده ... وتطلّب الراقي فعزّ الراقي

فإذا تصفحه اللبيب رثى لهم ... أسرى الهوى آيسوا من الإطلاق[3]

---

(1) انظر مثلا: المصدر نفسه، ٨٦٤/٢ ـ ٨٦٥ ، ١٧٦٩/٤. ابن خلكان. شمس الدين أحمد بن محمد. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق: إحسان عباس. دار صادر. بيروت. ط٤. ٢٠٠٥م. ٣٦٨/٢.

(2) انظر عدة قطع في ذلك: الخطيب البغدادي، تقييد العلم. ١٣٤، ١٣٥.

وقد كان مؤلفو الكتب ونساخها ومالكوها يدونون على ظهورها فوائد متفرقة وأشعارا. ويصعب أحيانا الجزم بنسبة الأبيات إلى المؤلف أو الناسخ أو المالك. ومن طريف التأليف أن بعضهم جمع تلك الأشتات على ظهور الكتب، فألف منها كتابا. انظر:

جميل بن مصطفى بك العظم، الصّبابات فيما وجدته على ظهور الكتب من الكتابات. اعتنى به: رمزي سعد الدين دمشقية. دار البشائر الإسلامية. بيروت. ط١. ١٤٢٠هـ.

محمد خير رمضان يوسف، الغرر على الطرر: غرر الفوائد على طرر المخطوطات والنوادر. دار البشائر الإسلامية. بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ.

وقد حاكيا أبا الحسن القفطي في كتابه ـ المفقود من جملة ما فقده تراثنا العربي ـ (نهزة الخاطر ونزهة الناظر في احاسن ما نقل من على ظهور الكتب). انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء. ٥ / ٢٠٢٨، ٢٠٢٩.

(3) السراج، جعفر بن احمد ابن الحسين، مصارع العشاق، مطبعة الجوائب، الآستانة، ١٣٠٢هـ صفحة الغلاف.

ووجه الطرافة هنا - سوى تكرار افتتاح كل جزء بأبيات - أن حب الكتاب صار متمثلا في أبيات يكتبها عاشق للمرأة، ولكتابه. على ظهر كتاب صنفه في العشق وفي أخبار العشاق !، ولا يسوء هذا العشق المضاعف إلا وهن تلك الأبيات وتهافتها.

ولعل خير ما يستشهد به في هذا الموضوع أبيات وصف بها ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ) كتابه (معجم الأدباء) ؛ لجودتها قياسا على غيرها ؛ ولأن ياقوتاً قد اهتم بالقول الشعري في الكتاب، وأورد في الكتاب نبذاً شتى، استشهدت ببعضها في هذا البحث، فمن قوله في وصف كتابه: (من الطويل)

يرنّح أعطافي إذا ما قرأته	كما رنّحت شرّابها ابنة الكرم
ولو أنني أنصفته في محبتي	لجلّدته جلدي وصندقته عظمي
ولو أنني أسطيع من فرط حبّه	لما زال من كفي ولا غاب عن كمّي[1]

نجد في البيت الأول امتدادا للمعنى الذي يشبّه متعة الكتاب المعنوية بالمتع الحسية، وهي المبالغة التي تتكرّر كثيرا، وأرى فيها إثباتا لعمق العلاقة العاطفية بين الكتاب والإنسان. أما البيت الثاني فإنه - فيما أعلم - صورة مبتكرة، ما استطاع مثلها ياقوت - الذي لم يشتهر بالشعر - لولا أن حبه للكتاب فتّقها له، فهي لا تكاد تكون خيالات شاعر بل إحساسا حقيقياً يحسه مؤلف ذلك الكتاب، الذي يتمنى لو لم يفارق كتابُه يدَه لحظةً من ليل أو نهار كما صرّح في البيت الثالث.

أما ختم الكتاب بأبيات فذلك شائع، ويأتي في غالبه لمقصد الاستعطاء[2]، إذ يُهدَى الكتاب إلى ذي سلطان أو مال ويجتدي المؤلف جائزته بتلك الأبيات، وكان ذلك العطاء والاستعطاء مسهما في نموّ الحركة العلمية، ولم أورد أمثال هذا الشعر في موضوع

---

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء،١٢/١.

(٢) أو لمقاصد نفعية أخرى، كالتأريخ بالجمّل ليوم الفراغ من الكتاب، أو طلب الدعاء والذكر الحسن.

(الإهداء والاستهداء) . الذي سيأتي فيما يستقبلك . . لاختلافه عنه في البواعث والمعاني، إذ ليست هذه الهدية من هدايا الإخوان والمتناظرين، بل هي هدية في دائرة علمية تحوي أهل العلم ورعاته، ويقصد من ورائها نيل العطاء. وسأضرب على ذلك مثلا واحدا[1] هو قول علي بن ظافر الأزدي (ت ٦١٣هـ) في خاتمة كتابه (غرائب التنبيهات): (من الكامل)

نجز الكتاب وجاء يلهي من رأى	حسنا ويطرب بالملاحة من قرا
جمع المحاسن كلها فأتى بها	مصداق كل الصيد في جوف الفرا
إن كان نحو الغيث يذهب إنه	قد جاء روضا بالمعاني أزهرا
آهديت جوهره إلى بحر وذا	عجب لأن البحر يهدي الجوهرا[2]

ولا يفوتني هنا أن أشير إلى ما في الأبيات من معجم (العشق): (يلهي، رأى، حسنا، يطرب، الملاحة، المحاسن). فقد ارتبط المخيال الشعري الغزلي بالقول في الكتاب ارتباطا وثيقا، حتى لا يكاد ينفك عنه، فتجده يرد في موضوعات تستبعد وروده فيها كختم الكتاب بالاستعطاء في هذه الأبيات.

٢.١. الشكوى والبَرَم:

نجد بين بعض النصوص المقولة في الكتب والشكوى تواشجاً، إذ كثيرا ما يربط الشعراء فقرهم وبؤسهم بعلمهم، وفضلهم، ويرون أن المال عدو للعلم، وهذا معنى

---

(١) انظر أمثلة أخرى: الثعالبي، عبدالملك بن محمد، خاص الخاص، تحقيق: د. صادق النقوي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط١، ١٤٠٥هـ، ص٦٢٤، ص٦٢٥. ابن رشيق القيرواني، العمدة، ٢/ ١١٣٢. ابن الهبارية، شعره، جمع وتحقيق: د. محمد فاتز سنكري طرابيشي، وزارة الثقافة (إحياء التراث العربي)، دمشق، ١٩٩٧م، ص١٦٥، ١٦٦.

(٢) علي بن ظافر الأزدي، غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات، تحقيق: د. محمد زغلول سلّام و د. مصطفى الصاوي الجويني، دار المعارف، القاهرة، ١٧٠.

أثير لدى الشعراء تعاوروه بينهم، ووجدت صداه فيما قيل في الكتب. ومنه قول بعضهم من ستة أبيات في الشكوى: (من الوافر)

أنست إلى التفرد طول عمري — فما لي في البرية من أنيس

جعلت محادثي ونديم نفسي — وأنسي دفتري بدل العروس [1]

وقول أحمد بن فارس اللغوي (ت ٣٩٥هـ): (من الوافر)

وقالوا كيف أنت فقلت خير — تُقَضّى حاجة وتفوت حاج

إذا ازدحمت هموم القلب قلنا — عسى يوما يكون لها انفراج

نديمي هرتي وسرور قلبي — دفاتر لي ومعشوقي السراج [2]

وقد مرّت نتف من هذه المعاني فيما مر بك من أبيات وستمر فيما يستقبلك. والملحوظ أنهم في شكواهم لم ينعتقوا من معجمي (العشق والغزل) و (الصداقة والمنادمة)، إذ تجد ألفاظهما مبثوثة داخل الأبيات مثل (أنست، أنيس، نديم، محادثي، أنسي، العروس، القلب، نديمي، سرور، قلبي، معشوقي) كما أنك لن تجدهم في شكواهم يذمون الكتاب أو يجعلونه سببا للبؤس، رغم ربطهم الوثيق بين العلم والفقر، ولكنك تجدهم ينزهون الكتاب، ويرفعون محله، ويجعلونه الأنس والسرور، ويستعيضون به عن الصاحب والعروس !، رغم ما هم فيه من فقر مرتبط بالعلم !، ولعل الكتاب هنا ليس إلا وسيلة لإظهار التسامي عن الشكوى إلى الناس.

وإيغالا في تنزيه الكتب تجد الشعراء عند الضيق والبرم يحيدون عن هجائها إلى هجاء الناس الذين لا يعرفون قدرها، ولا يزنونها قيمتها. يقول أبو يوسف يعقوب بن أحمد بن محمد (ت ٤٧٤هـ): (من الطويل)

---

(١) الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٤٤. الطرطوشي، سراج الملوك، ٢٠٦.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٤١٢/١.

عرضت على الخباز نحو المبرد ... وكتباً حساناً للخليل بن أحمد

ورؤيا ابن سيرين وخط مهلهل ... وتوحيد جهمٍ بعد فقه محمد

وأنشدته شعر الكميت وجرول ... وغنيته لحن الغريض ومعبد

فما نفعتني دون أن قلت هاكها ... مدورةً بيضاً تطنّ على اليد[1]

ويقول ابن تميم الإسعردي (ت ٦٨٤هـ): (من الطويل)

عرضت كتابي كي يباع بدرهم ... على مشتر عند الوفاء شحيح

رأى خطه ذا علة فأعاده ... ومن يشتري ذا علة بصحيح [2]

فالكتاب في الحالين لم يجدِ نفعا، ولكنه ليس الملوم ولا المعيب. بل الملوم هو المشتري الجاهل، والمشتري الشحيح. وإنني لأعجب آن لم أجد نصوصاً صريحة في ذم الكتب، رغم كثرة ما يقال في (حرفة الأدب) و (شؤم العلم) و (حظ الجهل)، فعلى تكاثر النصوص في ذلك وتناسل معانيها، وتنافس الشعراء على الإغراب لم يجتز أحد منهم حدَّ التهوين من شأن الكتب والوضع منها، وما ذاك إلا لحبهم إياها، وتعظيمها في نفوسهم. وهو مما يطمئنني إلى صواب ما اتخذته عنوانا للبحث (حب الكتب)، ولو نظرت فيما ألزمت نفسي به من تتبع لثيمة الحب في هذه الآبيات فسأخرج بكلمتين منتميتين إلى معجم (العشق) هما: (حساناً) في القطعة الأولى، و(كتابي) في القطعة الثانية. وما

---

(١) الثعالبي، تتمة يتيمة الدهر،٢٠٣.

وهذا النص متناص مع نص نثري لبديع الزمان الهمذاني، وفيه يقول: "ولقد جهدت بالطباخ أن يطبخ من (زانية) معقل بن ضرار الشماخ لوناً فلم يفعل، وبالقصاب أن يسمع (آدب الكتاب) فلم يقبل، واحتيج في البيت الى شيء من الزيت، فأنشدت من شعر (الكميت) منتي بيت، فلم يغن كما لا يغني لو وليت".

انظر: الثعالبي، خاص الخاص، ٣٤،٣٥.

(٢) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الغيث المسجم في شرح لامية العجم، المطبعة الأزهرية المصرية، ط١، ١٣٠٥هـ ٦/١.

تدل عليه ياء الملكية. وكلمات أخرى منتمية إلى معجم (الصداقة والمنادمة)، هن: (آنشدته، شعر، غنيته، لحن، الغريض، معبد).

ولم أجد الكتاب يستعمل في معاني التبرم الذي يكاد يكون هجاء إلا في نصوص ثلاثة، أحدها[1] لأبي طاهر بن عمر بن شبة (٢٦٣ أو بعد ٢٧٠هـ) قاله على سبيل التملّح: (من المتقارب)

نظــرت فلــم أر فـــي العـــسكر	كـــشؤمي وشـــؤم أبـــي جعفـــر
غــدا النـــاس للعيـــد فـــي زينـــةٍ	مـــن اليـــوم فـــي منظـــرٍ أزهـــر
ونغـــدو علـــيهم بـــلا أهبـــةٍ	فـــراراً مـــن المنـــزل المقفـــر
فنقعـــد للـــشؤم فـــي عزلـــةٍ	مـــن النـــاس ننظـــر فـــي دفتـــر[2]

وما يدل على أنه مقول تملّحا وتظرّفا أن الشاعر إن كان يهجو فإنما يهجو نفسه وصاحبه قبل هجائه الكتاب فالشؤم منسوب إليهم جميعا. والأمر لا يعدو أنه قد نازعته نفسه إلى شيء من الترف يوم العيد، فلم يستطع إلى ذلك سبيلا، فعاد إلى الشعر مستعملا ما ورثه من الشعراء من الربط بين العلم والفقر.

---

(١) النصان الآخران ساخران، لجحظة البرمكي (٣٢٤هـ) وللكفرطابي (ت ٣٢ دهـ)، ذكرا فيهما تبرمهما بالأدب والعلم وحرفته، وشكواهما من الفقر، وأورد أحدهما اسم كتاب (النقائض)، وأورد الآخر كتاب (المقتضب) ممثّلين للكتب التي هي جزء مما ضاقوا به ذرعا. انظر:

جحظة البرمكي، ديوانه، تحقيق: جان عبدالله توما، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ٣٧. د. مزهر السوداني، جحظة البرمكي الأديب الشاعر، (يحتوي الكتاب على مجموع شعره)، مطبعة النعمان، النجف، ١٣٩٧هـ، ٣٠٠-٣٠١. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات (نسخة مصورة)، تحقيق: هلموت ريتر وآخرين، دار النشر فرانز شتاينر، شتوتغارت، ط٣، ١٤١١هـ، ٥/ ٢٤٧.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٥/ ٢٠٩٤. الحافظ اليغموري، أبو المحاسن يوسف، نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء، تحقيق: رودلف زلهايم، دار النشر: فرانتس شتاينر، فيسبادن، ١٣٨٤هـ، ٢٣١.

وهذا الشؤم المرتبط بالكتاب ليس معنيا على حقيقته، ولا يفهم منه أن الشاعر يكره الكتاب ويراه سببا للشؤم حقا، بل المقصود ما وراء ذلك من ذم للناس الذين لا يرعون الكتاب وأهله حق الرعاية، حتى غدا الجَهَلَةُ في أبهى زينة يوم العيد. لا يأبهون بالشاعر وصاحِبِه وعلمِهِما، فانعزلا. وما استطاعا التّمَاسَّ مع المجتمع في يوم العيد أبهى الأيام، وأحراها بالاجتماع والتواصل !، وحين انعزلا لم ينعتقا من الكتاب، ولم يتخليا عنه، بل تمسّكا به، إذ تصرح الأبيات بـ: (ننظر في دفتر)، كما يُفهم ضمناً تمسّكهما بالكتاب مهما يكن من فقر وعزلة من اختياره كلمة (الدفتر) ـ وهو المظهر الخلق للكتاب ـ، إذ تؤدي هذه اللفظة معنى الارتباط الوثيق بينه وبين الكتاب مهما تكن قيمة ذلك الكتاب وهيئته، كما تعزّز لفظة (الدفتر) الصورةَ الكاريكاتورية للمشؤومَين المنعزلَين يوم العيد بهيئتهما الرثة وبكتابهما الرث.

ولو شئت لقلت إن الأبيات أقرب إلى مدح الذات والافتخار بالكتاب منها إلى الهجاء، إذ إن الشاعر لم يستنكف أن يهجو ذاته بحب الكتاب والتعلق به، وليس هذا إلا فخرا !، فهو مدح بما يشبه الذم، وهو أدنى لقبوله وتصديقه من تكذيبه، لأن السامع يصدّق ذمّ المتكلم ذاتَه ولا يرده، فهو شاهد على نفسه، فإذا قبل هذا المعنى الهجائي كان الذامّ قد اختدعه بأن جعله يصدّق تعلقه بالكتب، وانشغاله بها دوماً حتى في يوم العيد !، وتركه متع الحياة في سبيلها، فينقلب الهجاء مدحا، ويصير الكتاب في كل آحواله حبّاً وحمداً، حتى حين يستخدم استنقاصاً وذمّاً !.

٣.١ الرثاء والتحسّر:

عُرِف رثاء الإنسان واشتهر، وعُرِف في الشعر العربي رثاءٌ لغير الإنسان، كان في الغالب الأعم من نصوصه هزلا وتملّحاً ما عدا رثاء المدن، ورثاء الكتب أيضاً، فقد رثى الشعراء كتبهم التي فقدوها رثاءً يظهر في بعضه عظم الفجيعة بفقدها، بل إن شعرهم رثاها قبل فقدها خوف فقدها !، بل إنهم تحسروا على كتبهم التي ستفقدهم

بعد موتهم !. وهذا إيغال في الرثاء لا أعرف شبيها له في الشعر العربي إلا ما يكون من التحسر على الأولاد الصغار عند من يستقبل الموت.

ومن ذلك[1] قطعة نفيسة لأبي الحسن الفالي (ت ٤٤٨هـ) كتبها على رقعة ضمّنها مجلدة من مجلدات كتاب (الجمهرة) لابن دريد وقد اضطر إلى بيعه: (من الطويل)

أنست بها عشرين حولاً وبعتها	فقد طال شوقي بعدها وحنيني
وما كان ظني أنني سأبيعها	ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لضعفٍ وافتقارٍ وصبيةٍ	صغار عليهم تستهل شؤوني
فقلت ولم أملك سوابق عبرةٍ	مقالة مشوي[2] الفؤاد حزين
"وقد تخرج الحاجات يا أم مالك	كرائم من ربٍّ بهن ضنين"[3]

إن اللوعة في هذه الأبيات ظاهرة، وإن الفقد أشبه بفقد الأحبة. وانظر إلى ألفاظ البيت الأول، تجد الشاعر استخدم الألفاظ: (أنست، شوقي، حنيني) وهي من معجم (العشق). ثم انظر إلى التحديد الزماني في قوله: (عشرين حولا) تجد له وقعاً في الروح، وتأثيراً على النفس، فالكتاب ليس شيئاً عابرا لا يؤبه به، بل إنه كالإنسان، يحفظ تاريخ مولده، ويقع تحت عين صاحبه يرقبه، ويرعاه، حولا وحولين وثلاثة، وكلما طالت عشرته

(١) اشتهر في رثاء الكتب التي أكلتها الأرضة نصان لابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) ولأبي هلال العسكري (ت بعد ٣٩٥هـ) ضربت عن ذكرهما صفحا ـ إيجازا. انظر:

ابن المعتز، أبو العباس عبدالله، ديوانه، صنعة: أبي بكر محمد الصولي، تحقيق: د. يونس أحمد السامرائي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ، ٢/ ٧٦، ٧٧د. أبو هلال العسكري، ديوانه، تحقيق: د. جورج قنازع، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٤٠٠هـ، د٦٥، ٦٦. أبو هلال العسكري، الحسن بن عبدالله، ديوان المعاني، تحقيق: أحمد سليم غانم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢/ ٨٢٤، ٨٢٥د، ٢/ ٨٢٥د، ٨٢٦.

(٢) الكلمة في وفيات الأعيان (مكوي) وهي الأشهر والأشعر ! إلا أنني اعتمدت الرواية الأقدم في معجم الأدباء. انظر الهامش الموالي.

(٣) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٤/ ١٦٤٧. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣/ ٣١٦.

ازداد تعلق القلب به. حتى إذا بلغ عشرين حولا التصق بالروح التصاقا. فكان يوم فقده يوما للحنين والتذكّر. تذكّر الأحوال التي عاشها عند مالكه. حولاً حولاً. فتفيض عبراته ويفيض شعره. وإن ذكر عدد الأحوال هنا قد أكسب هذه القطعة روحاً وقيمةً لم تكن لتكون لها دونه. وانظر إلى تأنيث الضمير في قوله: (بها. بعتها. بعدها. أبيعها) تجده زاد الأبيات لوعة. وقرّبها من فضاءات الغزل. وفراق الحبيبة. وقد كان للشاعر أن يستعمل ضمير التذكير العائد إلى (الكتاب). ولكنه اختار ضمير التأنيث العائد إلى (الجمهرة) أو (النسخة) أو (المجلدات).

ولو بحثنا في الدلالة الرمزية للنص لرأينا تقريعا للذات ولوما عنيفا لها. إذ يقسو الشاعر على نفسه مستنكرا جرأته على بيع هذا الكتاب الذي (آنسه) عشرين حولا حتى صار لصيقا به. قريبا منه. تجب حمايته كما يحمي أولاده - الذين استدعاهم مخياله الشعري في هذا النص - ولكنه لم يرع هذه الصلة والعشرة. وباع الكتاب !. وخان الود والعهد !. ثم بكى !. واجتهد أن يقنع نفسه بعذر ليرفع عنها الملامة. فذكر الفقر والأولاد. وألمح إلى قصة الأعرابي الذي باع ناقته مضطرا من خلال تضمين البيت الشعري الأخير[1]؛ ليشير إلى أنه لم يفعل بدعا من الفعل. وكأنما بنيت معاني النص لترتاح نفس الشاعر اللوامة !.

ولا عجب أن يبكي أبو الحسن كتابه فقد بكاه قبله وبعده جمعٌ من عشاق الكتب. وعدّ بعضهم فجيعة الكتاب فوق الفجيعة بالأخلاء والأصحاب. يقول ابن طباطبا (ت ٣٢٢هـ): (من الطويل)

إذا فجع الدهر امرأً بخليله تسلّى ولا يسلو لفجع الدفاتر[2]

---

(1) البيت الأخير مضمن. لأعرابي باع جمله وتبعته نفسه. انظر القصة كاملة: ياقوت الحموي. معجم الأدباء. ١٦٤٧/٤

(2) الراغب الأصفهاني. الحسين بن محمد. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء. تحقيق: د. رياض عبدالحميد مراد. دار صادر. بيروت. ط١. ١٤٢٥هـ ٢٤٤/١.

بل زعموا أن من أصحاب الكتب من تبلغ به الفجيعة حد الموت !. يقول عبدالحميد بن عبدالرحيم (ت ؟) من قطعة نظمها: (من الوافر)

وكم قد مات من أسف عليها — أناس في الحديث وفي القديم[1]

ولقد وجدت نصوصا تردّد معنى واحداً هو التأسي لحال الكتب بعد موت صاحبها، وصاحبها هو الشاعر نفسه!. فكأنما يرثيها إذا مات هو!. ولا يكاد يرى أحدا بعده سيفيها حقها، وما هي أهل له من الإكبار والتعظيم. يقول عبدالله بن علي المقرئ الحنبلي (ت ٤٩٩هـ): (من المتقارب)

نشحّ على الكتب من لمسة — تمس[2] ومن نظرة تنتظر

وتبصَرَ مجهولة بعدنا — بأيدي الجهول ومن يخبُر[3]

ويقول الفقيه نصر بن عبدالرحمن الإسكندري (ت ٦١ دهـ) : (من الطويل)

أُقلّبُ كُتْباً طالما قد جَمَعْتها — وأفنَيْتُ فيها العَيْنَ والعَينَ واليدا

وأصبحتُ ذا ضنٍ بها وتمسّكٍ — لعِلمِي بما قد صُغتُ فيها مُنَضَّدَا

وأحذَرُ جَهْدي أن تنَالَ بنائلٍ — مُبيرٍ وأن يغتالَهَا غائلُ الرَّدَى

وأعلمُ حقّاً أنني لستُ باقياً — فيا ليت شعري من يقلّبها غدا[4]

---

(١) الخطيب البغدادي. تقييد العلم. ١٥٠.

(٢) في الأصل (بمس).

(٣) الأصبهاني. عماد الدين. خريدة القصر وجريدة العصر . القسم العراقي. تحقيق: محمد بهجة الأثري. الجزء الثالث نشرته: وزارة الإعلام /سلسلة كتب التراث. العراق. ١٩٧٦م. ج٣ مج ١ /٢٧.

(٤) المصدر نفسه. قسم شعراء مصر. تحقيق: أحمد أمين وآخرين. دار الكتب والوثائق القومية (مركز تحقيق التراث). ١٤٢٦هـ. طبعة مصورة عن طبعة ١٩٥١م. ٢/٢٢٥.

هاتان القطعتان أنموذج لقطع شتّى كرّرت هذين المعنيين : (الخوف من فقد الكتب ـ كما في البيت الثالث ـ والتحسّر على الكتب بعد موت صاحبها) وتظهر الركاكة فيهن جميعا، وأرد تلك الركاكة إلى أن قائليها ليس محلهم من الشعر كمحلهم من العلم، وأن حب الكتب قد دفعهم إلى القول فيها شعرا. فصار هذا الضعف من هذه الجهة قوة للموضوع الشعري بعامة، أعني موضوع القول في الكتب بدافع الحب ؛ إذ إن هذه العاطفة المشبوبة قد دفعت غير الشعراء إلى قول الشعر.

وانظر الصورة الشعرية في قوله: (أقلّب) وقوله: (يقلّبها غدا) ـ وهي صورة تكرّرت في هذا المعنى[1] ـ تجد أنها صورة تكاد تكون مستمدّة من فضاء الحب والعلاقة الجسدية بين العشاق، وأعد النظر إلى القطعة الأولى تجد أن الشاعر يلجأ إلى فضاء (العشق) متخذاً معنى من معانيه هو (الغيرة) أساساً للتخييل، إذ هو يغار على الكتب أن تُمَسّ باليد، وأن ينظر إليها، فهي أشبه بالحبيبة التي يتملّكها صاحبها، ويغضب إن ابتذِلَت، أو رام أحد منها نظرة فما فوق ذلك. فالكتاب في العقل التخييلي مرادف للمحبوبة، يكاد يكون إياها، لحماً ودماً، بل إن كل تلك القطع التي تتحسر على الكتب قبل فقدها كأنما تنبعث من عاطفة الغَيرة، والرغبة في امتلاك الحبيب، وتلك عاطفة إنسانية يجدها الرجل تجاه زوجته، إذ يكره أن يلامسها رجل بعده.

ومن صور التواشج بين رثاء الكتب والغزل أن يستحضر الشاعر في نصه أنثى يخاطبها، أو يقارن كتبه بها، أو يتغزل بها ثم يذكر كتبه، ومن ذلك قول أبي الحسن علي بن محمد الخولاني المعروف بابن الحداد المهدوي (ت بعد ٤٨٠هـ): (من مجزوء الكامل)

قالـــت وأبـــدت صـــفحة	كالـشمس مـن تحـت القنـاع
بعـت الـدفاتر وهـي آ	خـر مـا يبـاع مـن المتـاع
فأجبتهـا ويـدي علـى	كبـدي وهمـت بانـصداع

---

[1] انظر مثلا: المصدر نفسه، ٢/٢٢٥، الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٢/١٤٥.

لا تعجبي مما رأيت فنحن في زمن الضياع[1]

والحظ أنه بعدما تغزّل بالمرأة، وجرى ذكر الكتب استخدم في الرثاء صورة ترد كثيرا في الغزل، هي صورة الكبد المنصدعة لوعةً، فباعث الحب المسيطر على هذه القطع يحدث أثرَه فيها على عدة مستويات. ظهر منها هنا مستويان، استحضار المرأة الجميلة، ثم استخدام فضاء التخييل الغزلي للكتاب دون تلك المرأة، فصار حب الكتاب أمكن في نفس الشاعر من حب المرأة ! ؛ إذ التفت عنها إليه، واستخدم له ما كان لها، ولست غافلا عما في هذه القطعة من دلالات . تكررت كثيرا في النصوص المشابهة . تحيل على ذم الزمان والناس؛ إذ لا يرعون العلم وأهله، حتى صار العالم مضاعا بينهم، لا يكاد يجد ما يأكل إلا بالتخلي عن العلم تخليا حسّياً ببيع الكتب !، ويرمز ذلك إلى التخلّي المعنوي ! ما دام حظ العالم دون حظ الجاهل.

٤.١. الغزل:

إن هذا البحث قائم على افتراض أن ما قيل من شعر في الكتب إنما قيل بباعث الحب إلا قليلا، ولقد وجدنا معجم الحب وأخيلته مبثوثة في الأبيات على اختلاف أغراضها، ولكن ذلك لا يمنع أن أخص الغزل بالحديث، وبخاصة أن المعاني الغزلية قد طغت على بعض القطع حتى قرّبتها من غرض الغزل أو كادت[2]!، من ذلك قول أحدهم: (من الطويل)

حبيبي من الدنيا الكتاب فليس لي إلى غيره ما بي إليه من الفقر

---

(١) الحافظ السلفي، أبو طاهر أحمد بن محمد، معجم السفر، تحقيق: عبدالله عمر البارودي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ ٢٤٠.

ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ د /٢٣١،٢٣٢.

(٢) مع تأكيد ما أشرت إليه في فرش البحث من أن التصنيفات الغرضية أو الموضوعية لا تكون إلا على التقريب، وجمع النظائر وفق مستويات معينة، ويندر أن يحقق نصٌ واحدٌ غرضاً منفرداً بكل بواعثه ومعانيه ومقاصده.

كلانـا لـصيق[1] الـروح بـالروح مـانح		دنـــواً بـــلا بعـــد ووصـــلاً بـــلا هجـــر

فـكرسـيه حـجـري إذا كنـت قاعـداً		وإن أضـطجع أفرشـه مـستلقياً صـدري[2]

إن المعالنة في بدء القطعة باتخاذ الكتاب حبيباً فوق كل حبيب لم تشف الشاعر. فكأنما خشي ألا يبعد ظن المتلقي، وأن يظن أن هذا الحب حب معنوي فحسب، فاقتض ذلك الإيغال في الخيال الشعري، فبالغ في وصف الحب، وإثباتِ أنه حب جسدي !. فالكتاب (يلتصق) بالجسد والروح التصاق العاشق بالمعشوق لا يفارقه في أحوال الجلوس والاضطجاع، واليقظة والمنام، بل إن تفضيل حب الكتاب على حب الإنسان يظهر من خلال ذكر (البعد) و (الهجر) الذي لا يقع إلا من الحبيب الإنسان. ولعل المبالغة في وصف العلاقة بين الكتاب وصاحبة ردُّ فعل على خيبة أملٍ وقعت للشاعر في الحبيب الحقيقي.

ومهما يكن من أمر فإنه ارتباط عشق يؤكد مرةً أخرى صحة ما افترضته من باعث قولهم الشعري في الكتب، وأنه نتاج الحب. ويَقَرّ ذلك أكثر إذا قرنّاه بالمعجم الغزلي الفاشي في سائر القطع.

٥.١. الإهداء والاستهداء:

من موضوعات الشعر الإخواني الفاشية آنذاك القول في الإهداء والاستهداء، كان ذلك كثيرا، يقال في كل شيء مهما دقّ أو جلّ، إذ يبعث المهدي بأبيات بين يدي هديته، ويشكره صاحبه بأبيات أخرى، وربما استهدى أحدهم هدية بأبيات، ووراء ذلك حركة أدبية تقتنص القول الشعري كل حين[3].

---

(١) في الأصل: (الضيق) وهو تصحيف، وفي المخلاة: "كأن لصوق". انظر الهامش الموالي.

(٢) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٣/ ٢٣٢. العاملي، بهاء الدين محمد، المخلاة، نسقه وفهرسه ووضع هوامشه: محمد خليل الباشا، عالم الكتب، بيروت، ط١، د٠٤٠٥هـ٢١.

(٣) انظر بسطاً لهذه المسألة: إبراهيم بن محمد أبانمي، هجاء غير الإنسان في شعر المشرق من القرن الثاني إلى نهاية القرن السابع: موضوعات الهجاء ومحركات القول وخصائصه، دار عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠١٢م، ٤٨، ٤٤، ٧٤، ٨١، ٢١٦، ٢٢١، ٢٣٠، ٢٣١.

ومن تلك الهدايا التي كثر القول فيها (الكتاب). ولا غرو. فـ(الكتاب) هدية أرباب الأدب والعلم. و(الشعر) زادهم ومستراحهم. فإذا اتفق أن يهدي أحدهم كتابا دون غيره من الهدايا كان ذلك أدعى لحضور الشعر. من ذلك[1] أن ابن أبي أصيبعة (ت٦٦٨هـ) أهدي إليه كتاب ؛ فأجاب المهدي بأبيات منها: (من الهزج)

بـــــدت أبكـــــار أفكـــــار	فكـــان الطـــرف فـــي عـــرس
ومـــــا أكثـــــر لـــــي فيـــــه	مـــــن الراحـــــة والأنـــــس
وقـــــد قابلـــــت مـــــا يحويـــــ	ـــــه بالتقبيـــــل والـــــدرس[2]

يلفت النظر في هذه الأبيات قدرة الشاعر على المزج بين معجمي الغزل والعلم مزجاً صيّرهما واحدا. نلحظ ذلك في البيت الأول حين استخدم الجناس (أبكار. أفكار) والجناس يوهم المتلقي بقرابة معنوية بين اللفظين كقرابتهما الصوتية. ونلحظ ذلك أيضا في الشطر الثاني حين استخدم الاستعارة. مشبّها عينه بالعروس حين اختلت بالكتاب واتصلت به وأطالت ترداد النظر إليه. ولا يتم المعنى هنا إلا بربطه بلفظة (أبكار) التي وردت في الشطر الأول. أو أنه أراد تشبيه اجتماع الأفكار في كتابه باجتماع الحسناوات في العرس. وطرفه آنسٌ بهنّ. يشاهدهن. ثم نلحظ ذلك المزج مرة ثالثة في البيت الثالث حين عطف كلمة (الدرس) على (التقبيل). وهما من معجمين متنافرين. يتآلفان في هذا الموضع وهذا الموضوع. وإن كان التقبيل يحيل على التعظيم في بعض المعاني. إلا أن ما تقدّم من أبيات يقرّبه إلى المعنى الغزلي.

---

(١) انظر أمثلة أخرى: الصاحب بن عباد. ديوانه. تحقيق: محمد حسن آل ياسين. دار القلم ببيروت ومكتبة النهضة ببيروت وبغداد. ط٢. ١٣٩٤هـ ١٩٦ـ١٩٧. الثعالبي. يتيمة الدهر. ٢/ ٢٨٠. ٢/ ٢٨٠ ،٢٨١. ٣/ ١٦٨.١٧١. الخطيب البغدادي. تقييد العلم. ١٣٢.١٣٣.

(٢) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء. ٢/ ٧. وانظر فيه قطعتين أخريين في الموضوع ذاته: ٣٦٩.

ومن اللطائف في هذا الموضوع أن الشعراء قد يتخذون الكتاب المحبوب وسيلة إلى التقرب من الإنسان المحبوب، ومن ذلك أن أبا الحسن محمد بن إبراهيم بن إسماعيل، الفقيه الطوسي (ت قبل ٤٠٥هـ) أعطى غلاما كتاب (العين) وكتب: (من الوافر)

كتاب العين ظلّ يقرّ عيني	ويصلح بين من أهوى وبيني
كتاب العين قوّاد لطيف	يحلُّ إليك عَصْمَ التفلتين[1]

ومثله أن أحمد بن كليب (ت٤٢٦هـ) افتتن بغلام اسمه أسلم - وقد اشتهر أمره - وأهدى إليه كتاب (الفصيح) وكتب عليه: (من المجتث)

هذا كتاب الفصيح	بكل لفظٍ مليح
وهبته لك طوعاً	كما وهبتك روحي[2]

تظهر طرافة هذين النصين إذا استحضرنا أن القول في الكتاب - عادةً - يستعين بالغزل، فيقترض من معجمه وأخيلته، ولكن الحال انقلب هنا، فاستعان الغزل بالكتاب؛ لينال من المحبوب ما يريد!.

عرضت فيما سبق الموضوعات العامة التي تقال في الكتاب وفي غيره، وثمّة موضوعات أخرى لم أجد لها كثير أمثلة فلم أفرد لها عنوانا، ومن ذلك - على سبيل المثال - (الألغاز)، فقد تناول بعض الشعراء الكتاب ملغزين به، والألغاز - إن صح عدّ مجموع نصوصها غرضاً شعرياً - كانت مما يحرص الشعراء على القول فيه في العصر العباسي الثاني بخاصة وما وراءه، وهي غرض من الأغراض الدالة على حظوة الشعر الاجتماعية، إذ تَطَرّى بها المجالس، وتشحذ القرائح، ويتنافس في حبكها، والإجابة عليها شعرا ونثرا

---

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر، ٤/ ٣٥٣.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ١/ ٤٢٥.

المتنافسون. وقد كان للكتاب حظٌّ منها، من ذلك قول ابن الخشاب النحوي (ت ٥٦٧هـ):

(من الطويل)

وذي أوجـــه لكنـــه غيـــر بـــائح بـسـرٍّ وذو الـوجهين للـسر مظهِـرْ

تناجيـك بالأسـرار أسـرار وجهـه فـتـسمعها بـالعين مـا دمـت تنظـر[1]

اعتمد الإلغاز في هذين البيتين على معجم (الصداقة والمنادمة). والفضاء التخييلي المحيل على ذلك المعجم. ففي البيت الأول تظهر المفارقة بين ذي الأوجه، وذي الوجهين. فالثاني جليس سوء، يستقبلك بغير ما يستدبرك به. أما الأول الملغَز فيه فذو وجوه كثيرة، ولكنه يرعى حق جليسه، ويحفظ سرّه. وهذه المفارقة ملبسة، إذ وصف جليسا محموداً بصفة سوء شكلية، وهي في الآن نفسه صفة محمودة. أما البيت الثاني ففيه أن هذا الملغِز محلٌّ للمناجاة، وموضع للأسرار، وحبيبٌ لا تملّه العين. وهذه الصفات لا تكون إلا للصديق من الجلساء. والذي يعنيني أن الإلغاز اعتمد على تلبيس الكتاب بالجليس الصديق ؛ وهذا نتاج اشتراك الأول مع الثاني في فضائه التخييلي. وما كان ذلك لولا أن الكتاب يحل من روح الشاعر ذلك المحل من المحبة، والأنس به، حتى ضارع الصديق والتبس به.

٢- موضوعات خاصة بالكتاب

٢.١. الاستعارة:

استعارة الكتب وإعارتها مظهر ثقافي ظهر جليّا في الشعر[2]، وقد أحصيت في ذلك ما يربي على سبعين ومئة بيت في القرون السبعة الأولى، ولم أعجب ؛ إذ إن كثرة القول في هذا الموضوع تصدّق ما افترضته من أن حب الكتاب هو باعث الشعر، فمستعير

---

(١) الأصبهاني، خريدة القصر، القسم العراقي، ج٣ مج١ / ١٠-١١. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٤/ ١٤٩٦. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣/ ١٠٣.

(٢) انظر: محمد خير رمضان يوسف، آداب إعارة الكتب في التراث الإسلامي.

الكتاب ومعيره يرغبان في الاستحواذ على ذلك الكتاب وتملّكه. فتظهر مناورات شعرية طريفة، وبخاصة القول في طلب الإعارة، ومنعها، وطلب إعادة العاريّة. وكل ذلك بين يديك:

١.١.٢ طلب إعارة:

تكاثرت القطع المقولة في استعارة الكتب وإعارتها، ولم تخرج - على كثرتها وتنوّع معانيها - عمّا نتلمّسه من باعث حب الكتب المسيطر على كل النصوص. فالمستعير يطلب الكتاب وكأنما هو يخطبه من أهله، والمعير يزفّه إلى المستعير بالشعر. من ذلك أن أبا الحكم منذر بن سعيد البلوطي (ت ٣٥٥هـ) كتب إلى أبي علي البغدادي القالي (ت ٣٥٦هـ) يستعير منه كتاباً: (من المجتث)

بحق ريم مهفهف	وصدغه المتعطف
ابعث إليّ بجزء	من (الغريب المصنف)[1]

فأجابه، وبعث به إليه مع أبيات قريبة في ألفاظها الغزلية من هذين البيتين. وأعد النظر في البيت الأول تجده اجتلب الصورة الفنية (الريم المهفهف) من الفضاء التصويري للغزل، ولا يُتَصوّر الرابط بين الفضاءين إلا إذا أقررنا بأن باعث القول هو الحب، حب الكتاب حبّاً كحب الحسناء. بل ربما طلب أحدهم الكتاب وأظهر لوعةً كلوعة العشاق. ومنه أن تميم بن المعز لدين الله الفاطمي (ت ٣٧٤هـ) كتب إلى أحدهم يستعير كتاب (القيان والمغنين) وبعث بأبيات منها: (من الخفيف)

فتفضل يا من حوى قصبات السـ	ـبق في كل جيئة وذهاب
بكتاب القيان إني إليه	ذو غليل ولوعة واكتئاب[2]

---

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٦/ ٢٧٢٢.

(٢) تميم بن المعز لدين الله الفاطمي، ديوانه، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط٢، ١٤١٦هـ ٦٤.

إن حب الكتاب هو الذي يولّد هذه المعاني الغزلية. والمعجم المستخدم في البيت الثاني معجم الغزل، حتى خيّل الكتاب أنثى يخطبها المستعير من وليّها[1]، ويتذلّل في ذلك، ولا يستنكف من التذلل.

وإن تقديم الشعر بين يدي استعارتهم الكتب يدل على ضنّ أرباب الكتب بها، حتى لا تكاد تستخرج إلا بالملاطفة. فإن لم يكن ذلك كذلك فإنهم لفرط حبهم الكتب يقولون فيها الشعر كل حين، ولست غافلا عن أن أرباب الكتب - معيريها ومستعيريها - من أهل الأدب، وأولئك يلذ لهم أن يتطارحوا الشعر. ومهما يكن من أمر فإن استخدامهم معجم الغزل، وأخيلته دالان على آن باعث القول هو عاطفة الحب.

أما المستعار منه الكتاب فإنه يزفّ كتابه بأبيات شعر يودّعه فيها، ويذكر أنه ما نزل عنه مع حبّه إياه إلا لحب المستعير، ومنه أن أبا الحسين علي بن محمد بن سعيد بن عبد اللطيف (ت؟) بعث بأبيات إلى من استعار منه كتابا، وفيها قوله: (من المتقارب)

ولــو لــم تكــن ثالــث النــاظرَين   لمــا كنــتَ نــاظرَه فــاعرف[2]

إن أبا الحسين لم ينزل عن كتابه الذي يحبه إلا لحبٍّ أكبر منه، حبِّه للمستعير، والحظ أنه قصر النظر إلى كتابه على ثلاث أعين، عينيه، وصاحبه الذي يعدّه عينا له، وهذا منبثق من معاني (الغيرة)، الغيرة على الكتاب حتى كأنه من محارم مالكه، يمنعه من أعين الناظرين كما يمنع نساءه. ولمّا أزمع إباحته وبذله للغريب فتّش عن مخرج يؤنسه ويسليه فلم يجد غير الإقناع التخييلي بأن جعل ذلك الغريب عينا ثالثة له، وعيناه الباصرتان يباح لهما النظر إلى محاسن الكتاب فيجري على الثالثة ما يجري عليهما.

---

(١) انظر شاهداً آخر قدّم له الباخرزي بمقدّمة صرّح فيها بمعاني الخطبة والزفاف: الباخرزي، دمية القصر،٢/ ٨٧٠.

(٢) الأصبهاني، عماد الدين، خريدة القصر وجريدة العصر - قسم شعراء الشام، تحقيق: د. شكري فيصل، مطبوعات المجمع العلمي العربي / المطبعة الهاشمية، دمشق، د١٣٧٥هـ، ٢/ ٨٦ .

٢.١.٢.منع الإعارة

ومن فرط حبهم الكتاب وخوفهم عليه أنهم كانوا يمنعونه مستعيره، ويعالنون بذلك، لا يستنكفون، ولا يعدونه بخلا، ولا منعا للماعون. بل إنني لم أحص من قولهم في الحث على بذل الكتب للمستعير إلا أربعة عشر بيتا[1]، ووجدت في الضن بها وإمساكها ثلاثة وثلاثين بيتا، وليس بالخفي أن المستعيرين إنما يطلبون الكتاب من الأصدقاء، وهذا ما يعظّم شناعة الإمساك، ولكنهم لا يعدونها شناعة، يقول بعضهم معتذراً عن امتناع إعارته: (من الطويل)

لصيق فؤادي منذ عشرين حجة وصيقل ذهني والمفرّج من همي

يعز على مثلي إعارة مثله وآيته ألا يفارقه كمي[2]

ويقول الآخر غير مستنكف أخذ الرهن من الصديق إذا أعاره كتابا: (من مجزوء الرمل)

أعِرِ الدفترَ للصا حب بالرهن الوثيق

إنه ليس قبيحا أخذ رهن من صديق[3]

ولنا أن نستنتج أن عشّاق الكتب ما تخلّوا عن خلق الكرم الذي تؤكده الثقافة العربية، ويرسخه العقل الثقافي الشعري، ويُعدّ ضده عيبا لا يكاد صاحبه يبرأ منه، إلا لحبّ ملَكَ جوارحهم وألهاهم عن التخلّق بالفضائل، بل صاروا كبخلاء الجاحظ يعللون

---

(١) انظر مثلا: الثعالبي، تتمة يتيمة الدهر،٢١٢. الأصبهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، القسم العراقي، ج٤ مج ٢/٤٧١.

(٢) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ٢٤١/١.

(٣) اليزدي، أحمد بن محمد بن جعفر، جزء فيه عاريّة الكتب، ملحق بكتاب: آداب إعارة الكتب في التراث الإسلامي، محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ ١٢٧. الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٤٩.

رذيلتهم، ويحيلونها إلى فضيلة [1]. ولعلي لا أبالغ إن قلت: إن منع الإعارة مردود إلى أن الكتاب عندهم معادل للأنثى المحبوبة، فلا يرد في أذهانهم الربط بين تلك النصوص الثقافية في ذمّ الإمساك وبين فعل إمساك الكتاب؛ إذ الأقيسة مختلفة. والكتاب - عندهم - ليس أداة ولا ماعوناً، بل هو معشوق يُغار عليه، ويُصان. تدلّ على ذلك أشعارهم ضمناً، وربّما صرّحت به تصريحا، يقول أحدهم: (من الوافر)

ومعشوقي من الدنيا كتابي وهل أبصرت معشوقا يعار [2]

٣.١.٢. طلب إعادة الكتاب إلى صاحبه:

وإن لمعتذر لهم أن يعتذر بما يلاقيه معيرو الكتب من حبسها عند مستعيريها، في مشهد عجيب، إذ يضن مستعير الكتاب بالكتاب [3] كما ضن به معيره من قبل، كلٌ يريد حيازته والفوز به، ولقد وجدت خير النصوص المقولة في الإعارة والاستعارة وأطولها ما قيل في استرجاع الكتب المحبوسة عند المستعيرين، فقد قال في هذا المعنى نفر من مشاهير الشعراء، منهم الحمدوني [4] (ت ٢٦٠هـ) وابن الرومي [5] (ت ٢٨٣هـ) وابن المعتز [6]

---

(١) انظر شاهدا يصرح بأنه ما منع الكتاب مستعيره إلا حباً: محمد خير رمضان يوسف، الغرر على الطرر، ١/ ٦٥.

(٢) محمد خير رمضان يوسف، الغرر على الطرر، ٢/ ٢٦٤.

(٣) وضد ذلك أني وقعت على قصيدتين يشكر فيهما المستعير المعير، لأبي العلاء المعري، ولناصر بن جعفر البوشنجي، انظر:

الخطيب التبريزي، الإيضاح في شرح سقط الزند وضوئه، تحقيق: د.فخر الدين قباوة، دار القلم العربي، حلب، ط١، ١٤٢٠هـ ٢/ ٨١٩-٨٢٧. الباخرزي، دمية القصر، ٢/ ٩١٨.

وقطعة يعتذر فيها المستعير إلى المعير عن فقد الكتاب المستعار، انظر: الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ١٥٠.

(٤) انظر: الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ٣/ ٢٣٦. ابن حمدون، محمد بن الحسن، التذكرة الحمدونية، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ٥/ ٨٨ - ٩/ ٣٥٣.

(٥) انظر: ابن الرومي، علي بن العباس، ديوانه، تحقيق: د. حسين نصار، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط٣، ١٤٢٤هـ ٥/ ١٨٤٣.

(٦) انظر: ابن المعتز، ديوانه، ١/ ٧٤٢.

(ت٢٩٦هـ) وكشاجم[١] (ت٣٦٠هـ) وابن سكرة[٢] (ت ٣٨٥هـ) وابن الساعاتي[٣] (ت٦٠٤هـ) وابن عنين[٤] (ت٦٣٠هـ). وغيرهم، وسأكتفي من مجموع ذلك بشاهدين، أحدهما يستمد معجمه وأخيلته من فضاء (العشق) والآخر يستمد من فضاء (الصداقة والمنادمة) يقول سبط ابن التعاويذي (ت ٥٨٣هـ) من قصيدة له قالها "وكان قد استام منه إنسان كتبا أدبية فأخرها عنده. ومطله ثمنها، وابتذلها: (من الكامل)

مهتوكة حرماتها مبذولة	صفحاتها محلولة أزرارها
قد أبديت عوراتها لكم وما	أنتم محارمها ولا أصهارها
ومن العجائب أنها نكحت ولا	صدقاتها حملت ولا أمهارها
فامنن عليها بالإياب فما نبت	عن مثلها أوطانها وديارها
واعطف لغربتها وطول مقامها	بذراك فهي رقيقة أبشارها[٥]

ويقول أبو القاسم الدينوري[٦] (ت نحو ٣٩٠هـ) من أبيات يسترجع بها كتاباً معاراً: (من الخفيف)

---

(١) انظر: كشاجم. محمود بن الحسين. ديوانه، تقديم وشرح: مجيد طراد، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م. ٢٣٢. الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ٢٤٣/١.

(٢) انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٥/ ٢٢٧٧، ٢٢٧٨.

(٣) انظر: الكتبي، محمد بن شاكر، فوات الوفيات، تحقيق: د. احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م، ٤/ ١٨٤ـ١٨٥. (وهي من فائت ديوانه: نشرة أمين المقدسي).

(٤) انظر: ابن عنين، محمد بن نصر، ديوانه، تحقيق: خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، ط٢، ٢٣٨.

(٥) سبط ابن التعاويذي، ديوانه، تحقيق: د. س. مرجليوث، دار صادر، بيروت، (مصورة من طبعة المقتطف بمصر ١٩٠٣م)، ٤٨٣.

(٦) أخرته عن سبط بن التعاويذي في الاستشهاد وهو المتقدم زمنا ؛ لأن أبيات السبط تتضمن معجم (العشق) وهو المعجم المقدم عندي على معجم (الصداقة والمنادمة) ؛ إذ الأول أكثر استخداماً، وألصق بالموضوع الرئيس: (الحب) الذي يسعى هذا البحث إلى كشفه.

أنـــا أشـــكو إليــك فقــد نـــديمٍ	قـــد فقـــدت الـــسرور منـــذ تـــولى
كـان لـي مؤنـساً يـسلي همــومي	بأحاديــث مــن منــى الــنفس أحلــى
عــن أبــي حــاتم عــن ابــن قريــب	واليزيــدي كــل مــا كــان أملــى
وهــو رهــن يــشكو إليــك ويبكــي	ويغنـــي: قـــد آن لـــي أن أخلـــى
فتفـــضل بـــه علـــي لأنـــي	لـــست إلا بمثلـــه أتـــسلى[1]

أما القطعة الأولى ففيها استرجاع للكتاب وإن لم يكن بذله على سبيل الاستعارة، ويلفت النظر فيها أنها تعتمد الفضاء التخييلي للنكاح في صور متسلسلة، مزجت بين الصور الحسية التي يشبه فيها الكتاب بالفتاة التي حملها زوجها واستحل حرمتها والصورة المعنوية في البيت الأخير، حيث جعل الكتب تعالج الغربة، وطول البعد، وهذا يشير إلى سمو الإحساس الذي يشعر به صاحب الكتاب تجاه كتابه، فهو لا يحبه ويشتاق إليه فحسب، بل يظن أن الكتاب يحبه أيضا ويشتاق إليه!، وأن للكتاب منزلا ووطنا يأنس فيهما، ويستوحش إذا ابتعد عنهما، إنها رابطة عاطفية بين الإنسان والكتاب لا نكاد نجدها لغيره من الجمادات.

وأما القطعة الثانية فتستغل فضاء (الصداقة والمنادمة) وهو الفضاء الثاني من فضاءات الحب، ونجد أن معجم الصداقة والمنادمة مبثوث في كافة أبيات هذه القطعة: (أشكو، نديم، السرور، مؤنساً، يسلي، همومي، بأحاديث، ويغني، أتسلى).

---

(١) الكلاعي، محمد بن عبدالغفور، إحكام صنعة الكلام: في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت، ط٢، د ١٤٠٥هـ، ٥٢-٥٣، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٤/١٥٣٧، الكتبي، فوات الوفيات، ٢/١٧٨.

هاتان القطعتان أنموذج من قطع متكاثرة يجمع بينها أن معانيها تكاد تعادل المعنى الغزلي: استزارة المحبوبة، واستبطاءها، وحثها على إنجاز ما وعدت به مما يخفّف من شوق المحب.

٢.٢. وصف المكتبات والمكاثرة بالكتب:

من القول في الكتب وصفُ المكتبات وصفا مادحا، وافتخار الشاعر بمكتبته وما تحويه من النوادر، أو القول في ضد ذلك، ومنه أن أمين الدولة بن التلميذ (ت ٥٦٠هـ) لما اجتاز بساوة دخل إلى دار كتبها التي وقفها موفق الدين أبي طاهر بن الحسين بن محمد (ت؟) فقال فيها من قطعة: (من المنسرح)

وفّقت للخير إذ عممت به	طلابه يا موفق الدين
أزلفت للناس جنة جمعت	عيون فضل أشهى من العِين[1]

ومنه أيضا أن المستعصم بالله (ت ٦٥٦هـ) أنشأ في داره خزانة كتب زينها بأشعار مكتوبة على جهاتها الأربع، منها ما نظمه صفي الدين عبدالله بن جميل (ت ٦٦٩هـ): (من الكامل)

أنشا الخليفة للعلوم خزانة	سارت بسيرة فضله أخبارها
تجلو عروسا من غرائب حسنها	درُّ الفضائل والعلوم نثارها[2]

يجمع بين القطعتين ـ سوى وصفهما للمكتبتين، ومدح صاحبيهما، وذكر سيرورة ذكرهما ـ أنهما تستخدمان الفضاء التخييلي للغزل !، فالقطعة الأولى فيها تفضيل عيون

---

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ٣٧١.

(٢) الحوادث، لمؤلف من القرن الثامن الهجري، وهو الكتاب المسمى وهماً بالحوادث الجامعة والتجارب النافعة المنسوب إلى ابن الفوطي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، و د.عماد عبدالسلام رووف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ٢١٣.

الكتب على الحسناوات (العين). واستخدم لذلك أفعل التفضيل: (أشهى). ويحيل ذلك على معجم اللذة والمتعة. وهو تفضيل من جهة الشهوة لا يستدني مثله العقل حين يفكّر في الكتب. إذ إن تعامل الإنسان مع الكتاب في الواقع لا يكون من هذه الجهة. وذلك يثبت الارتباط عاطفيا بين الإنسان والكتاب، وربطه في المخيال الشعري بالمرأة الفاتنة. أما القطعة الثانية فشبه فيها الكتاب بالعروس على سبيل الاستعارة التصريحية، وشبه العلوم فيها بالنثار الذي يلقى على العروس. وقد غضضت النظر عما في القطعتين من تهافت ؛ وإنما استشهدت بهما مقتنصا هذه الرابطة بين الكتاب والحسناء. المحيلة على فضاء (الحب والغزل). وتتضاعف دلالة ورود ذلك الفضاء إذا تذكرنا أن القطعتين قيلتا في سياق متمحض للجد. وأنهما تميلان إلى المدح. فهما أبعد ما تكونان عن اللهو وفضاءاته. وعلى ذلك لم تنعتق الأخيلة المستخدمة للكتاب فيهما من ثيمة الحب. فكأن الفضاء التخييلي للغزل صار فضاءً تخييليا أصيلا للكتاب. وهو ما لحظناه في أكثر من موضع في هذا البحث.

ومن افتخار الشعراء بجمعهم الكتب وشغفهم بها قول محمد بن سلامة المقرى (ت ٤٥٤هـ): (من البسيط)

إني لما أنا فيه من منافستي	فيما شغفت به من هذه الكتب
لقد علمت بأن الموت يدركني	من قبل أن ينقضي من حبها أربي[١]

تصرّح هذه النتفة بـ(الشغف والحب) واجتهد صاحبها في إثباتهما. وقد استخدم لفظة (المنافسة) التي تشير إلى دافع نفسي وراء جمعهم تلك الكتب هو أنهم يتنافسون بينهم ،كل يريد أن يحوز قصب السبق. ويظفر بما ليس عند غيره. إنها أشبه بالهواية التي يثبتون بها ذواتهم. وتفوّقهم على أقرانهم. فصار الحب وسيلة لإثبات الذات، وصار الكتاب حجة تثبت انتماء عاشقه إلى أهل العلم. فكأنّما يرفع الإنسان قدره

---

(١) ياقوت الحموي. معجم الأدباء.١/١٣.

ويعرّف نفسه بوسيلة الكتب وحبها ؛ وعلى هذا ينقلب حب الكتاب إلى حب الذات، فلا يكون الكتاب معشوقا إلا بمقدار ما يشبع نرجسية صاحبه.

وقد أحدثت هذه (المنافسة) في التكاثر نصوصاً - بلغ ما جمعته منها ثمانية وثلاثين بيتا - في ذم الاشتغال بجمع الكتب دون حقيقة التعلم، وإذا سلّمنا بالمعاني الظاهرة لهذه النصوص من تعظيم للعلم ذاته، واستياء من الانشغال بقشوره[1] فإننا لا نعدم الإشارات التي تدل على أن من تلك النصوص ما كان نتاج الانهزام في المنافسة على التكاثر، ثم ادعاء أن القيمة الحقيقية هي فيما يتقنونه من العلم لا في تلك المظاهر. يقول كشاجم من قصيدة: (من مجزوء الكامل)

يـــا مــــن يكـــاثر بالـــــدفاتر ... تحـــشو بهـــا حـــشو المـــساور

لـــو كنـــت أجمـــع غيـــر مـــا ... يُختـــار مـــن غـــرر النـــوادر

لجمعـــــت مـــــا لا يـــــستقلْ ... ـــلَ بحملــــه كُــومُ الأبـــاعر

واعلــــم بــــأن العِلــــم مـــا ... أوعيـــت فـــي صـــحف الـــضمائر[2]

إن العلم ليس ما يكتب في كتاب، بل ما يكتب في الضمير. وإن هذا التهوين من الكتاب لا يؤخذ على حقيقته، فالشاعر أراد الرفع من شأن نفسه إذ رأى الآخرين اتخذوا (كثرة الكتب) معيارا من معايير رفعهم أهل العلم والأدب، أو وضعهم، ولم يرد أن يضام من هذه الجهة، فكان تهوينه من شأن الكتاب رفعاً لذاته وإعلاءً لشأنه، فقد غلب حبُّ الذات حبَّ الكتاب- وإن كلا الطرفين - المنتصر والمهزوم - جعل الكتاب وسيلة للافتخار بذاته ؛ إذ يلتقيان في انطلاقهما من حب الذات، ويهدفان إلى تفخيم الذات، بوساطة

---

(١) انظر مثلا: الجاحظ، الحيوان، ١/ ٥٩. الثعالبي، عبدالملك بن محمد، تحسين القبيح وتقبيح الحسن، تحقيق: علاء عبدالوهاب محمد، دار الفضيلة، القاهرة،٦٣-٦٤. الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١/ ٢٤٠. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٦/ ٢٦٤د.

(٢)كشاجم، ديوانه، ١٣٢.

تفخيم شأن الكتاب بادعاء حبه، أو التهوين من شأنه بادعاء أنه عرضٌ لجوهر العلم. ومن هذا أقول: إنه لم يغلب حبَّ الكتاب شيء إلا حب الذات!، ولا غرو، فما كان حبُّ الكتاب إلا نتيجة حب الذات !.

ومما يشير في هذا النص إلى اندراجه في تلك الروح التنافسية استخدامه لفظة (المساور) والمساورة هي الحدة والمواثبة والمقاتلة. ولعلهم كانوا يحتشون تحت ثيابهم في المساورة ما يقيهم أذى الضربات، ومهما يكن من أمر فإن ما يعنينا هو أن هذه الكلمة ما وردت هنا إلا لأن المساورة /المنافسة كانت من بواعث القول. بل إن هذه المساورة قد تبلغ حد إتلاف الكتب أو إحراقها. فلا يكون جواب صاحبها المتألم إلا ادعاء أن العلم ليس فيها، والتهوين منها تهوينا لا يقوله صاحب الكتب ـ المفجوع بها الذي يحبها ـ لو لم يدفع إليه دفعا، منه قول ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ) حين أحرق ابن عباد (ت ٤٨٨هـ) كتبه !: (من الطويل)

وإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي	تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي	وينزل إن أنزل ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رقٍ وكاغدٍ	وقولوا بعلمٍ كي يرى الناس من يدري
وإلا فعودوا في المكاتب بدأةً	فكم دون ما تبغون لله من ستر[1]

ولقد منعته المساورة والمنافسة من التفجع على كتبه وإظهار حبها بادعاء أنه أكبر منها، وأن قيمته في ذاته، وليست في تلك الكتب. ولكننا لا نفقد إشارات اللوعة وحب الكتاب في هذه القطعة، إذ تبدّت في تكراره مرادفات كلمة الكتاب (القرطاس، القرطاس، رق، كاغد)، وذكره (الدفن والقبر) وكأنه مشاعر الرثاء التي تضغط على روحه الشاعرة تتفلّت ألفاظها من حيث لم يرد.

---

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٤/ ١٦٥٧

وفي غمرة هذه المعاني المشحونة بالتدافع بين حب الكتاب وحب الذات لا نفقد حضور فضاء الحب والغزل في المعجم الشعري وفي الأخيلة، يقول الحسن بن أحمد بن معقل الأزدي (ت؟) واصفا مكتبة لا ينتفع بها صاحبها من قطعة: (من البسيط)

بل إنه معجب فيها ومقتنع   من علم باطنها بالظاهر الحسن[1]

وإن وصف هذا الرجل المكتفي من الكتب بحسن ظواهرها لينظر من طرف خفيّ إلى صورة الرجل الذي يُختَدَعُ بالمرأة (خضراء الدمن)، ولا يفتش الباطن ولا يعنيه أمره.

قدّمت موضوعين من الموضوعات الشعرية الخاصة بالكتاب، وثمّة موضوعات أخرى سأعرض عن التمثيل لها وتحليلها ؛ جنوحا إلى الإيجاز ؛ ولأن نصوصها لا تبلغ عددا ما بلغه ما استشهدت عليه من موضوعات، منها القول في وصف سوق الكتب[2] والحث على كتابة الكتب، وفيه معانٍ لطيفة، وأخيلة تذكر (إلقاح) الأفكار والخواطر، وتشبّه الكتب بـ(النسل)[3]، والقول في ضرورة تصحيح الكتب قبل نشرها[4]، والقول في سرقة الكتب، ومنه السرقة العلمية[5].

* * *

---

(1) السمعاني، عبدالكريم بن محمد، أدب الإملاء والاستملاء، نسخة معتمدة على طبعة بتحقيق: ماكس فايسفايلر، دار الباز، مكة المكرمة، ودار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1401هـ، 147.

(2) انظر مثلا: الثعالبي، يتيمة الدهر، 4/427. الخطيب البغدادي، تقييد العلم، 125.

(3) انظر مثلا: الثعالبي، تحسين القبيح وتقبيح الحسن، 81. الخطيب البغدادي، تقييد العلم، 119. ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط3، 170.

(4) انظر مثلا: تميم بن المعز، ديوانه، 310. الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، 3/236. الكتبي، فوات الوفيات، 4/334. الحافظ السلفي، معجم السفر، 165، 166.

(5) انظر مثلا: الثعالبي، يتيمة الدهر، 4/395. الأصبهاني، عماد الدين، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء بلاد العجم، تحقيق: د. عدنان محمد الطعمة، مرآة التراث، طهران، ط1، 1419هـ، 1/210. علي بن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1413هـ، 99. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 1/379.

وأختم هذا البحث مصدّقاً ما افترضته قبل البحث من أن عامة الشعر المقول في الكتاب على اختلاف موضوعاته إنما انبعث من عاطفة الحب للكتاب. ففشت فيه ثيمة (الحب)، وظهرت لأداء معانٍ لا يتوقّع ظهورها فيها.

كما أن كثرة الموضوعات المقولة في الكتاب تدل على تلك العاطفة التي تربط بين الإنسان والكتاب حتى إنه يقول فيه الشعر كل حين.

وقد تبيّن في النصوص المستشهد بها ـ من خلال معجمها وأخيلتها ـ أن الكتاب معادل موضوعي للإنسان وبخاصة المرأة الحبيبة. حتى كثرت في وصف الكتاب الألفاظ التي تنتمي إلى حقل العلاقة المعنوية والحسية الجسدية بين المحب والمحبوب مثل: (الحب، العشق، الأبكار، العرس، التقبيل، اللذة، الضمّ، الإلقاح، النتاج). ولئن كانت للكتابة في المخيال الشعري صلة وثقى بالزرع بما فيه من حرث ـ ومن معاني الحرث في اللغة التفتيش ودرس الكتب وتدبرها . وإلقاح، ونتاج.... فإن هذا المعجم المشترك المستمد من (الجنس) دال على أن (الكتاب والزرع) قرينان في المدنية والاستقرار وبقاء الجنس البشري وتطوره، فالجنس وسيلة بقاء الإنسان وتناسله، والإنسان نزّاع بطبعه إلى الاستقرار، وإلى تعزيز ذلك البقاء ؛ والاستقرار من لوازمه (الحرث) في الحقل و(الحرث) في الكتب، وذلك كـ(الحرث) طلبَ النسل !. ومن هنا يسهم هذا الشعر من الناحية الرمزية في تعميق مؤسسة الكتابة بما هي مؤسسة مدنية تبني عقلا تأليفيا تجريبيا ـ مباينا للعقل الشفوي القديم ـ يقبل الاستقراء والإنشاء وتثبيت المعرفة بصفتها جميعها معالم الحضارة الباقية.

وإن معجم الحب بأخيلته ما نشأ واستقرّ وتطور من العلاقة المعنوية المحضة (كالحب والوجد والشوق) إلى العلاقة الحسية إلا لعمق الصلة بين صاحب الكتاب وكتابه، حتى إنه ينعزل إليه عن الناس، ويستعيض به عن كل العلاقات الاجتماعية مهما كانت أهميتها. ويظهر في بعض النصوص احتجاج الشاعر على المجتمع بنبذه إياهم، واتخاذ الكتب وما فيها مجتمعا له دونهم.

وأشير إلى تفاوت الجودة الفنية في تلك النصوص، إذ تنحدر أحيانا حتى تكون نظما خالصا، وترتفع أحيانا فتبلغ حقيقة الشعر. وما ذاك إلا لأن القول في الكتب لم يقتصر على علية الشعراء كابن الرومي وابن المعتز وكشاجم بل رأينا نفرا من العلماء قالوا الشعر فيها ومنهم ـ كما تقدم ـ الفارابي وابن حزم. وضعف النظم عند غير الشعراء كان قوّةً داعمةً لافتراض (باعث الحب)؛ إذ لولا ذلك الحب لما جرى الشعر على ألسن كثير من غير الشعراء.

وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

المصادر والمراجع:

١- إبراهيم بن محمد أبانمي. هجاء غير الإنسان في شعر المشرق من القرن الثاني إلى نهاية القرن السابع: موضوعات الهجاء ومحركات القول وخصائصه. دار عالم الكتب الحديث. الأردن. ط١، ٢٠١٢م.

٢- د.أحمد بن عبدالله الباتلي. علماء احترقت كتبهم أو دفنت أو غرقت أو محيت: لطائف وأخبار. دار طويق. الرياض. ط١، ١٤٢٣هـ.

٣- الأزهري. محمد بن عبدالله. مستوفى الدواوين. تحقيق: زينب القوصي و وفاء الأعصر (إشراف: د. حسين نصار). مطبعة دار الكتب والوثائق القومية. القاهرة. ١٤٢٤هـ.

٤- الأصبهاني. عماد الدين. خريدة القصر وجريدة العصر ـ القسم العراقي. تحقيق: محمد بهجة الأثري. الجزء الثالث نَشَرَتهُ: وزارة الإعلام /سلسلة كتب التراث. العراق.ج٣. ١٩٧٦م . ج٤. ١٩٧٣م / قسم شعراء مصر. تحقيق: أحمد أمين وآخرَين. دار الكتب والوثائق القومية (مركز تحقيق التراث)، ١٤٢٦هـ. طبعة مصورة عن طبعة ١٩٥١م / قسم شعراء الشام. تحقيق: د. شكري فيصل. مطبوعات المجمع العلمي العربي / المطبعة الهاشمية. دمشق. ١٣٧٥هـ / قسم شعراء بلاد العجم. تحقيق: د. عدنان محمد الطعمة. مراة التراث. طهران. ط١. ١٤١٩هـ.

٥- ابن أبي أصيبعة. موفق الدين أحمد. عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تحقيق: د.نزار رضا. دار مكتبة الحياة. بيروت.

٦- الباخرزي. علي بن الحسن بن علي. دمية القصر وعصرة أهل العصر. تحقيق: د.محمد التونجي. دار الجيل. بيروت. ط١. ١٤١٤هـ.

٧- البيهقي. إبراهيم بن محمد. المحاسن والمساوئ. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف (سلسلة ذخائر العرب ٦١). القاهرة. ١٩٩١م.

٨- تميم بن المعز لدين الله الفاطمي. ديوانه. مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة. ط٢. ١٤١٦هـ.

٩- الثعالبي. عبدالملك بن محمد. خاص الخاص. تحقيق: د. صادق النقوي. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية. حيدر اباد. ط١. ١٤٠٥هـ ٦٢٤-٦٢٥.

١٠- تحسين القبيح وتقبيح الحسن. تحقيق: علاء عبدالوهاب محمد. دار الفضيلة. القاهرة .

١١- تتمة يتيمة الدهر. شرح وتحقيق: د. مفيد محمد قميحة. دار الكتب العلمية. بيروت. ط١. ١٤٢٠هـ.

١٢- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد. دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

١٣- الجاحظ. عمرو بن بحر. الحيوان. تحقيق: عبدالسلام محمد هارون. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

١٤- جحظة البرمكي. ديوانه. تحقيق: جان عبدالله توما. دار صادر. بيروت. ط١. ١٩٩٦م.

١٥- جميل بن مصطفى بك العظم. الصُّبابات فيما وجدته على ظهور الكتب من الكتابات. اعتنى به: رمزي سعد الدين دمشقية. دار البشائر الإسلامية. بيروت. ط١. ١٤٢٠هـ.

١٦- الحافظ السلفي. أبو طاهر أحمد بن محمد. معجم السفر. تحقيق: عبدالله عمر البارودي. دار الفكر. بيروت. ١٤١٤هـ.

١٧- الحافظ اليغموري. أبو المحاسن يوسف. نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء. تحقيق: رودلف زلهايم. دار النشر: فرانتس شتاينر. فيسبادن. ١٣٨٤هـ.

١٨- ابن حمدون. محمد بن الحسن. التذكرة الحمدونية. تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس. دار صادر. بيروت، ط١. ١٩٩٦م.

١٩- خالد بن عبدالرحمن الشنو. مكانة الكتب وأحكامها في الفقه الإسلامي. دار البشائر الإسلامية. بيروت. ط١. ١٤٣١هـ.

٢٠- الخطيب البغدادي. أحمد بن علي. تقييد العلم. تحقيق: يوسف العش. دار إحياء السنة النبوية.

٢١- الخطيب التبريزي. الإيضاح في شرح سقط الزند وضوئه. تحقيق: د.فخر الدين قباوة. دار القلم العربي. حلب. ط١. ١٤٢٠هـ.

٢٢- ابن خلكان. شمس الدين أحمد بن محمد. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق: إحسان عباس. دار صادر. بيروت. ط٤. ٢٠٠٥م.

٢٣- ابن دانيال. شمس الدين محمد. المختار من شعر ابن دانيال. اختيار: الإمام صلاح الدين ايبك الصفدي. تحقيق: محمد نايف الدليمي. مكتبة بسام. الموصل. ١٣٩٩هـ.

٢٤- الراغب الأصفهاني. الحسين بن محمد. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء. تحقيق: د. رياض عبدالحميد مراد. دار صادر. بيروت. ط١. ١٤٢٥هـ.

٢٥- ابن رشيق القيرواني. العمدة في صناعة الشعر ونقده. تحقيق: د.النبوي عبدالواحد شعلان. مكتبة الخانجي .القاهرة. ط١. ١٤٢٠هـ.

٢٦- ابن الرومي. علي بن العباس. ديوانه. تحقيق: د. حسين نصار. دار الكتب والوثائق القومية. القاهرة. ط٣. ١٤٢٤هـ.

٢٧- الزمخشري. محمود بن عمر. ربيع الأبرار ونصوص الأخبار. تحقيق: د. سليم النعيمي. وزارة الأوقاف والشؤون الدينية .إحياء التراث الإسلامي. العراق. ١٩٧٦م.

٢٨- سبط ابن التعاويذي. ديوانه. تحقيق: د. س. مرجليوث. دار صادر. بيروت. (مصورة من طبعة المقتطف بمصر ١٩٠٣م).

٢٩- السراج. جعفر بن أحمد ابن الحسين. مصارع العشاق. مطبعة الجوائب. الآستانة. ١٣٠٢هـ.

٣٠- السري الرفاء. ديوانه. شرح: كرم البستاني. مراجعة: ناهد جعفر. دار صادر. بيروت. ط١. ١٩٩٦م. ٢٨٦.

٣١- ابن سعيد المغربي. المغرب في حلى المغرب. تحقيق: د. شوقي ضيف. دار المعارف. القاهرة. ط٣.

٣٢- السمعاني. عبدالكريم بن محمد. أدب الإملاء والاستملاء. نسخة معتمدة على طبعة بتحقيق: ماكس فايسفايلر. دار الباز. مكة المكرمة. ودار الكتب العلمية. بيروت. ط١. ١٤٠١هـ.

٣٣- الصاحب بن عباد. ديوانه. تحقيق: محمد حسن آل ياسين. دار القلم ببيروت ومكتبة النهضة ببيروت وبغداد. ط٢. ١٣٩٤هـ.

٣٤- أ.د. صالح بن الهادي رمضان. الخطاب الأدبي وتحديات المنهج. نادي أبها الأدبي. آبها. ط١. ١٤٣١هـ.

٣٥- الصفدي. صلاح الدين خليل بن أيبك. الغيث المسجم في شرح لامية العجم. المطبعة الأزهرية المصرية. ط١. ١٣٠٥هـ.

٣٦- الوافي بالوفيات (نسخة مصورة). تحقيق: هلموت ريتر وآخرين. دار النشر فرانز شتاينر. شتوتغارت. ج٥. ط٣. ١٤١١هـ. ج١١. ط ١٤٠٥هـ.

٣٧- ابن طباطبا. شعر ابن طباطبا العلوي. جمع وتحقيق: جابر الخاقاني. منشورات: اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين. دار الحرية، بغداد.

٣٨- الطرطوشي. محمد بن محمد بن الوليد الفهري. سراج الملوك. المطبعة الآميرية. بولاق. مصر، ١٢٨٩هـ.

٣٩- العاملي. بهاء الدين محمد. المخلاة. نسقه وفهرسه ووضع هوامشه: محمد خليل الباشا. عالم الكتب. بيروت، ط١، د١٤٠هـ.

٤٠- عبدالرحمن يوسف الفرحان. عشاق الكتب. دار البشائر الإسلامية. بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.

٤١- د.عبدالكريم حسن. المنهج الموضوعي: نظرية وتطبيق. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر. بيروت. ط١. ١٤١١هـ.

٤٢- الموضوعية البنيوية: دراسة في شعر السياب. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر. بيروت. ط١. ١٤٠٣هـ.

٤٣- عبدالله الحبشي. الكتاب في الحضارة الإسلامية. شركة الربيعان للنشر. الكويت. ط١، ١٩٨٢م.

٤٤- علي بن ظافر الأزدي. بدائع البدائه. تحقيق. محمد أبو الفضل ابراهيم. المكتبة العصرية. بيروت.١٤١٣هـ.

٤٥- غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات. تحقيق: د. محمد زغلول سلّام و د. مصطفى الصاوي الجويني. دار المعارف. القاهرة.

٤٦- ابن عنين. محمد بن نصر. ديوانه. تحقيق: خليل مردم بك. دار صادر. بيروت. ط٢.

٤٧- القرطبي. يوسف بن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله. إدارة الطبعة المنيرية. مصر.

٤٨- القفطي. علي بن يوسف. إنباه الرواة على أنباه النحاة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الكتاب العربي بالقاهرة. ومؤسسة الكتب الثقافية ببيروت. ط١. ١٤٠٦هـ.

٤٩- ابن قلاقس. ديوانه. تحقيق د.سهام الفريح. مكتبة المعلا. الكويت. ط١. ١٤٠٨هـ.

٥٠- الكتبي. محمد بن شاكر. فوات الوفيات. تحقيق: د. إحسان عباس. دار صادر. بيروت. ١٩٧٣م.

٥١- كشاجم. محمود بن الحسين. ديوانه. تقديم وشرح: مجيد طراد. دار صادر. بيروت. ط١. ١٩٩٧م.

٥٢- الكلاعي. محمد بن عبدالغفور. إحكام صنعة الكلام: في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس. تحقيق: د. محمد رضوان الداية. عالم الكتب. بيروت. ط٢. ١٤٠٥هـ.

٥٣- المحبي. محمد أمين. نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة. تحقيق: عبدالفتاح الحلو. دار إحياء الكتب العربية. ط١. ١٣٨٧هـ. ٢١٣/١.

٥٤- محمد خير رمضان يوسف. آداب إعارة الكتب في التراث الإسلامي. دار ابن حزم. بيروت. ط١. ١٤٢٦هـ.

٥٥- الغرر على الطرر: غرر الفوائد على طرر المخطوطات والنوادر. دار البشائر الإسلامية. بيروت. ط١. ١٤٢٥هـ.

٥٦- محمد عبدالجواد الأصمعي. تصوير وتجميل الكتب العربية في الإسلام ونوابغ المصورين والرسامين من العرب في العصور الإسلامية. دار المعارف. القاهرة. ١٩٧١م.

٥٧- د.محمد كمال الدين عز الدين. الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة. دار عالم الكتب. بيروت. ط١. ١٤١٠هـ.

٥٨- د. مزهر السوداني. جحظة البرمكي الأديب الشاعر. (يحتوي الكتاب على مجموع شعره). مطبعة النعمان. النجف. ١٣٩٧هـ.

٥٩- ابن المعتز. أبو العباس عبدالله. ديوانه. صنعة: أبي بكر محمد الصولي. تحقيق: د. يونس أحمد السامرائي. عالم الكتب. بيروت. ط١. ١٤١٧هـ.

٦٠- ناصر الحزيمي. حرق الكتب في التراث العربي. دار الجمل. ألمانيا. ط١. ٢٠٠٣م.

٦١- أبو نواس. الحسن بن هانئ. ديوانه. تحقيق: أحمد عبدالمجيد الغزالي. دار الكتاب العربي، بيروت.

٦٢- د. هاشم فرحات و د.محمود سيد محمود يوسف. قالوا في الكتاب. مكتبة الملك عبدالعزيز العامة. الرياض. ١٤٢٣هـ.

٦٣- ابن الهبارية. شعره. جمع وتحقيق: د. محمد فائز سنكري طرابيشي. وزارة الثقافة (إحياء التراث العربي). دمشق. ١٩٩٧م.

٦٤- أبو هلال العسكري. الحسن بن عبدالله. ديوانه. تحقيق: د. جورج قنازع. المطبعة التعاونية. دمشق. ١٤٠٠هـ.

٦٥- ديوان المعاني. تحقيق: أحمد سليم غانم. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط١. ١٤٢٤هـ.

٦٦- ياقوت الحموي. معجم الأدباء. تحقيق: د. إحسان عباس. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط١. ١٩٩٣م.

٦٧- معجم البلدان. دار صادر. بيروت. ١٣٩٧هـ.

٦٨- د.يحيى وهيب الجبوري. بيت الحكمة ودور العلم في الحضارة الإسلامية. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط١. ١٤٢٧هـ.

٦٩- الكتاب في الحضارة الإسلامية. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط١. ١٩٩٨م.

٧٠- مجموعة من الكتّاب. مدخل إلى مناهج النقد الأدبي. ترجمة: د. رضوان ظاظا. سلسلة عالم المعرفة. الكويت. ١٤١٧هـ.

٧١- اليزدي. أحمد بن محمد بن جعفر. جزء فيه عاريّة الكتب. ملحق بكتاب: آداب إعارة الكتب في التراث الإسلامي. محمد خير رمضان يوسف. دار ابن حزم. بيروت. ط١. ١٤٢٦هـ.

٧٢- الحوادث. لمؤلف من القرن الثامن الهجري. وهو الكتاب المسمى وهماً بالحوادث الجامعة والتجارب النافعة المنسوب إلى ابن الفوطي. تحقيق: د. بشار عواد معروف. و د.عماد عبدالسلام رؤوف. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط١. ١٩٩٧م.

* * *

الناقة والصحراء في شعر الأعشى الكبير
(ميمون بن قيس)

د. عمر عيد السليمان المومني
كليةعجلون الجامعية - جامعة البلقاء التطبيقية
الأردن

الناقة والصحراء في شعر الأعشى الكبير (ميمون بن قيس)

د. عمر عيد السليمان المومني
كلية عجلون الجامعية – جامعة البلقاء التطبيقية
الأردن

ملخص البحث:

جاءت هذه الدراسة تحت عنوان: **الناقة والصحراء في شعر الأعشى الكبير (ميمون بن قيس)** الذي امتاز برحلاته الطويلة على ناقته التي عدها عنصراً رئيساً في حياته فنعتها بأفضل النعوت التي تؤهلها لقطع المسافات البعيدة، من قوة، ونشاط، وحيوية، وضخامة بنية... وكذلك شبهها بمشاهد الطبيعة كالجبل، والقصر، وشجرة النخيل...

واعتمدت الدراسة على ديوان الشاعر الذي حققه محمد محمد حسين بكونه مصدراً رئيساً للموضوع، وأوضحت الدراسة الحياة الاجتماعية للشاعر وعلاقته بناقته ،وكذلك ثنائية الناقة والصحراء مبرزاً الصفات الجسمية لناقة الشاعر، كما وقفت الدراسة عند اللوحات الفنية للحيوانات الصحراوية التي ماثلت ناقة الشاعر من حيث القوة والنشاط والحيوية كالحمار الوحشي، والثور الوحشي، والبقرة الوحشية، وكذلك لوحة النعامة والظليم التي كونت لوحة رمزية للحياة الوادعة الهانئة التي يبحث عنها الشاعر.

لقد كونت الناقة معادلاً موضوعياً للشاعر، وكل ما يريده الشاعر حققه من خلال نجاح ناقته، لذلك تناولت قدسية الناقة عند العربي الجاهلي بكونها المخَلِّصة، والمنجية من الهلاك، واللجوء إليها عند المحن، كما أوضحت علاقة الناقة بالشاعر حيث وصفها بصفات إنسانية، فهي تشكو همها له، وتحاوره ويحاورها فتفهمه ويفهمها، وهذا دليل على القرب النفسي بكونها وسيلة نقله وصديقته في حله وترحاله وبهذا برزت خصوصية الشاعر المتميزة بالناقة، حيث فاق أقرانه من الشعراء في هذا المجال.

مقدمة الدراسة:

تأتي هذه الدراسة تحت عنوان الناقة والصحراء في شعر الأعشى الكبير(ميمون بن قيس) ضمن الدراسات الأدبية الفنية التي تسلط الضوء على تراثنا العربي القديم. الذي يشكل حلقة رئيسة ضمن حلقات الأدب العربي المتتابعة.

ويعد الأعشى في عداد الشعراء المتحضرين لكثرة ترحاله. وتنقله في بلاد العرب. وبلاد فارس .ولأن شاعرنا لم يأخذ حظه من البحث والدراسة في هذا الجانب – الناقة والصحراء – رأيت الكتابة في هذا الموضوع لأبين طبيعة الناقة والصحراء في شعر الأعشى الكبير. الذي أكثر التطواف في البلاد على سفينته الصحراوية التي أحبها إلى درجة العشق. فخلع عليها أعظم الصفات من نشاط . وحيوية لقطع هذا التيه الرملي.

واتخذت الدراسة أسلوب الاستقراء والتحليل لشعر الشاعر،لاستجلاء العلاقة بين الناقة والصحراء، والوقوف عند اللوحات الفنية للحيوانات الصحراوية كالحمار الوحشي، والبقرة الوحشية، والنعامة والظليم، وعلاقتها مع الناقة لما للشاعر من خصوصية في هذا الجانب. وستعتمد الدراسة على ديوان الأعشى الكبير تحقيق الدكتور محمد محمد حسين كمصدر رئيس. آملاً تحقيق إضافة جديدة في أدبنا العربي.

والله الموفق

الناقة والصحراء في شعر الاعشى الكبير(ميمون بن قيس)

أولاً: الحياة الاجتماعية للأعشى، حياته، وشعره.

يعد ميمون بن قيس (الأعشى الكبير) من أشهر الشعراء الجاهليين على الإطلاق، فهو في المرتبة الأولى من الشعراء لجودة شعره، ومستواه الفني الذي بلغه بفضل رقته وتحضُّره. وشاعرنا هو ميمون بن قيس بن جندل بن شرحبيل من عوف... إلى أن يصل نسبة إلى ربيعة بن نزار، وكنيته: أبو بَصِير وكان يقال لأبيه قيس بن جندل قتيل الجوع... وهو واحد من أعلام الشعراء الجاهليين وفحولهم[1]. وقيل هو أول من سأل بشعره، وانتجع به البلاد، وكان يغنى في شعره، فكانت العرب تسميه: (صنّاجة العرب) وسئل مروان بن أبي حفصة: من أشعر الناس؟ قال: ذلك الأعشى في الجاهلية، والأخطل في الإسلام[2].

يقول الدكتور شوقي ضيف في كتابه العصر الجاهلي: "يمتاز الأعشى بكثرة قصائده الطويلة، كما يمتاز بكثرة تصرفه بفنون الشعر من مديح، وهجاء، وفخر، ووصف وخمر وغزل.... والدارس لشعر الأعشى يحس فيه روح العصر العباسي لا من حيث سهولة اللفظ فحسب، ولا من حيث المقابلة بين المعاني فحسب، بل من حيث ما يجري في ذلك من أثر رقة الذوق بتأثير الحضارة"[3]، ومن الدارسين من عدّ الأعشى إرهاصاً للشعر المدني المتحضر بفضل الأسلوب الحضري الراقي في الخطاب مع الآخر.

يقول شوقي ضيف: "والحق أن الأعشى في شعره جميعه يُعدُّ تمهيداً للشعر الحضري الذي ظهر من بعده، سواء في غزله وخمره، أو في هجائه ومديحه، فهو في هذه الموضوعات جميعاً يفصح عن ذوق متحضر، سواء في خطاب الأمراء والأشراف والخضوع لهم، أو في خطاب النساء والتذلل لهن، أو في اللعب بمهجويه، والاستهزاء بهم والاستخفاف، أو في وصف الخمر ومجالسها ودنانها وكئوسها"[4].

---

(١) الأصبهاني ، ابو الفرج : الأغاني ،المجلد السابع،القسم الأول،منشورات دار الفكر-دارمكتبة الحياة،بيروت،د د ١٩،ص١٤٨.

(٢) المصدر السابق / المجلد الثامن القسم الأول.ص١٤٩-١٥٠،للمزيد انظر الصفحات من١٥١-١٦٦.

(٣). ضيف، شوقي:العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر،ط٢٤، ٢٠٠٣، ص٣٤٩.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٦٢.

ومن المؤكد أن الأعشى الكبير كان مفتوناً بالخمرة ومجالسها، فكانت شرابه وأنيسه، حتى إنه ليروى أن عَدُولَه عن الإسلام، عندما قدم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلن إسلامه ويدخل في الدين الجديد. وقد علم أن الدين الجديد يحرم الزنا، والقمار والربا، فإنه لم يهتم لذلك كثيراً، لكنه جزع كل الجزع عندما علم أن الدين الجديد يحرم الخمرة، فعاد من مكة إلى اليمامة ليستنفذ ما بقي له منها قبل أن يحرمه دخوله في الدين الجديد (جاء في الأغاني أنّ علي بن سليمان النوفلي قال: حدثنا أبي قال: أتيت اليمامة والياً عليها فمررت بمنفوحة وهي منزل الأعشى التي يقول فيها "بشط منفوحة فالحاجر" فقلت: أهذه قرية الأعشى؟ قالوا: نعم، فقلت: أين منزله؟ قالوا: ذاك وأشاروا إليه، قلت أين قبره؟ قالوا: بفناء بيته، فعدلت إليه بالجيش فانتهيت إلى قبره فإذا هو رطب، فقلت: ما لي أراه رطباً؟ فقالوا: إنّ الفتيان ينادمونه فيجعلون قبره مجلس رجلٍ منهم، فإذا صار إليه القدح صبوه عليه"[1] لقد طاف الأعشى في البلاد طولاً وعرضاً قاصداً الملوك والأشراف، لينال عطاءهم، وهو يعترف بحرصه على جمع المال، ولا يجد في ذلك غضاضة

فيقول:

وَقَدْ طُفْتُ لِلْمَالِ آفاقَهُ	عُمَانَ فَحِمْصَ فَأُورِيَشْلِمْ
أَتَيْتُ النَّجاشِيَّ فِي أَرْضِهِ	وأَرْضَ النَّبِيطِ وأَرْضَ العَجَمْ
فَنَجْرَانَ فَالسَّرْوَ مِنْ حِمْيَر	فَأَيَّ مَرَامٍ لَهُ لَمْ أَرُمْ[2]

لقد صور الأعشى حياته في حله وترحاله، وشكلت الناقة في حياته عنصراً رئيساً، وعبر عن حبه وعشقه لهذه الناقة لكونها وسيلة من وسائل الحياة اليومية، فكانت

---

(١) الأصبهاني، أبو الفرج، الأغاني، المجلد الثامن، القسم الأول، دار الفكر / دار مكتبة الحياة / بيروت، د د ١٩، ص١٦٤.

(٢) حسين، محمد، ديوان الأعشى الكبير، ق ٤، ص٩١، للمزيد أنظر العمدة لأبن رشيق القيرواني، وكذلك طبقات الشعراء لإبن سلاّم.

الناقة صديقة للعربي في ذلك الزمن الصعب، مما جعلها تشكل لحظات الحب والسعادة مع الجاهلي. يقول عبد اللطيف الصديقي: "إن زمن الحب، ما هو إلا تعبير عن لحظات الزمن النفسي، أو الديمومة الشعورية، إنه محاولة لالتقاط إيقاعة من إيقاعات ديمومة الحياة، من خلال تجربة ذاتية أو زمانية نفسية"[1]. وهكذا كان الشاعر جوابا في اطراف الجزيرة باحثا عن لحظات السعادة التي ينشدها في زمن التيه والضياع في عرض الصحراء الممتدة.

ثانياً: الناقة والصحراء في الشعر الجاهلي:

الناقة من أبرز الحيوانات الصحراوية القادرة على التأقلم في جو الصحراء القاسي، لِمَ خصها الله من سمات جسمية، تجعلها قادرة على التكيُّف مع الحرّ والبرد الشديدين.

"والناقة هي الأم الرءوم للبدوي: سفينة صحرائه ومركبُه إلى آماله الضخام في مراعي الجزيرة، أو عند الملوك والعظماء، تصبر على الجدب، والجفاف حتى تحمله إلى الخصب، والمراعي، والأمواه، وتمده في رحلاته الطويلة وسط القفار والبيد بطعامه إن جاع، وشرابه إن عطش، وسكنه إن كان في حاجة إلى إيواء"[2].

لقد تناول الشعراء الجاهليون الناقة، وأطالوا وفصّلوا الحديث فيها، ولا نكاد نستثني أحداً منهم، فوصفوها في أسفارهم ورحلاتهم، طالت أم قصرت، وبخاصة طرفة بن العبد في معلقتِهِ الذي تفنن في رسم لوحات فنية رائعة لها، وكذلك الأعشى الذي ذكر الناقة وشبهها بحيوان الصحراء كالثور الوحشي. يقول سيد نوفل: إن بعض الشعراء قد اتخذ عن حديثه عن الناقة ذريعة إلى وصف حيوان الصحراء، من حمار، وثور، ونعامة، وظليم، كأن الناقة ليس لها كيان مستقل، وإنما أصبحت بحكم البيئة والملازمة موجوداً من موجودات الصحراء، أو رمزاً لموجودات الصحراء، يثير ذكرها حديث الموجودات الأخرى"[3].

وعُدّت الناقة عنصراً رئيساً في حياة البدوي، لأنها سفينته في عرض الصحراء، ووسيلة نقله من مكان لآخر، وهي صاحبته في حله وترحاله، وخليلته في البيد، والقفار

---

(1) الصديقي، عبد اللطيف: الزمان، أبعاده وبنيته، بيروت، المؤسسة الجامعية، ط1، د 1995م، ص 144.

(2) الشلبي، سعيد إسماعيل: الأصول الفنية للشعر الجاهلي، مكتبة غريب-القاهرة، 1977، ص 329.

(3) نوفل، سيد: شعر الطبيعة في الأدب العربي، مطبعة مصر-القاهرة، د 1945، ص 37.

يشرب حليبها، فتمده بعناصر الحياة، فاشتدت الألفة والمحبة بينهما، فرفعها إلى مستواه ،فاتخذ منها صديقة وصاحبة، وكأنها إنسانة تقاسمه المشاعر وتشاطره الهموم، فأضفى عليها من صفات العقلاء ووجدان الأصدقاء، فناجاها وتسمَّع إلى شكواها وعبَّر عنها وكأنه لسانها إذا نطقت، أو وجدانها

إذ أفصحت، لهذا كله فقد قامت بين الشاعر والناقة علاقة متينة وصداقة دائمة، لا يستطيع الاستغناء عنها؛ لأنها سفينته عبر بحار الرمال الواسعة.

فكلما لجأ الشاعر إلى تشبيهها، صورها إلى حد المغالاة بأحد مكونات الصحراء، من نخل أو جبل، أو حيوان صحراء، كما أنه في كثير من الأحيان يستعين بما تزخر به أفكاره من صور الناقة، ويستمد من شكلها وصفاتها الجسمية، والنفسية ما يعينه على إيجاد المشبه به لكل ما يريد رسمه من مشاهد، ولوحات شعرية فنية بديعة.

والدارس لشعر الأعشى الكبير يجده قد شبه كل عضو من أعضاء ناقته بأحد مكونات الصحراء بنباتها كالنخيل، أو حيوانها كالحمار الوحشي، أو الثور الوحشي، أو النعامة أو الظليم... ومن المعلوم أن التشبيه، والاستعارة هما الركنان الأساسيان لشعر الوصف سواء أكان ذلك عند شاعرنا أم غيره من الشعراء قديماً أو حديثاً.

وكثيراً ما لجأ الجاهليون إلى تشبيه ظعائن المحبوبة بالنخلة السامقة، وهي إشارة إلى الحياة المستقرة والثبات والقدرة على تحمل المتغيرات المحيطة، ومن الجاهليين من عدّ شجرة النخيل رمزاً للأمن، وهي مباركة تمنحهم الحياة السعيدة، فهي توحي بالنماء والخصب، لذلك لجأ الجاهليون إلى تقديسها وفي ذلك يقول محمد عجينة: "إن شجرة النخيل مع الجبال يمثلان بالقياس الى الإنسان رمزاً للخلود، والاستقرار والثبات، فَلِم لا يقدسها العربي؟"[1]، ويقول الدكتور سعيد الشلبي: "الناقة جديرة بأن يتخذها - الشاعر الجاهلي - محراباً لفنه يتنافس في وصفها مع اقرانه، ويباهي في نعتها، وراحلة تسير الهوينى او تنهب الصحراء تحمل الظعائن أو تقل المتاع، يقف على الطلل حينا، أو ثم ينتقل بها في اكثر الاحايين ليضرب بها في التيه، أو ليبدأ مغامرة يصارع فيها وعثاء

---

(١) عجينة، محمد: موسوعة أساطير العرب عند الجاهلية ودلالاتها، دار الفارابي، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٩٤، ص١٣٢.

السفر. وهنا يرى سرعتها وخلقتها. وطباعها فيما يصادف من حيوان الصحراء وطيورها. فيتناساها قليلا أو يضمرها في وجدانه ليحدثنا عن سرعة ثور الوحش أو الحمار. أو الأتان أو البقر والنعام.... وليس ذلك من العربي شروداً عن صاحبته (الناقة) وإنما هو لون من الافتتان في الوصف والإبداع في الخيال"[1].

لقد أبدع الشعر الجاهلي في وصف لوحة الناقة الشعرية. ورسمها الشاعر أجمل رسم في حقيقتها. وبالصورة التي تخيلها؛ ليجعل منها لوحة بديعة في وصف حيوانه المفضل الذي يعتمد عليه كل الاعتماد في قطع المفاوز. ورمال الصحراء الواسعة.كمافتنت الناقة الشاعر الجاهلي فتنة كبيرة. فوقف يتأملها في إقبالها. وإدبارها. ويكرر ذلك مرة تلو المرة. يُحَدِّق فيها. ويسرف في ذلك. ثم يصفها عضواً فعضوا. ويصف وِقفَتها. ومِشيتها. وطباعها. ويتحدث عن مدى حبه لها. وعلاقتها به. وموقفه منها موقف العاشق الوله بمعشوقته. واستطيع القول بأن الشاعر الجاهلي قد نجح نجاحاً كبيراً في رسم صورة دقيقة. واعية. وآمينة لهذا الحيوان الصحراوي الذي اعتمد عليه البدوي في حياته وسط الصحراء التي فُرضت عليه. يقول أنور أبو سويلم: "إن الناقة – كما يصورها الشعراء – هي مانحة الحياة لمن أشرف على الهلاك جوعاً. وهي مانحة الهداية لمن أشرف على الموت ضلالاً"[2]. لقد تناول الشاعر الجاهلي الناقة بالوصف الدقيق. وركز على الصفات الحسية أكثر من الصفات المعنوية وفي ذلك يقول وهب رومية: "إن الشاعر الجاهلي العالق بالأرض. بحكم حياته الرعوية يتشبث بالمحسوس وقلما يفارقه – حيث إن الجانب الحسي من الناقة هو مهوى أفئدة الشعراء. ومحط أبصارهم. وباعث السحر على ألسنتهم – هو كذلك في علاقته بحبيبته. وهو كذلك في علاقته بناقته وفرسه. وقد استرعت أوصاف الناقة الحسية هذه العين أكثر مما استدعتها صفاتها المعنوية"[3]. ومن الملاحظ من خلال قصائد الشاعر المختلفة. أن

---

(١)الشلبي. سعيد اسماعيل: الأصول الفنية للشعر الجاهلي : ص ٣٢٩.

(٢) أبو سويلم. انور عليان: الإبل في الشعر الجاهلي دراسة في ضوء علم الميثولوجيا والنقد الحديث. دار العلوم. ط١. ١٩٨٣. ص ١٣٠.

(٣) رومية. وهب: الرحلة في القصيدة الجاهلية. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط٢. ١٩٧٩. ص٦٢.

الناقة قد أخذت حظ الأسد من الاهتمام والوصف، اكثر من الحصان الذي اهتم به العربي بكونه وسيلة للسرعة والحرب، وهو رمز الأبوة، أما الناقة فهي رمز للأمومة.

يقول مصطفى ناصف: " أخذت الناقة مفهوماً لم يستطع الفرس أن يأخذه، فإذا كان في الفرس أبوة وما يرتبط بالأبوة أو الرجولة من عنف وزحام، فقد كانت هذه الناقة أشبه الأشياء بالأمومة القوية، ولذلك اقترنت بالنخلة في أذهان العرب وأمومة الناقة أمومة صابرة قادرة على استمرار الحياة"[1].

لقد وقف معظم الشعراء أمام الناقة وكأنها معبودتهم، فهي رمز حياتهم، لهذا فهم يشبهونها بالفرس تارة لسرعتها ومضائها، وهي تشبه الحمار الوحشي بقوته ودفاعه عن قطيعه، وتشبه الظليم أو النعامة لحبه لأسرته وعشه.

يقول مصطفى ناصف: "الناقة كالفرس تسابق الزمن مسابقة غريبة، وتستحيل بهذه الصفة غير الزمنية، إن صح هذا التعبير إلى ظليم أو نعامة"[2].

ومن المعلوم أن الله سبحانه وتعالى قد خص الناقة بسمات جسمية مختلفة عن أي حيوان آخر، فهي قادرة على الحياة في أصعب الظروف، تأكل النباتات الشوكية وتحتفظ بكميات كبيرة من الماء في جسمها لحين حاجتها إليه، بالإضافة إلى سنامها وأخفافها التي هي آية من آيات الله العجيبة وهذه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[3] فالناقة عند البدوي رمز للصبر، والثبات، والقدرة على تحمل الصعاب، ولأنّ الناقة تمثل عنصراً رئيساً في حياة الجاهلي، فهو دائم الذكر لها، لا ينساها في أي لحظة من لحظات حياته، فهي أنيسته وهي كاتمة أسراره ورفيقة دربه، بل هي أكثر من ذلك يبثها شكواه وأحزانه وآماله، وكأنها تناجيه فيناجيها، لهذا نجد العلاقة بين الشاعر والراحلة قوية متداخلة، لا يمكن فصلها فهي القريبة وهي الصديقة.

وإذا أراد الشاعر أن يتخلص من حالة إلى حالة، أو من موقف لآخر تخلص بطريقة مألوفة لديهم قلما شذ عنها، فإذا كان الشاعر واقفاً على الأطلال قال: لما رأيت أن الأطلال لا تجيبني نهضت إلى ناقتي، وإن كان يتحدث عن رحيل صاحبته قال: هل تلحقني

---

(1) ناصف، مصطفى: قراءة ثانية لشعرنا القديم، دار الأندلس، بيروت، ط ٢، ١٩٨١، ص ٩٩.

(٢) المرجع السابق: ص ٩٨.

(٣) القرآن الكريم : سورة الغاشية، الآية: ١٧.

بهم شدنية؟. وإذا كان يذكر صدود حبيبته وإعراضها عنه قال: فصرّم حبلها إذ صرّمته بالسفر على ناقة شديدة. وإن ذَكَرَ ما كان بينه وبين الحبيبة من ود قال: فدعها وسلِّ الهمّ عنك بناقة....وعلاقة الناقة بالظليم علاقة وثيقة وقوية، لأن الظليم عند العربي يمثل الحياة الهادئة الوادعة، فهو يرغب بالعودة إلى عشه قبل مغيب الشمس. يقول أنور عليان في كتابه الإبل في الشعر الجاهلي: "إن الشاعر يبحث عن حياة آمنة مستقرة، أو عن عش هادئ، بعيدعن الحروب وحياة الضنك والهجرات التي لا تنتهي، معبراً عن ذلك بهذه الحكاية القصيرة، وحكاية الظليم والنعامة"[1].

وهكذا نجد أن الشاعر يلجأ إلى الناقة بكونها معادلاً موضوعياً له، فيعبِّرُ عن نفسه من خلال ناقته القادرة على إيصاله إلى بر الأمان. فهو يشبِّه ناقته بالحيوانات الصحراوية القوية، القادرة على الحياة، والتخلص من المآزق التي تواجهها؛ لأنها هي التي تخرج الشاعر من دائرة أزمته التي يعانيها في عرض الصحراء. وهكذا نستطيع القول بأن الناقة عند العربي الجاهلي تعدُّ محوراً رئيساً في حياته، ورفيقة له في مماته؛ لتنقله إلى حياة جديدة بكونها سفينة العبور من حياة زائلة إلى حياة أخرى مختلفة. لقد بحث الجاهلي عن حياة الاستقرار، والثبات ليخرج من دائرة التنقل والترحال وعدم الاستقرار التي تمثلت في البحر والسفينة وفي ثنائية الثبات والتحول التي رآها عبد القادر الرباعي بقوله: "الإنتقال من وضع إلى وضع آخر أفضل. ثم إن الدور الذي تقوم به، هو نفسه الدور الذي يقوم به الشاعر (الفرد) الذي يطلب تغييراً اجتماعياً جذرياً، بعد أن تصل الحال بعشيرته إلى الثبات والركود، فالناقة في هذه الوظيفة التغييرية تتوحد مع الشاعر وتسير وإياه لإنجاز هدف سام"[2].

---

(١)أبو سويلم، أنور عليان: الإبل في الشعر الجاهلي دراسة في ضوء علم الميتولوجيا والنقد الحديث: ص ١٩٠.

(٢) الرباعي، عبد القادر: الصورة الفنية في شعر زهير أبي سلمى، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض – السعودية، ط١، ١٩٨٤، ص ١٢٧.

ثالثاً: ثنائية الناقة والصحراء في شعر الأعشى الكبير.

لقد وقف الشعراء الجاهليون أمام مشاهد الطبيعة الفاتنة، يصورون ما يشاهدونه من مناظر مثيرة، ومشاهد بديعة هنا وهناك. يصورون ما يطوون من أرض وفياف لا حدود لها في ذاك التيه الرملي الواسع.

تناول الشعراء الصحراء بالوصف الدقيق لكل مشهد من مشاهدها، ولعل الطريق الممتد، والزمن، والسراب، وعزيف الجن، وحيوان الصحراء، وطيرها، ومياهها، والريح، والجبال، هي جلّ ما وقف عليه الشعراء، وأهم ما وصفوه من عالم الصحراء في أثناء رحلاتهم الضاربة في أعماق الصحراء، والأعشى الكبير واحد من هؤلاء الشعراء الذين ترحلوا في عرض الصحراء، باحثاً عن مكاسب مالية هنا وهناك، وتؤكد جلّ المصادر، أنه شاعر تكسبي من الطراز الأول، لهذا فهو يقدم لنا في شعره صوراً من الصحراء ناطقة بالرعب والحذر، والترقب فتبلغ القلوب منا الحناجرفهو يقول:

ويَهْمَاءَ قَفْرٍ تَخْرجُ العَيْنُ وَسْطَهَا — وَتلْقَى بهَا بَيْضَ الَّنعَامِ تَرَائِكَا

يَقُولُ بهَا ذو قُوَّةِ القَومِ إذْ دَنَا — لِصَاحِبِهِ إذْ خَافَ مِنْهَا المَهَالِكَا

لكَ الويلُ أَفْشِ الطَّرْفَ بالعَيْنِ حَوْلَنَا — عَلَى حَذَرٍ وأَبْقِ مَا في سِقَائِكَا[1]

إنها الصحراء المقفرة المخيفة، يحار بها المسافر، وتدهش عيناه من شدة الخوف، وهو يحرص كل الحرص على شربة الماء في السقاء.

إن ثنائية الناقة والصحراء متلازمتان، ولا نكاد نجد قصيدة إلا وهذه الثنائية (الناقة والصحراء) مرتبطتان معاً، وكلما وصف الشاعر صعوبة وقساوة الصحراء، عاد إلى الناقة فوصفها بصفات القوة والنشاط، والحيوية، وكأن هناك تحدّ بينهما، يقول الأعشى:

وبَيْدَاءَ قفرٍ كبُرْدِ السَّدِيرِ — مَشَارِبُهَا دَاثِرَاتٌ أُجُنْ

قَطَعْتُ إذا خَبَّ رَيْعانُهَا — بَدوسَرةٍ جَسْرَةٍ كَالفَدَنْ

وَطَالَ السَّنَامُ على جَبْلَةٍ — كَخَلْقَاءَ مِنْ هَضَبَاتِ الدَّجَنْ[2]

---

(١) ديوان الأعشى الكبير: ق ١١، ص ١٣٩.

(٢) المصدر السابق: ق ٢، ص ٦٧ – ٦٩. أُجن: جمع اجن وهو الماء المتغيّر اللون والطعم لركوده. الدوسرة: الناقة الضخمة. جسرة: ضخمة. الفدن: القصر.

تبدو الثنائية واضحة في وصف الصحراء الخالية من المعالم الحيوية، والمياه فيها داثرة، في أعماق الأرض، مطموسة الآبار لا تصلح للشرب، ولكنها الناقة الدَوسرة الجريئة القوية، القادرة على قطع الصحراء الخالية، فصفات الناقة القوية تؤهلها لقطع هذه البيداء القاسية، وهذه ناقة الأعشى تشبه الفحل القوي لقطع هذا التيه الرملي، فهو يقول:

وَيهْمَاءَ تعزفُ جنّانُهَا مَنَاهِلُهَا آجناتٌ سُدُمْ

قطعتُ بِرَسَّامةٍ جَسْرَةٍ عُذَافِرَةٍ كالفَنيقِ القَطِمْ

غَضُوبٍ من السَّوطِ زَيّافَةٍ إذا ما ارتَدَى بالسَّرَابِ الأكَمْ

كَتُومِ الرُّغَاءِ إذا هَجّرَتْ وَكانَتْ بقيَّةَ ذَودٍ كُتُمْ[١]

وتمثل الناقة جسر العبور إلى مستقبل واعد مشرق عند الجاهلي، وهي القادرة على إنهاء المعاناة للشاعر، فكلما داهمته محنة، أو ألمت به واقعة، انصرف إلى ناقته لتشحذ عزيمته، وتجدد همته لينتصر على كل الآلام والهموم التي يعانيها في هذه الصحراء القاحلة، والناقة تماثل السيارة الفارهة في العصر الحديث. يقول طه حسين: "فأنت تراه – الشاعر الجاهلي – قد وصل إلى ناقته... وانتهى إليها كما تنتهي أنت إلى سيارتك في مدينتك هذه المتحضرة، حين يضيق بك الأمر، وتزدحم على نفسك الهموم وتكره المقام حيث أنت... وتلتمس فيها فرجاً من كرب وسعادة من ضيق"[٢].

إن لوحة الرحلة مليئة بالتشبيهات، والاستعارات المناسبة لطبيعة الصحراء وصفات الناقة، فهاجس الترحال الدائم الذي يسكن نفس الشاعر، ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالناقة بكونها سفينة الصحراء بلا منازع، جعل الحدود بين الشاعر والناقة تتقلص لتتماهى مشاعره بمشاعرها، حيث لا ينفصل أحدهما عن الآخر، ولعل الشاعر الذي يخلع على ناقته صفات إنسانية، كالوداعة، وحب في قطع المسافات البعيدة، إنما كان يخلع هذه الصفات على ناقته؛ ليعبر عن مشاعره ورغباته الشخصية لقطع تلك المفاوز البعيدة؛ لأن الناقة تلازمه في حله، وترحاله، وكذلك فإنها تعاني ما يعانيه وسط الصحراء الواسعة.

---

(١)– المصدر السابق: ق٤، ص٨٧.

(٢) حسين، طه: حديث الأربعاء، دار المعارف بمصر، ١٩٨٢، ط١، ص ٣٤.

يقول أنور أبو سويلم: "إن هذه التشبيهات ليست تحلية أو زينة للمشبه، وليست توضيحاً أو تفسيراً ساذجاً. وإنما تمثل فكرة يود الشاعر طرحها"[1]. والشاعر عندما يشبه ناقته بالفحل من الإبل، إنما يريد أن يؤكد صفات الفحل الذي حظي بمكانة رفيعة، ومنزلة عالية عند صاحبه، فقد حظي بالإكرام والإطعام فهو (مقرّم) لا يذل ولا يُحمل عليه، بل هو يُعَدّ للفحولة. فهو يعيش في رخاء، وهو كذلك يمتاز بالقوة والضخامة، وكذلك لابد للفحل أن يقوم بواجبه تجاه القطيع من الإبل، فهو المسئول عن القطيع، وهو الذي يمنع الغرباء من الاقتراب من القطيع، فهو يمثل السيد المطاع عند قومه، وكذلك نجد الإبل مطيعة لفحلها، لا تعصي له أمراً. وهذه صورة للمجتمع الإنساني، حيث يقدم الرجل النصح والإرشاد لأسرته، وهو الراعي لمصالحهم، وما على الجميع إلا الطاعة لهذا السيّد.

لقد وصف الجاهليون الصحراء، والفيافي بالصفات الموحشة القاسية التي لا ترحم من عليها، وإذا وصف ناقته عاد فوصفها بصفات مثالية، يقول الأعشى:

يَهْمَاءَ موحشةٍ رَفَعْتُ لِعَرْضِهَا	طَرْفِي لأقْدِرَ بَيْنَهَا أمْيَالَهَا
بِجُلالَةٍ سُرُحٍ كأنَّ بِغَرْزِهَا	هِرّاً إذا انْتَعَلَ المَطِيُّ ظِلالَهَا
عَسْفاً وإرقالَ الهَجِيرِ تَرَى لَهَا	خَدَماً تُساقِطُ بالطَّرِيقِ نِعَالَهَا[2]

إنها الصحراء المضلة الموحشة التي تغتال الفرسان، وتقضي على الأبطال، إلا أن الشاعر قد امتطى راحلته، لتقطع الصحراء بعسف وإرقال، غير مبالية بالصعاب التي تعترضها. إن ثنائية الناقة والصحراء من الموضوعات الرئيسة في ديوان الشاعر، فهو يصف الصحراء بصفات الرعب والخوف لطولها وعرضها الموحشين، ولكنه سرعان ما يستحضر ناقته ليصفها بالجسارة، والقوة ، والسرعة، وهي ذات سنام ضخم، وقد بريت من السير الطويل وفي ذلك يقول الأعشى:

وَخَرْقٍ مَخُوفٍ قَدْ قَطَعْتُ بِجَسْرَةٍ	إذا الجِبْسُ أعْيَى أن يَرُومَ المَسالِكَا
بأدماءَ حُرْجُوجٍ بَرَيْتُ سَنَامَها	بِسَيْرِي عَلَيها بَعْدَ ما كانَ تَامِكَا

(1) أبو سويلم، أنور عليان: الإبل في الشعر الجاهلي: ص ٢٠٧.

(2) ديوان الأعشى الكبير: ق٣، ص٧٧.

لَهَا فَخِذَانِ تَحْفِزَانِ مَحَالَةً وَصُلباً كَبُنيانِ الصَّفَا مُتَلاَحِكَا
ورأساً دَقِيق الخَطْمِ صُلباً مُذَكَّراً ودأياً كأعْنَاقِ الضِّبَاعِ وحَارِكَا[1]

لقد قطع الشاعر الصحراء فوق ناقة ضامر برى السيرُ سنامها، بعدما كان مكتنزاً بالشحم، وهي ذات فخذين قويتين، تحملان ظهراً متماسكاً كأنه البنيان المرصوص. وهي ذات رأس دقيق، دليل العتق والنجابة. لقد وظف الشاعر ناقته في كثير من الأحيان لتحمل انفعالاته النفسية والحسية، فهو المُجْهَدُ، وهو المُتْعَبُ وسط هذه الصحراء القاحلة، وهو الذي يلاقي الآلام والمخاوف في سفره ورحلاته. فهو يُسقِطُ هذه المعاني على ناقته، لأنها هي الوسيلة الوحيدة القادرة على إيصاله إلى مقصده، وتبلغه إلى مواطن آلامه وآماله. وهي القادرة أيضاً على تخفيف همومه وأحزانه. "لقد ارتبطت الناقة في وجدان العربي القديم بتخيله رحلته في الممات، وإنَّ ربط ناقته بجانب قبره، سيحقق له وسيلة فوزه في الآخرة، كما كانت هي ذاتها وسيلة نجاح في رحلته في الدنيا"[2].

إنها الناقة التي بليت من المشي في الصحراء، وأوشكت على الهلاك، فهي سفينة عبور الشاعر إلى جهة أخرى، يجد معها أمنه وراحته وحياته الجديدة. أو هي بمثابة انتقال الإنسان من حياته الدنيوية إلى الحياة الأبدية. يقول مصطفى عبد الشافي: "وبذلك تكون هذه الناقة كأنها سفينة العبور من حياة زائلة إلى حياة ثانية جديدة"[3].

---

(١) المصدر السابق: ق١١، ص ١٣٩. خرق: صحراء واسعة ينخرق فيها الريح. جسرة: ناقة ضخمة. الجبس: الجبان. أدماء: ناقة بيضاء. حرجوج: طويلة. تامك: مكتنز. المحالة: الدولاب أو البكرة العظيمة. وكذلك الفقرة من فقر البعير لشبهها بها. تحفزان: تدفعان. الصَّفا: الحجر. متلاحك: متماسك. الخطم: موضع الخطام فوق الانف. الدأي: فقر الكاهل أو الظهر. الضبع: العضد.

(٢) الرباعي، عبد القادر: الصورة الفنية في شعر زهير بن أبي سلمى، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض – السعودية، ط١، ١٩٨٤، ص ١٢٦ – ١٢٧.

(٣) الشوري، مصطفى عبد الشافي: الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، ط١، ١٩٩٦، ص ١١٠.

لقد خلع الشاعر على الصحراء كل الصفات التي توحي بالخوف، والرهبة، ولكنه سرعان ما يعود إلى راحلته ليجد فيها الأمل، والقوة لتحمله إلى مبتغاه، وتنقذه من الموت المحقق، فالناقة سريعة، جريئة، تتحمل المشاق والصعاب... وفي ذلك يقول:

وَبَلْدَةٍ يَرْهَبُ الجَوّابُ دُلجَتَها | حَتّى تَراهُ عليها يبتغي الشِّيَعَا
لا يَسمَعُ المرءُ فيها ما يؤنّسهُ | بالليل إلا نَئيمَ البُوم والضُّوعا
كلّفتُ مجهولَها نَفسي وشَايَعَني | همّي عَلَيْها إذا ما آلُها لَمَعا
بذاتِ لَوْثٍ عَفَرْناةٍ إذا عَثَرتْ | فالتَّعْسُ أدنى لها من أن أقول لَعَا
كأنها بعد ما أفْضَى النِّجادُ بها | بالشَّيِّطَيْنِ مَهَاةٌ تَبْتَغي ذَرَعَا[1]

إن السفر منفرداً شيء صعب، وقاس، وبخاصة في الصحراء، التي لا تكاد تسمع فيها إلا أصوات طيور الليل المخيفة كالبوم والضُّوعا، فهو معتاد على السفر ليلاً وسط هذه الصحراء القاحلة، لذا وجب تغذية الناقة، لتكون قادرة على قطع الصحارى بنجاح فقال:

وبَيْداءَ تِيهٍ يَلْعَبُ الآلُ فَوقَها | إذا ما جَرَى كالرازقيّ المُعَضّدِ
قَطَعْتُ بِصَهْبَاءِ السَّراةِ شِمِلَّةٍ | مَرُوحِ السُّرى والغِبِّ مِنْ كُلِّ مَسْآدِ
بَنَاها السَّواديُّ الرَّضيخُ من الخَلَى | وَسَقْيي وإطْعَامِي الشَّعيرَ بِمِحْفَدِ
... فأضْحَتْ كَبُنيانِ التِّهَاميّ شَادَهُ | بِطِينٍ وجَيّارٍ وكِلْسٍ وقَرْمَدِ
شَدَدْتُ عَلَيها كُورَها فَتَشَدّدَتْ | تَجُورُ عَلَى ظَهْرِ الطَّريقِ وَتَهتَدي[2]

---

(١) ديوان الأعشى: ق١٣، ص١٥٤. الشيعا: جمع شيعة، وشيعة الرجل الذي يشايعه أي يعينه ويشجعه. الضوعا: طائر الليل الأسود. والذرع: ولد البقرة

(٢) المصدر السابق: ق٢٨، ص٢٣٩. الآل: السراب. الرازقي: ثوب أبيض من الكتان. المعضد: ثوب مخطط في موضع العضد. الصهبه: حمرة مشربة بالسواد. سراة كل شيء: خياره. شمله ومروح: بمعنى نشيطة. الغبّ: عَقِبَه وما يليه. الاساد: سير الليل كله. السوادي: النوى. الخلى: الحشيش. الكلس: الحجارة. القرمد: الاجر (وهو معرب). تجور: تنحرف.

إنها الناقة التي اعتنى بها صاحبها، حتى غدت مؤهلة لقطع الصحارى الواسعة، وقد غذاها بالسوادي – الشعير – ويسقيها بمحفدة وهي كالقصر أو كبنيان التهامي الشامخ قوة ومتانة. يقول مصطفى ناصف: ((يتخيل الشاعر الناقة تخيلاً خاصًا أقرب إلى البحث عن نصرة المجتمع، فالشاعر ما يزال "يتقوى" بهذا التخيل الذي يجعل الناقة ملاذ قوة غريبة، ويمكن أن نلاحظ آن لناقة شبهت بالقصر الذي أحكم بناؤه؛ فالشاعر لذلك يحب فكرة العمل والدعم أو البناء[1]))

رابعا: لوحة الناقة والممدوح في شعر الأعشى الكبير.

كان الشعر العربي القديم شعراً غنائياً تكسُّبياً من الطراز الأول، وهذا يتطلب الترحال والتنقل من موقع إلى آخر، للوصول إلى الممدوح الذي سيغدق العطاء الجزيل على الشاعر.وفي ذلك يقول الأعشى:

إِلَيْكَ ابْنَ جَفْنَةَ مِنْ شُقَّةٍ ... دأَبْتُ السُّرَى وحَسَرْتُ القَلُوصَا

تَشَكَّى إِلَيَّ فَلَمْ أُشْكِهَا ... مَنَاسِمَ تَدمى وخُفّاً رَهِيصَا[2]

لقد أجهد الشاعر ناقته حتى وصلت إلى ممدوحه، وهو يمثل لسان ناقته وحالتها النفسية، فهي تنظر إليه باستعطاف وأمل، وتشكو إليه بُعد الشُّقة، إلا أنه لا يشكّيها حيث الخير وجزيل العطاء عند الممدوح. إنها الإبل التي تقل راكبها لتقطعه الصحارى، والقفار البعيدة، قاصداً من يكافئه على رحلته الشاقة بالعطاء. وفي ذلك يقول الأعشى:

بِسَيرِ مَنْ يَقْطَعُ المَفَاوِزَ والْـ ... بُعْدَ إِلَى مَنْ يُثِيبُهُ الإِبِلاَ

والهَيْكَلَ النَّهْدَ والوَلِيدَةَ والْـ ... ـعَبْدَ ويُعطِي مَطَافِلاً عُطُلا

يَا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ المَطِيَّ ولاَ ... يَشْرَبُ كَأْساً بِكَفِّ مَنْ بَخِلا

قَلَّدتُكَ الشِّعْرَ يَا سَلاَمَةَ ذا الْـ ... ـتَفْضَالِ والشَّيءُ حَيْثُمَا جُعِلا[3]

---

(1) ناصف مصطفى: قراءة ثانية لشعرنا القديم، ص٩٨.. ق٣١، ص٢٥٧..

(٢) حسين، محمد: ديوان الأعشى الكبير، ق٣١،ص٢٥٧، خف رهيص: أصابة الحجر، والرواهص: الحجارة المتراصة.

(٣) المرجع السابق: ق٣٥،ص٢٨٥.

إن الممدوح لكريم معطاء، يعطي مادحه الخير الجزيل من خيل، وإبل، وجوار، وعبيد على هذه الرحلة الشاقة التي غيرت وجوه الإبل وأخفافها، والممدوح خيِّر جواد فهو لا يشرب من كف بخيل، بل يشرب بكفه هو، فهو أهل للمدح والثناء.وهاهوالشاعر يقول:

... أَكْلَلْتُهَا بَعْدَ المِرَا	حِ فَآلَ مِنْ أَصْلاَبِهَا
فَشَكَتْ إِلَيَّ كَلاَلَهَا	والجَهْدَ مِنْ أَتْعَابِهَا
وكأنَّهَا مَحْمُومُ خَيْـ	ـبَرَ بَلَّ مِنْ أَوصَابِهَا[1]

إن الناقة لتشكو سوء حالها من الكلال والضرّ والإعياء، ليرحمها ويريحها بعض الوقت، ولكنه لا يلتفت إليها، فهي كالمحموم الذي أفاق من البلاء.لقد تمثل بعض الشعراء العرب الناقة وكأنها تحدثه عن حالها وصعوبة حياتها، فإذا هو يشعرنا فنحس فيه وكأن هناك علاقة قرب بين الناقة والشاعر، وبخاصة عندما يبث شكواه وهمومه من خلالها، فهي الصديقة في سفره، ونشعر أن شاعرنا الأعشى تربطه علاقة نفسية بناقته، فهو الذي يحس بها وكأنها تناجيه فيفهم مناجاتها.

ولأن الناقة تشكل معادلاموضوعيا للشاعر ، فإننا نحس بالتواصل الرمزي والتعبيري، فكل منهما يفهم لغة الآخر، فهو يخلع ما يحسه ويشعر به من عواطف على هذه الناقة، وكأنها تصدر عن نفسه، والشاعر يمنح ناقته عناصر إنسانية ليدخل إلى طبيعتها وتكوينها، وهكذا يختلط الحديث عنها بالحديث عن النفس، فيشكلان معاً كياناً واحداً كل يعبر عن نفسية الآخر يقول الأعشى:

وَخَرْقٍ مَخُوفٍ قَدْ قَطَعْتُ بِجَسْرَةٍ	إِذَا خَبَّ آلٌ فَوْقَهُ يَتَرَقْرَقُ
هِيَ الصَّاحِبُ الأَدْنَى وبَيْنِي وَبَيْنَهَا	مَجُوفٌ عِلاَفِيٌّ وقِطْعٌ ونُمْرُقُ
وتُصْبِحُ مِنْ غِبِّ السُّرَى وكأنَّمَا	أَلَمَّ بِهَا مِنْ طَائِفِ الجِنِّ أَوْلَقُ[2]

---

(١) المصدر السابق: ق ٢٩، ص ٣٠٧. أكللتها: أتعبتها. المراح: النشاط. آل: نقص. بل من مرضه: أفاق.

(٢) المصدر السابق: ق٣٣، ص ٢٦٩ – ٢٧١.المجوف:الجوف، الضخمة .العلافي :الرحل العظيم. أولق: به ألق اي مَسّ من جنون.

لقد قطع الشاعر الصحراء الواسعة بناقة ضخمة الجسم في بيئة صحراوية . وعلى ظهرها رحل عظيم يتلاءم مع عظم جسمها. وهي تسير تحت أشعة الشمس اللاهبة كأن بها مساً من الجن لفرط نشاطها.إن الناقة في الشعر الجاهلي لا تُرَى بمعزل عن الصحراء باتساعها ورمالها المحرقة. لهذا فإن للطبيعة دوراً في تشكيل صورتها في الصحراء من قوة وسرعة. وقدرة على السير على الرغم من كل الظروف السيئة التي تحيط بها. يقول محمد عبدالمعيد خان: "فالطبيعة هي مركز النشاط لتصوير البدوي، والمسرح الذي تهيج فيه عواطف العربي"[1].لقد صور الشاعر الصحراء بصفات القسوة والشدة وشبهها بظهر الترس، أي إنها جرداء خالية من مظاهر الحياة. والذي سيخلصه من هذه الصحراء هي هذه الناقة الصلبة القوية وفي ذلك يقول:

وَفَلاَةٍ كأَنَّهَا ظَهْرُ تُرْسٍ ... قَدْ تَجَاوَزْتُهَا بِحَرْفٍ نَعُوبِ

عِرْمِسٍ بَازِلٍ تَخَيَّلُ بالرّد ... فِ عَسُوفٍ مِثْلِ الهَيْجَانِ السَّيُوبِ

تَضْبِطُ المَوْكِبَ الرَّفِيعَ بأَيْدٍ ... وَسَنَامٍ مُصَعَّدٍ مَكْثُوبِ[2]

وها هي ناقة الشاعر الصلبة الضامرة، تمدُّ عنقها في انطلاقها وهي تختال بالراكبين في المواكب، كأنها الفحل الآبيض الكريم. وفي ذلك يقول:

وَعَسِيرٍ مِنَ النَّوَاعِجِ أَدْمَا ... ءَ مَمْروحٍ بَعْدَ الكَلاَلِ رَجُوفِ

...ولَقَدْ أُحْزِمُ اللُّبَانَةَ أَهْلِي ... وأُعَدِّيهِمْ لأَمْرٍ قَذِيفِ

بِشُجَاعِ الجَنَانِ يَحْتَفِرُ الظَّلْ ... مَاءَ مَاضٍ عَلَى البِلاَدِ خَشُوفِ

مُسْتَقِلٌّ بالرِّدْفِ مَا يَجْعَلُ الجِ ... رَّةَ بَعْدَ الإِدْلاَجِ غَيْرَ الصَّرِيفِ

ثُمَّ يُضْحِي مِنْ فَوْرِهِ ذا هِبَابٍ ... يَسْتَطِيرُ الحَصَى بِخُفٍّ كَثِيفِ[3]

---

(١) خان. محمد عبدالمعيد: الأساطير والخرافات عند العرب. دارالحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ط٢، ١٩٨٠، ص٥٤.

(٢) حسين. محمد: ديوان الأعشى الكبير: ق٦٨، ص ٣٨٢.

(٣) المصدر السابق: ق٦٣،ص٢٦٥–٢٦٧. الخشوف:المشي ليلا.الصريف: صليل الانياب. كثيف:صلب.الجنان: القلب .

إنها راحلة الأعشى التي تمتاز بالسرعة والقوة. فهي موفورة النشاط بعد الكلال. تجتاز الأماكن المخيفة، وسرعان ما يشير إلى أن راحلته جمل شجاع الجنان. قوي. يخترق الظلام قاطعا حُجُبَ الليل الدامس غير هياب. حاملاً الرديف دون مبالاة لفرط نشاطه.

لقد تعدت العلاقة بين الشاعر وناقته الحدود الطبيعية المألوفة . إذ أخرجها الشاعر من صورتها العادية إلى صورة جديدة. كشف من خلالها رؤياه للحياة والكون. فأقام بينهما علاقة حميمية قوية. تقوم على التلاحم. والألفة. والمحبة الحقيقية.

خامساً: قدسية الناقة بكونها مخلِّصة من الهموم.

كان الجاهلي يحلف بالناقةلأهميتها ومكانتها . فهي سفينة صحرائه. وهي رمزحياته. في تلك الصحراء.... فهذا الأعشى يحلف بالراقصات وهي النوق فيقول:

حَلَفْـتُ بِـرَبِّ الرَّاقِـصَاتِ إلَـى مِنـىً ... إذا مَخْـرَمٌ جاوَزْنَـهُ بَعْـدَ مَخْـرَمِ

ضَـوَامِرَ خُوصـاً قـد أضَـرَّ بِهَـا السُّرى ... وَطابَقْنَ مَشْياً في السَّرِيح المُخَدَّمِ[1]

فهو يقسم برب الإبل التي تهوي إلى نجد. مجتازة جبالاً بعد جبال على الرغم من ضمورها، وغور عيونها التي أضرّ بها السفر. ونال منها الكلال. ولا يقسم العربي بشيء إلا أن يكون المقسم به مهماً.وكان العربي يقسم بالإبل بكونها عنصراً رئيساً في حياته: لأن الناقة تحتل مكانة رفيعة عنده. فهي وسيلة أمنه وأمانه. ورفيقته في الحل والترحال وسط ذلك التيه الواسع في الجزيرة العربية. يقول أنور أبو سويلم: "والناقة لم تكن مجرد حيوان. فقد احتلت مكانة عظيمة عند العرب في العصر الجاهلي بلغت حداً من التقدير. وتجسد ذلك بمعتقدات وطقوس عدة. حتى أن الشعراء كانوا يقسمون بالناقة. والقسم دليل على قدسية المقسم به وهو كثير".[2]

لقد كان العصر الجاهلي عصراً قلقاً مضطرباً. لم يكن فيه الناس على علم في كل أمورهم. لهذا كثرت التساؤلات حول الحياة. والكون. والموت. فنجد الشاعر الجاهلي

---

(١) المصدر نفسه: ق ١٥. ص ١٧٣. المَخرَم: الجبل . السريح: سيور الرحل .

(٢) أبو سويلم. أنور عليان: الابل في الشعر الجاهلي دراسة في ضوء علم الميثولوجيا والنقد الحديث. ج١ ، ص٢٦٥.

يهتم بناقته اهتماماً لافتا، لأنها هي الوحيدة القادرة على إنقاذ حياته من التيه، والضياع في تلك الصحراء. وكان عليهم الاهتمام بهذا الحيوان الذي اختص بسمات جسمية تختلف عن غيره من الحيوانات الأخرى، حيث جعله الله قادراً على تحمل الجوع والعطش أياماً طويلة.

و الناقة هي سفينة النجاة عند الجاهلي، نظر إليها أيضاً على أنها سفينة نجاته عند موته، فوجد ما يسمى عندهم بالناقة (البلية).

وتحتل الناقة في عرف الجاهلي مكانة مقدسة، لأنها سفينة العبور نحو العالم الآخر، فإن العربي الجاهلي يأنس بناقته ويحب أن تكون معه حتى بعد وفاته، لتنقله إلى العالم الآخر براحة وهدوء، لهذا تحدث العرب عن الناقة (البلية) التي تعقل عند قبر صاحبها وتترك دون أكل أو شرب حتى تموت، فيركبها الميت عند استيقاظه ويرحل إلى حيث يريد، وفي ذلك يقول مصطفى عبد الشافي في الناقة البلية " وهذه الناقة أي البلية تعقل على قبر صاحبها إذا مات، فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت، فإذا نهض الميت من قبره وجدها قريبة منه امتطاها عابراً عليها إلى العالم الآخر"[1].

ولأن الجاهلي آمن بحقيقة الموت، وأدرك أن الموت يطارد الإنسان إينما كان، فقد ربط الجاهليون هذا الحقيقة بالناقة التي هي مصدر حياته، ووسيلة ترحاله وتنقله عبر الصحارى القاسية، فإذا هلكت ناقته فهو هالك لا محالة، لهذا ارتبطت صورة الناقة بالموت، وفي ذلك يقول حسين جمعه: " ولعل هذا ما قوى لدى العرب قديماً ارتباط صورة الإبل بالموت"[2].وإذا ما كثرت الهموم وتزاحمت المصائب على الشاعر، فإنه لايجد ملاذاً أو مأوىً يأوي إليه غير هذه الناقة التي عدّها المنجية، والمخلصة من كل ما يعترض سبيله، باعتبارها الصديق الوفي الأول بالنسبة له، فهو يقول:

وَلَقَدْ أقطَعُ الخَلِيلَ إذا لَمْ ... أرجُ وَصْلاً إن الإخاءَ الصِّداقُ

بِكُمَيْتٍ عَرَفَاءَ ومُجمَرَةِ الخُفِّ غَذَتها عَوَانَةٌ وفِتَاقُ

---

(١)الشوري، مصطفى عبد الشافي:الشعر الجاهلي تفسير اسطوري، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، ط١، ١٩٩٦، ص٥٧.

(٢) جمعة، حسين: الحيوان في الشعر الجاهلي، دانيه للطباعة والنشر، دمشق – بيروت، ط١، ١٩٨٩، ص١٩٠–١٩١.

ذَاتِ غَـرْبٍ تَرمِـي المقَـدَّم بَـالرِّدْ فِ إذا مَـا تَـدَافَعَ الأرْوَاقْ

فَعَلَـى مِثلِهَـا أزُورُ بَنِـي قيـ سٍ إذا شَـطَّ بالحَبِيـبِ الفِـراقْ[1]

وقد يسلي الشاعر نفسه، ويحاول جهده الابتعاد عن الأحزان بهذه الناقة الجريئة، القوية التي تقطع السهول، والجبال بحيوية ونشاط فيقول:

وقـد أسَـلِّى الهـمّ حـين اعْتَـرَى بِجَـسْرَةٍ دوسَـرة عَـاقِرِ

زيّافَـةٍ بالرَّحْـلِ خطّـارةٍ تُلْـوِي بِـشَرْخَيْ مَيْـسَةٍ قَـاتِرِ[2]

أنها ناقة عاقر لا تلد، فهي الأقدر على قطع الصحارى، ولفرط نشاطها فإنها تضرب بذنبها الرحل فتكاد تسقطه من على ظهرها، دليل نشاطها وعزمها. تعدّ الناقة الصديق الآمن التي يلجأ إليها الشاعر كلما أدلهمت عليه الخطوب، فإذا صدّت الحبيبة عن حبيبها فعليه ألاّ ييأس من ذلك، لأن البديل موجود، وهو التوجه إلى الناقة الجُلَذِيَة التي تنسيه محبوبته يقول الشاعر:

فـإنْ كُنْـتَ مِـنْ وُدِّهـا يَائِـساً وأجْمَعْـتَ منهـا بِحَـجٍ قَلوُصَـا

فَقَـرّبْ لرَحلِـكَ جُلَذِيَّـةً هَبُـوبَ الـسُّرَى لا تمـلُّ النَّصِيـصَا

يُـشَبِّهُها صُـحْبَتِي مَوْهِنـاً إذا مـا اسـتتبّت أتانـا نحوصـا[3]

إن التعامل مع الناقة يجدد الحيوية والنشاط حتى لو وصل الإنسان إلى درجة اليأس ممن أحب، فعليه أن يجدد حيويته مع ناقته النشيطة التي لا تعرف الملل ، أو اليأس، فهي

---

(1) حسين، محمد: ديوان الأعشى الكبير، ق٣٢، ص٢٦١– ٢٦٣،عوانة وفتاق: ماءان.

(٢) المصدر السابق: ق١٨، ص١٩٧، جسرة: ناقة ضخمة، دوسرة: عاقر غير حامل، الميسة: شجرة نعمل منها الرّحال،القاتر: الجيد من الرحال أو السرج الذي يقي الظهر ولا يعقره.

(٣) المصدر السابق: ق٣١، ص٢٥٧، جلدية: ناقة سريعة، نصيص: مصدر نصّ أي أستحثها ليستخرج ما عندها من نشاط، نحوص: لا ولد لها، أستتبت: أستقامة في السير.

تستجيب لصاحبها كلما استحثها على المسير والإسراع، وهي تشبه أتان حمار وحش مكتنزة لم تلد، وكذلك ناقته ما زالت صغيرة السن لم يضعفها ولد.

وإذا رأى الشاعر ما يشينه ويبغضه، فإنه يتوجه إلى ناقته فيقول:

ولقــد أجْــذِمُ حَبْلِــي عامــداً بعِفَرْنَــــاةٍ إذا الآل مَـــــصَحْ

تَقْطَــعُ الخَــرْق إذا مــا هَجَّــرَتْ بهِبَـــــابٍ وإرَانٍ ومَــــــرَحْ

وتُــوَلِّى الأرضَ خُفّـــاً مُجْمَـــراً فــإذا مــا صَــادَفَ المَــرْوَرَضَــحْ

فَتَــــرَاه قَلِقَـــــاً فَرَاسِــــناً ذَا رنيــنٍ صَحِــلَ الــصَّوْتِ أبَــحْ[1][21]

إنه يقطع الحِبال عندما لا يرضيه المقام، فيذهب إلى ناقته التي هي صديقته، ورفيقة دربه، يركبها ويقطع الصحاري المترامية غير مبالية بالحرّ، والهاجرة، وتتكسر الحجارة من تحت أخفافها العظيمة.والشاعر قادر على قطع حبل المودة والحب فيتوجه إلى الناقة قائلا:

قَــدْ تَعلَمــينَ يـــا قُتيلَـــةَ إذْ خَـــانَ حبيــــبٌ عَهْــــدَهُ وأدَلْ

أنْ قَــدْ أجُـــدُّ الحَبْــلَ مِنـــهُ إذا يــا قَتْــلُ مــا حَبْــلُ القَــرِينِ شَــكَلْ

بعنتـــريسٍ كالمَحَالَـــةِ لَـــمْ يُــثْنَ عَلَيْهَـــا الــضِّرَاب جَمَــلْ[2]

إن الشاعر لقادر على قطع حبل المحبة، وإن له لمتحولاً فوق ناقة ضخمة، تجري في الصحراء بسرعة كجري البَكَرة الضخمة من حولها الحبل وهذا دليل على تفوق الناقة وقدرتها على تحمل الأسفار .وقدرتها على انقاذ صاحبها من المآزق وصعوبات الحياة.

سادسا: لوحة الناقة وحمار الوحش والبقرة الوحشية في شعر الأعشى الكبير.

---

(١) المصدر السابق: ق٥٢، ص٣٢٧. أدل: تكبر وتاه. شَكَل: أشتبك. عنتريس: ناقة قوية ضخمة. المَحَالة: الدولاب والبكرة العظيمة التي يدول حولها الحبل. الضِّراب: نزو الفحل على الأنثى.

كثيراً ما شبه الأعشى ناقته بالحمار الوحشي القوي، وسط الصحراء الذي قطعها وقت اشتداد الحر، وقد خفق الآل وارتفع، والحمار الوحشي الذي يرعى اتنه ويسوقها فيقول:

وابـــــيضَ كـــــالنَّجْمِ آخيتُـــــهُ	وبيـــــــداءَ مُطَّـــــــرِدٍ آلهـــــــا
قَطَعْـــــتُ إذا خَـــــبَّ ريعانُهـــــا	ونُطِّـــــق بـــــالهول أغفَالهَـــــا
بِنَاجِيـــــةٍ مِـــــنْ سَـــــرَاةِ الهِجَـــــا	نِ تـــــأتي الفِجَـــــاجَ وتغتالُهـــــا
تَرَاهَـــــا كأحقَـــــبَ ذي جُـــــدَّتيـــــ	نِ يَجْمَـــــعُ عُونـــــاً ويَجتَالُهَـــــا
...فَـــــذَلِكَ شَـــــبَّهتُهُ نَـــــاقَتِي	وَمَـــــا إنْ لِغَيْـــــرِكَ إعْمالُهَـــــا[1]

إنها الناقة االقوية التي ساعدت الشاعر على قطع البيداء، فهي من سلالة معروفة لديه. فهي تشبه الحمار الوحشي في هذا الجانب.لقدوصف الأعشى ناقته بالجرأة، وهي القادرة على قطع المفاوز المهلكة التي يخافها الضعفاء من الناس . وهو يرى من خلالها المناظر الطبيعية، والمشاهد البديعة، كمشهد الثور الوحشي، والحمار الوحشي، ومشاهد الظليم والنعامة. فهو يشبِّه ناقته بها لأنها من الحيوانات الصحراوية القادرة على مقاومة الصعاب، والعقبات التي تواجهها، وهذه من المشاهد الرئيسة التي نجدها في الشعر العربي القديم، وبخاصة عند شاعرنا الأعشى.

واعتقد أن الشاعر عندما يعقد مقارنة بين الناقة والحمار الوحشي، أو الثور الوحشي، أو الظليم أو النعامة، ويصفها بالقوة والقدرة على التحدي، باعتبارها بديلاً للناقة، فإنه لا يريد أدخال ناقته في صراع مع الصحراء، أو مع الأعداء، بل يدخل هذه الحيوانات في حالة صراع مع أعدائها، وتستمر بالصراع إلى أن يتحقق الفوز. وهذا يعني أن الشاعر يحب ناقته، وهي أقرب الحيوانات إلى نفسه، وإدخال الناقة في مثل هذا الصراع قد

---

(١) المصدر السابق: ق٢١، ص٢١٣– ٢١٥. أبيض: رفيق أبيض صبيح كأنه النجم قد آخيته. خبّ: طال وارتفع. الريعان: السراب. نطِّق: شدّ وسطه بنطاق.

يضعفها، ويشكل ذلك تهديداً لها. وكل ما يهدد ناقته خطر عليه، لأن الناقة تمثل الشاعر.

وكثيراما شبه الشاعر ناقته بالحمار الوحشي ، الذي أكل البقل ورعى النبت، ثم أفزعته سحابة مظلمة غزيرة المطر، ليفاجأ في الصباح بمجموعة من الكلاب التي طاردته ولكن دون جدوى. ثم يعجب الشاعر بالحمار فيشبه ناقته به. لأنه قد خلّص نفسه بجهده وقوته. وكذلك ناقة الشاعر ستخلصه من مأزقه وسط الصحراء. ليصل إلى بغيته فيقول:

ذاك شبَّهتُ ناقتي إذ تَرَامتْ　　　بي عليها بعد البِرَاق البِرَاقُ

فَعَلَى مِثِلِها أزُورُ بَنِي قيسٍ إذا شَطَّ بالحَبيبِ الفِرَاقُ[1]

وكلما وصف الشاعر الصحراء بصفات القسوة والصعوبة انتقل إلى ناقته التي تعادلها. قوة. وجرأة. ثم ينتقل إلى الحمار الوحشي. وقد وسمه بالخشونة والقوة فيقول:

فَلاَ بأسَ قَدْ أُجَوِّزُ حَاجَتي　　　بمُستَحصِدٍ بَاقٍ من الرَّأي مُبْرَمِ

وكورٍ عِلاَفيٍّ وقِطعٍ ونُمْرُقٍ　　　ووَجْنَاءَ مِرْقَالِ الهَوَاجِرِ عَيْهَمِ

عَرَنْدَسَةٍ لا يَنقضُ السَّيْرُ غَرْضَهَا　　　كأحْقَبَ بالوَفْراء جأبٍ مُكَدَّمِ[2]

لقد اتسمت الناقة بالضخامة، والقدرة على السير وقت الهاجرة، وهي كالحمار الوحشي قوة وجرأة. وللناقة أهميتها في مساعدة الشاعر، فبها يتغلب على هواجسه الداخلية. وبها يواجه حيوانات الصحراء. وهي القادرة على مواجهتها ،ولهذا فهي تعاني كل المعاناة لتنقذ راكبها من الخوف والضياع وسط هذا التيه.

ومن الملاحظ أن الشاعر يلجأ إلى الاستطراد في كثير من الأحيان، حيث يتحدث عن الناقة. ثم ينتقل الى وصف الحمار الوحشي. ثم يعود من جديد إلى ناقته التي أشبهت

---

(١) المصدر السابق: ق٣٢. ص ٢٦٣.البراق:الأرض الغليظة فيها حجارة، ورمل، وطين.شطَّ:بَعُدَ.

(٢) المصدر السابق : ق١٥،ص١٦٩.الاحقب:الحمار الوحشي.عرندسة:ناقة شديدة.

الحمار بالقوة، والجرأة، والسرعة،و الذي يمثل الأبوة والحنو.وها هو الأعشى يعود من جديد ليقول في ناقته التي تطوي البيد بحيوية كحيوية الحمار الوحشي فيقول:

أجَدُّوا فَلَمَّا خِفْتُ أن يَتَفرَّقُوا فَرِيقَيْنِ مِنْهُمْ مُصْعِدٌ ومُصَوِّبُ

طلبْتُهُمْ تَطْوِي بِيَ البِيدَ جَسْرَةٌ شُوَيْقِئَةُ النَّابَيْنِ وَجْنَاءُ ذِعْلِبُ

مُضَبَّرَةٌ حَرْفٌ كَأَن قُتُودَهَا تَضَمَّنَهَا مِن حُمْرِ بَيَّانَ أحْقَبُ[1]

كونت الناقة في رحلتها مشاهد. وصور متعددة لحيوانات الصحراء التي تمثل رمزاً للقوة، والثبات، والسرعة.يقول محمد صادق حسن عبد الله: "ومن هنا كانت هذه المشاهد غنية، وخصبة في رموزها، ودلالاتها النفسية والموضوعية. فالشاعر أراد منها معناها الحسي، وهو تشبيه ناقته بهذا الحمار والثور الوحشي، والظليم. وقوته وسرعة حركته وتغلبه وتحمله لمشاق السير ومخاطر الطبيعة، كما أراد المعنى النفسي لتصوير حالة الإنسان، ومتاعبه في هذه الحياة. وجملة المخاطر التي تحيط به، كما أراد المعنى الرمزي لتصوير فلسفة الإنسان ونظرته إلى الكون" [2]

فَذَلِكَ بَعْدَ الجَهْدِ شَبَّهتُ نَاقتِي إذَا الشَّاةُ يَوماً فِي الكِنَاسِ تَجَرْثَمَا

تَؤُمُّ إياساً إن رِبِّي أبَى لهُ يَدَ الدَّهْرِ إلا عِزَّةً وتَكَرُّمَا[3]

إن الحديث عن الحمار الوحشي يشكل قصة تقليدية في الشعر العربي. فهي قصة الثور في كفاحة المرّ العنيف في تلك الصحراء، وهذا الثور المكافح الجسور أشبه ما يكون بالناقة وقد أجهدتها الرحلة، فتجشمت الأهوال في عرض الصحراء للوصول إلى هدفها.

سابعا: لوحة الناقة والظليم والنعامة في شعر الأعشى الكبير.

كثيراً ما وصف الشاعر ناقته بالسرعة في السير. فيشبهها بذكر النعام الذي يطارد انثاه وفي ذلك يقول الاعشى:-

---

(١) المصدر السابق: ق ٣٠، ص٢٥١.

(٢) عبد الله، محمد صادق حسن: خصوبة القصيدة الجاهلية معانيها المتجددة دراسة وتحليل ونقد. دار الفكر، القاهرة، د ١٩٨م، ص٣٦٢.

(٣) ديوان الأعشى الكبير: ق د د، ص٢٤٧.

وقـــد أقْـــرِي الهُمُـــومَ اذا اعْتَرَتْنِـــي ... غَـــذَا فِـــرَةٌ مُـــضَبَّرَةً عُقَامَـــا

مُفَرَّجَـــــةً يَـــئِطُّ النِّـــسعُ فِيهَـــــا ... أطِـــيطَ الـــسَّمْهَرِيَّةِ أنْ تُقَامَـــا

اذا مَـــا رُعْتَهَـــا بـــالزَّجْرِ آجَّـــتْ ... أجِـــيجَ مُـــصَلَّمٍ يَزْفِـــي نَعَامَـــا

تَـــشُقُّ اللَّيْـــلَ والـــسَّبْرَاتِ عَنْهَـــا ... بـــأتْلَعَ سَـــاطِعٍ يَـــشْرِي الزِّمامـــا[1][2]

يـذكر الشـاعر ناقتـه كلمـا ألَمَّتْ بـه مصيبة أو نـزل بـه هـم. فإنـه يلجـأ إليهـا ليخفـف معاناتـه مـن الألـم والحـزن. وناقتـه لا تطيـق ضـرب السـوط. فهـي تسـرع كسـرعة ذكـر النعـام الـذي يبـاري انثـاه خوفـاً عليهـا، وحفاظـاً علـى حياتهـا. فالسـرعة والقـوة هـي أبـرز سمات الناقة، وهو يصفها بالنعامة قائلا:

وإذَا اللّقَـــــاحُ تَرَوّحَـــــتْ بِأصِـــــيلَةٍ ... رَتَـــكَ النَّعَـــامِ عَـــشِيَّةَ الـــصُّرّادِ

جَرِيَـــاً يَلُـــوذُ رِبَاعُهَـــا مِـــنْ ضُـــرِّهَا ... بـــالخَيمِ بَـــيْنَ طَـــوَارِفٍ وهَـــوَادي

حَجَـــرُوا عَلَـــى أضْـــيَافِهِمْ وَشَـــوَوْا لَهُـــمْ ... مِـــنْ شَـــطِّ مُنْقِيَـــةٍ ومِـــنْ أكْبَـــادِ[2]

إنهـا النيـاق الهجـان التـي تعـود إلـى بيـوت أصـحابها فـي الليـالي البـاردة مسـرعة كسـرعة النعـام إلـى عشـه. حبـاً فـي الاسـتقرار، والحيـاة الكريمـة. وهـا هـو الأعشـى يمثـل ناقته بالحمار الوحشي تارة. وبالنعامة والظليم تارة أخرى. فيقول:

وشِـــمِلَّةٍ حَـــرْفٍ كَـــأنَّ قُتُودَهَـــا ... جِلَّلْتُـــهُ جَـــوْنَ الـــسَّرَاةِ خَفَيْـــدَدَا

وكأنّهَـــا ذو جُـــدّةٍ غَـــبَّ الـــسّرَى ... أوْ قَـــارِحٌ يَتْلُـــو نَحَـــائِصَ جُـــدّدا

---

(1) المصدر السابق: ق ٢٩، ص ٢٤٥-٢٤٧.

(2) المصدر السابق: ق ١٦، ص ١٨١-١٨٣. اللقاح: الإبل. الأصيل: وقت غروب الشمس. يوم صرد وعشية صرد: باردة. الرِّباع: جمع ربع (بضم ثم فتح) وهو ولد الناقة في أول الإنتاج. الطوارف من الخباء: ما رفعت من جوانبه للنظر إلى الخارج. الهوادي: جمع هاد وهو العمود في مقدمة الخباء. حجر عليه: حبسه. الشط: جانب السنام أو نصفه. أنقت الأبل: سمنت فهي منقية.

أو صَعْلَةٌ بالقَارَتَيْنِ تَرَوَّحَتْ   رَبْدَاءَ تَتْبَعُ الظَّلِيمَ الأرْبَدَا

طَوْرًا تكُونُ أمامَهُ فتَفُوتُهُ   وَيفُوتُهَا طَوْراً إذا ما خَوَّدا[1]

إنها ناقة الأعشى النشيطة كذكر النعام الأسود السريع في المشي، أو كالحمار الوحشي الذي اكتمل شبابه ونشاطه ويتبع أُتنه، وهو مثال للحذر على اناثه. ثم عاد إلى النعامة السريعة التي تركض لتلحق بذكرها عائدين إلى عشهما ليتمكنا من معرفته قبل حلول الظلام.

والله الموفق

* * *

---

(١) المصدر السابق: ق٣٤، ص ٢٧٩. شملة: ناقة خفيفة. حرف: صلبة. الخفيدد: الظليم وهو ذكر النعام.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أبو سويلم. أنور عليان: الإبل في الشعر الجاهلي دراسة في ضوء علم الميثولوجيا والنقد الحديث. دار العلوم. ١٩٨٣.
- الأصبهاني.ابو الفرج: الأغاني. المجلد السابع. القسم الأول.منشورات دار الفكر–دارمكتبة الحياة– بيروت. د د ١٩.
- جمعة. حسين: الحيوان في الشعر الجاهلي. دانية للطباعة والنشر. دمشق / بيروت. ط ١٩٨٩.١.
- حسين. طه: حديث الأربعاء. دار المعارف بمصر. ط١. ١٩٨٢.
- حسين. محمد محمد: ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس). دار النهضة العربية للطباعة والنشر– بيروت.١٩٧٢.
- خان. محمد عبد المعيد: الأساطير والخرافات عند العرب. دار الحداثة للطباعة والنشروالتوزيع. بيروت– لبنان.ط.١٩٨٠.٢.
- ذو الرمة.غيلان بن عقبة العدوي: ديوان ذي الرمة.شرح الامام ابي نصر احمد بن حاتم الباهلي. رواية الإمام أبي العباس ثعلب. تحقيق عبد القدوس ابو صالح. مؤسسة الرسالة– بيروت.ط ٣. ١٩٩٣.
- الرباعي.عبد القادر: الصورة الفنية في شعر زهير بن ابي سلمى. دار العلوم للطباعة والنشر– الرياض – السعودية.ط ١. ١٩٨٤.
- رومية. وهب: الرحلة في القصيدة الجاهلية. مؤسسة الرسالة– بيروت. ط٢. ١٩٧٩.
- الشلبي. سعيد اسماعيل: الاصول الفنية في الشعر الجاهلي.مكتبة غريب – القاهرة.١٩٧٧.
- الشوري.مصطفى عبد الشافي: الشعر الجاهلي تفسير اسطوري.الشركة المصرية العالمية للنشر. لونجمان – مصر. ط١. ١٩٩٦.
- الصديقي. عبد اللطيف: الزمان ابعاده وبنيته. المؤسسة الجامعية – بيروت ط د ١٩٩.١.
- ضيف. شوقي: العصر الجاهلي. دار المعارف بمصر. ط ٢٤. ٢٠٠٣.
- عبد الله. محمد صادق حسن: خصوبة القصيدة الجاهلية معانيها المتجددة دراسة وتحليل ونقد. دار الفكر – القاهرة. د ١٩٨.

- عجينة، محمد: موسوعة اساطير العرب عند الجاهلية ودلالاتها، دار الفارابي – بيروت – لبنان ، ط١، ١٩٩٤.
- ناصف، مصطفى: قراءة ثانية لشعرنا القديم، دار الاندلس– بيروت، ط٢، ١٩٨١.
- نوفل، سيد: شعر الطبيعة في الأدب العربي، مطبعة مصر– القاهرة، ١٩٤٥.

* * *

VOLUME 24
June - 2012

JOURNAL OF ARABIC STUDIES

KINGDOM OF SAUDI ARABIA

KINGDOM OF SAUDI ARA
MINISTRY OF HIGHER EDUC
AL-IMAM MUHAMMAD IBN S
ISLAMIC UNIVERSITY



www.imamu.edu.sa
e-mail: journal@imamu.edu.sa

بحث العلمي
Deanship of Acade